الموقف الأدبي



248





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

248

العدد 10 السنة 39 آب 1992

فهرست

■ نحو المؤتمر الخامس.. آراء ومناقشات

■ ادب وفن

■ مقتطفات ومعالجات

الغلافان الاول والأخير للفنان بديع محمد

قوانين المياه الدولية ومشكلة الفرات

الدكتور حسن الجنابي

مقدمة

نتيجة للتقدم التكنولوجي الهائل الذي حققته البشرية اصبح من الممكن للدول ان تقوم ببناء السدود والخزانات الكبرى لحجز المياه في فترات الوفرة لغرض استخدامها فيما بعد للزراعة أو توليد الطاقة وغيرها. وبالنظر لتعاظم حاجة الانسان وقدرته على استهلاك المزيد من المياه لمختلف النشاطات الاقتصادية والصحية والبيئية الخ، تعاظمت وتفاقمت بنفس الوقت المشاكل بين الدول التي تشترك بأحواض نهرية أو حدود مائية فيما بينها بسبب نزوع تلك الدول الى استغلال المياه بما يحقق مصالحها الذاتية ويؤمن فوائد مادية وعائدات اكبر. ومع التقدم الحضاري المضطرد نشأت مشكلات اخرى اخذ الاحساس بمخاطرها يتعاظم مع تزايد الوعي العام بها كمشكلة تلوث المياه التي تعاني منها في الغالب الدول التي تقع في الاجزاء السفلى من الانهار مما جعل قضية الماء تستحوذ على انتباه العالم وخصوصاً خلال العقود الاخيرة. فعلى خلفية المصالح المتناقضة أو المتعارضة سواء كانت اقتصادية أو سياسية نشأت وستنشأ خلافات خطيرة بين الدول حول تقسيم المياه المشتركة أو اساليب استغلالها واوقات حجزها أو اطلاقها ومضاعفات السياسة المائية لاي طرف على الطرف الآخر. من هنا نشأت ضرورة عقد الاتفاقيات والمعاهدات التي تختص بهذا الحقل منعاً لحدوث نزاعات مسلحة وبما يضمن الحقوق الاساسية

لجميع الاطراف. وسيقتصر هذا المقال على تناول المبادىء الدولية التي تتعلق بالانهار الدولية فقط وعلى ضوء ذلك دراسة المشكلات المتعلقة بنهر الفرات والآثار الكارثية للاعمال التركية في حوضه على الدول السفلى وخاصة العراق.

الانهار الدولية

الانهار الدولية هي التي تقطع حدود اكثر من بلد أو تشكل بحد ذاتها الحدود السياسية بين الدول، وهي تختلف عن الانهار التي تقع كلياً داخل دولة واحدة والتي لا تسبب عملية استغلال مياهها أية اشكالات قانونية ذات طابع دولي، في حين ان الانهار الدولية يشكل كل واحد منه وحدة فيزيائية وجغرافية وهيدرولوجية واحدة إلا انها مقسمة ادارياً وسياسياً بخط الحدود الفاصل بين الدول، وبالتالي فان اختلاف قوانين تلك الدول أو طبيعة انظمتها السياسية واولوياتها الاقتصادية يجعل من النهر الواحد (عدة انهار) من حيث الاهمية والتناول بالنسبة لهذه الدولة أو تلك. ففي حين قد تعتبر دولة ما ان بناء خزان كبير لتخزين المياه ذو أهمية استراتيجية لها ويقع في مقدمة مهامها لتحقيق نهضة اقتصادية أو توليد الطاقة الكهربائية مثلاً، تكون تلك العملية ذات تأثير بالغ السوء على الدولة التي تقع اسفل السد وتعتمد على تلك المياه اعتماداً كلياً حيث يقطع عنها شريان الحياة، إلا انها تصبح ثانوية اذا كان للدولة السفلى مصادر بديلة تفي باحتياجاتها أو فيما اذا كانت تلك الدولة مهددة بفيضانات مدمرة من قبل النهر. وكذا الامر بالنسبة لاغلب النشاطات المتعلقة باستغلال مياه الانهار مثل الملاحة، التلوث والاخطار البيئية، الفيضانات، تقسيم المياه ووفرتها لاغراض الزراعة والري.. الخ.

وفي عالم اليوم يوجد اكثر من (٢٠٠) نهر دولي (مشترك بين دولتين أو أكثر) وهناك اكثر من (٣٠٠) اتفاقية أو معاهدة تتعلق بمصادر المياه تلك ومختلف جوانب استغلالها[1].

ومن اهم الانهار الدولية النيل، الراين، الدانوب، الامازون، الفرات، السنغال، النيجر، الكونغو، بلاتا، الهند، الميكونغ*. وتعتبر المعاهدات المعقودة حول تلك الانهار الاساس المادي ليس فقط لحل المشكلات الثنائية بين الدول المعنية بل الارضية التي استند عليها التشريع الدولي في استنباط الاسس التي تمثل القانون الدولي في هذا الميدان. وتتمتع الاتفاقات الثنائية أو الاقليمية بأهمية كبرى في ظل غياب تشريع دولي فعال واجباري، خاصة اذا رافق ذلك وجود خلافات سياسية بين تلك الدول. وتعود اسباب الخلافات الدولية في غالب الاحيان الى استحواذ الدول التي تقع في اعلى النهر على كميات كبيرة من المياه تمنع معه الدول السفلى من الاستفادة من حصتها المائية أو تقلل الكمية التي

تصل اليها، مما يجعلها (أي الدول التي تقع في اعلى النهر) تمتنع عن الاتفاق مع جيرانها حول تقسيم حصص المياه تحت مختلف الحجج والاسباب والتي لا تخرج في كل الحالات عن اطار المصالح الانانية. لا بد من التذكير هنا ان احتجاز المياه لاغراض توليد الطاقة الكهربائية فقط لن يؤثر سلباً على كميتها الجارية.

خصائص الانهار الدولية وبعض المشكلات المتعلقة بها

ان الماء مادة متحركة ومتحولة من شكل الى آخر ضمن ما يسمى بالدورة الهيدرولوجية، وهو يجري بما تمليه القوانين الطبيعية باتجاه الميل الارضي قاطعاً الحدود الدولية دون استئذان هذه الدولة أو تلك ودون أي اعتبار لتقسيمات ادارية أو سياسية، ولكنه من الناحية الفعلية يخضع لمتطلبات مختلفة باختلاف تلك الدول منها ما هو سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي. وقد تفاقمت تعارضات الدول حول الانهار عندما اصبح بالامكان تنظيم جريان النهر وتطوير الحوض النهري في جزء منه أو تحويل مياهه أو قطعها أو التحكم بكميتها الجارية ناهيك عن امكانية تلويثها أو التأثير على الحياة البيولوجية فيها وما يرتبط بكل ذلك من اقتصاد وسياحة واستجمام وغيرها. وفي هذا الميدان فان المدى الذي تعتبر ضمنه الدولة المعنية مسؤولة عن خصائص الماء في النهر (كمياً ونوعياً) مازال غير محدد بشكل واضح نظراً للتعقيدات العديدة التي تحيط به، من جانب، وتداخل تلك الخصائص وارتباطها مع بعضها، من جانب آخر. غير ان الخبراء سواء اختصوا بالقانون أم بهندسة المياه وعلى اختلاف توجهاتهم ومنهم السيد كابونيرا[٢] الرئيس السابق لقسم التشريع في منظمة الغذاء والزراعة الدولية FAO ورئيس المجلس التنفيذي للجمعية العالمية لقانون المياه يتفقون على ان المشكلات المتعلقة بالانهار الدولية هي بالدرجة الاولى سياسية تتعلق بالارادة السياسية لكل دولة في تحقيق تعاون مثمر يستند على القانون فيما يخص مصادر المياه الدولية طالما ان الوسائل والمقاييس التقنية والادارية لتحقيق افضل استغلال لتلك المصادر متوفرة وليست صعبة على الاطلاق. فعندما يطفح الخلاف السياسي وتتراجع الرغبة بالمنفعة المشتركة لدى الدول أو الاحساس بالمسؤولية التضامنية تجاه تطوير مصدر المياه المعني لخير الجميع والتعامل مع الحوض النهري كأجزاء تابعة لهذه الدولة أو تلك دون اعتباره وحدة فيزيائية واحدة لا تقسمه الحدود إلا سياسياً وادارياً ومن ثم القيام بأعمال غير مدروسة في جزء منه، فان ذلك ينعكس سلبياً على النهر ككل ويؤدي الى اساءة استعمال المياه بالضد من القوانين الطبيعية التي تضمن المحافظة عليها وعلى جريانها وتجددها. والمياه بالرغم من كونها مصدر الحياة فانها المادة القابلة للضياع اكثر

من أية مادة اخرى، ويشير بهذا الصدد Laurgeri [٣] الى ان ثلث الماء الصالح للشرب على الكرة الارضية ضائع في حين ان نصف البشرية يعاني من نقص تلك المياه!!

على ضوء ما سبق يمكن ايجاز المشاكل التي تتعلق بالانهار الدولية بما يلي:

١ ـ ان أهم مشكلة وتتوقف عليها حلول المشكلات الاخرى هي بالاساس سياسية، فاذا جرى تغليب الصالح العام بما يضمن صيانة النهر والمحافظة على مياهه كمياً ونوعياً فان الخلاف قابل للحل بأسرع ما يمكن ولا يتطلب تدخل اطراف اقليمية أو دولية. وامثلة ذلك عديدة منها ما هو متعلق بولايات الدولة الفيدرالية الواحدة والتي تعتبر بهذا الخصوص وكأنها دول مستقلة لها قوانينها ومصالحها المختلفة كما هو الحال مع نهر Murray في استراليا أو انهار الولايات المتحدة، ومنها ما يتعلق بدول مستقلة كما هو حال انهار الراين والدانوب والاودر في اوربا أو البحيرات والانهار المشتركة بين الولايات المتحدة وكندا. أما اذا لم تتوفر الارادة السياسية الحسنة فان حل تلك المشكلات يصبح من اعقد المهام ولا بد من تدخل دولي للمساعدة في الوصول الى حلول مرضية.

٢ ـ ان اللجوء الى الاطراف والمؤسسات الدولية والقبول بالحلول التي تقترحها تلك الاطراف يعني ضمناً تحديد حرية الدول في السيادة على المياه التي تقع داخل حدودها الوطنية المعترف بها بمعنى عدم تمكنها من استغلال المياه وفقاً لمصالحها فقط دون الاخذ بنظر الاعتبار حقوق الدول الاخرى، مما يتوقع معه ان ترفض بعض الدول اللجوء الى الهيئات الدولية لفض النزاعات حول المياه. ومن المألوف ان الدول التي تقع في اعلى النهر تكون غالباً رافضة لفكرة اللجوء الى الهيئات الدولية.

٣ ـ لا يمكن للمجتمع الدولي ان يتدخل لحل النزاعات المائية ما لم تلجأ الاطراف المعنية الى طلب المساعدة كما لا يمكن اجبار دولتين أو اكثر على أي شكل من اشكال الحلول للمشاكل المعلقة بينها خاصة اذا كانت هذه الدول متمكنة أو قد تمكنت من وضع الميكانزمات الخاصة بحلول المشكلات المائية بينها. فمثلاً ان بعض الدول قد لجأت الى اقامة اللجان المشتركة المشرفة على تنظيم الاستفادة من مياه الانهار منذ زمن بعيد كما هو الحال مع نهر الراين الذي نشأت في عام ١٧٨٥ لجنة مركزية للاشراف على الملاحة فيه ثم لجنة اخرى في عام ١٩٤٩ لتشجيع التعاون بين الدول ذات العلاقة لمنع التلوث والسيطرة على نوعية المياه[٤]، كما يعود تأريخ انشاء اللجنة الاوربية حول نهر الدانوب الى عام ١٨٥٦ وهي تشمل جميع الدول التي يمر بها النهر. وتقوم هذه اللجنة بتنسيق نشاطات الدول المشتركة في مجالات الملاحة وتوليد الطاقة والسيطرة على الفيضانات واستغلال المياه لاغراض الري وفي عام ١٩٤٨ حلت محلها لجنة اخرى. أما الولايات المتحدة وكندا فقد اقامتا في عام ١٩٠٩ اللجنة الدولية المشتركة المشرفة على تنظيم استغلال

جميع المياه والانهار والبحيرات المشتركة بينهما وكذلك تنفيذ البحوث والدراسات ووضع الحلول لكل ما يتعلق بتلك المياه. أما اول اتفاقية مائية مشتركة حول نهر النيل بين مصر والسودان لاستغلال وتطوير النهر فقد وقعت في عام ١٩٢٩[٥]؛ (لايزال تطوير حوض النيل وخاصة في جزئه الاثيوبي يثير جدلاً ومخاوف مشروعة).

٤ ـ ان التوصل الى اتفاق ما أو معاهدة هو في المقام الاول من واجبات الاطراف المعنية وان عدم وجود مثل ذلك الاتفاق الذي يحدد حقوق والتزامات كل طرف يجعل من الصعب اللجوء الى طرف ثالث سواء كان هيئة دولية أو غيرها للتدخل لحل الخلافات بينها إلا ان الاساس القانوني الذي يفترض ان يكون قد اخل به احد الاطراف مفقود في هذه الحالة رغم توفر القواعد الدولية المعترف بها لحل هذا النوع من الخلاف.

٥ ـ ولا بد من الاشارة الى العديد من العوائق العملية في مجال تطوير الانهار الدولية نوجزها بما يلي:

أ ـ رفض بعض الاقطار اعطاء المعلومات الهيدرولوجية الصحيحة فيما يتعلق بكميات المياه المتجددة وحجم احتياطاتها لاعتبارات خاصة أو في احسن الحالات اعطاء معلومات مزورة منا يثير شكوك الدول الاخرى.

ب ـ وجود حالات حروب اهلية أو اضطرابات سياسية في بعض الدول مما يعني انعدام امكانية التعاون أو العمل المشترك.

ج ـ الاختلاف في مستوى التطور لدى البلدان المشتركة بحوض نهر واحد وتوفر أو عدم توفر الخبرة والامكانية المطلوبتين عملياً ومادياً مما يجعل بعضها عرضة للابتزاز أو الاستغلال من قبل بعضها الآخر بدون وجود مؤسسة دولية محايدة.

تطور القانون الدولي حول الانهار

ان محاولات ايجاد صيغ ومبادىء فعالة تتعلق بحل الصراعات حول المياه الدولية مستمرة ضمن المحاولات الجارية لحل المشاكل المتعلقة بعموم المصادر الطبيعية المشتركة بين الدول، اذ ان الخلافات المائية التي كانت معروفة حتى وقت متأخر متعلقة بالملاحة فقط. ولم تكن هناك بهذا الميدان صراعات كبرى كما لم تكن آنذاك وفرة المياه أو نوعيتها مشكلة ذات شأن. ومع تزايد الاهتمام بمثل تلك الجوانب الناتجة عن التطور الصناعي الهائل والحاجة الى نوعية مياه عالية الجودة اضافة الى كميتها الضرورية للاقتصاد والاستهلاك اليومي المتزامن مع انتشار حالات جفاف مستمرة وارتفاع درجة حرارة الجو والتدمير المتسارع للغابات والزحف الصحراوي في كثير من القارات، صارت قضية مصادر المياه

تحتل مرتبة متقدمة في اهتمام المنظمات الدولية، وخاصة منظمة الامم المتحدة ومختلف المؤسسات التابعة لها، إلا ان التطور في قوانين المياه الدولية لم يكن بمستوى خطورة المشكلة وتتأتى صعوبة ايجاد الصيغ الصالحة لذلك مما يلي :

١ ـ ان كل حوض نهري يتميز بخصائص فيزيائية وهيدرولوجية وجيوسياسية خاصة به. ولا توجد احواض نهرية متشابهة مما يتطلب ايجاد حلول خاصة بكل حوض على حدة وهذا بدوره اعاق تطوير حل مثالي دولي يصلح للانهار جميعاً.

٢ ـ معارضة الدول (وخاصة التي تقع في اعلى النهر) لاي نوع من القوانين التي تحدد استقلاليتها أو حريتها في السيادة على مياه الانهار التي تجري ضمن حدودها الوطنية والتي تعتبر حتى وقت قريب خاضعة لمبدأ السيادة المطلقة لتلك الدول وفق ما ينطوي عليه مفهوم السيادة من عدم وجود أية تقييدات أو مؤثرات خارجية على حرية الدول في العمل بما تراه مناسباً لها وترى هذه الدول ان القانون الوحيد الصالح لحل الخلافات هو القانون الذي تضعه الدول المعنية فقط.

ان اهم محطات تطور القانون الدولي هي :

أولاً : قواعد هلسنكي

لقد حاول اتحاد رجال القانون العالمي في اجتماع هلسنكي عام ١٩٦٦ استنباط القواعد أو الاسس التي تسمح بتنظيم الانهار الدولية. وكانت تلك المحاولة الاولى من نوعها. وتوصل اللقاء الى اعلان «قواعد هلسنكي» حول المياه الدولية. وهي تعتبر قواعد متقدمة فقد ابتعدت عن مفهوم السيادة المطلقة باتجاه الاعتراف بالحقوق والمسؤوليات المتساوية للدول المشتركة بالنهر. وقد تم تطوير هذه القواعد في عام ١٩٨٣ من قبل لجنة القانون الدولية لتصبح اكثر شمولية وإطاراً مناسباً لحل التعارضات رغم انها لا تحمل صفة القـانون. واهمية التطوير الذي ادخلته اللجنة على قواعد هلسكي هو التأكيد على ان تقسيم المياه بين الدول لا يعني تحديدها من الناحية الكمية فقط بل يشمل المحافظة على الحـوض النهـري وتطويره وتطبيق القوانين المائية في كل بلد بشكل متسق يساعد على تحقيق الاستغلال الامثل للمياه. وبخصوص حل الخلافات بين الدول تم التأكيد على الاخذ بنظر الاعتبار العوامل التالية :

١ ـ خصـائص الحـوض النهـري الهيدرولـوجية والجغـرافية والميتيورولـوجية أي التحديدات الفيزيائية التي يعني احترامها عدم اساءة استعمال المياه.

٢ ـ الاحتياجـات المائية لكل بلد والناتجة عن ضروراته الاقتصادية والاجتماعية وعدد سكانه ومستوى تطوره أو وفرة مصادر مياه بديلة عن النهر المعني وكلفة استغلالها.. الخ.

٣ ـ امكانية التعويض في حال تعرض احد الاطراف الى ضرر.

٤ ـ مراعاة حقوق الدولة التي سبقت الى استعمال المياه قبل غيرها وذلك لانها قد اقامت انظمة وهياكل استغلال المياه وطورت مستوى نظامها الاقتصادي والاجتماعي والصحي اعتماداً على توفر كمية معينة من المياه.

ثانياً: منظمة الامم المتحدة

شخصت الامم المتحدة الحاجة الحقيقية لوضع مبادىء معاصرة فيما يتعلق بالاستفادة من المياه منذ وقت مناسب وقد اقرت الجمعية العامة في دورتها المنعقدة في عام ١٩٧٤ عدداً من المبادىء الواجب اتباعها في عملية البحث عن حلول لمشاكل المياه المشتركة. كما بادرت الى عقد مؤتمر خاص (في الارجنتين عام ١٩٧٧) دعا كافة الدول المشتركة في لجان للانهار الدولية القائمة آنذاك الى تطوير الحوار بين المنظمات المختلفة ذات العلاقة بالمياه والناشطة في تلك الدول وتشجيع وتنسيق عملها بما يوفر تبادل الخبرة بينها. بعد ذلك، وفي عام ١٩٨١ عقدت سكرتارية الامم المتحدة مؤتمراً آخر في داكار (السنغال) اشتركت فيه تلك المنظمات وكان موضوع البحث العمل من اجل تشجيع التعاون المتعدد الجوانب حول احواض الانهار الدولية. ومن الطريف انه شخص عدم وجود القاعدة الثابتة والمحكمة في ما يتعلق بالانهار الدولية.

ان الدور الدولي في حقيقة الامر محدود بعض الشيء لانه من المفترض ان تحل الخلافات حول المياه بين الدول المعنية نفسها. وقد أشار Le Marquand [٧] إلى ان المجتمع الدولي لا يمكنه فرض حلول بالقوة، ولكنه يؤثر في تطوير المعايير القانونية ويساعد في بناء امكانيات الدول لتحقيق الاهداف المشتركة، كما يمكن للمجتمع الدولي ان يستخدم المساعدات أو القروض كحوافز للمساعدة في تسوية الخلافات بين الدول عن طريق عرض فوائد اكبر لبعضها أو منعها من ذلك من اجل تغيير المواقف التي تمنع التوصل الى اتفاق بشأن موضوع الخلاف. كما ان الدعم الفني الذي يمكن ان تقدمه هيئة الامم المتحدة عن طريق منظمة الغذاء والزراعة الدولية أو برنامج الامم المتحدة للبيئة UNEP وغيرها من الوكالات، يعتبر حاسماً في الكثير من الاحيان لنجاح التعاون الدولي في مجال استغلال المياه وخاصة في دول العالم الثالث، ويغطي هذا الدعم كافة الجوانب الفنية من حيث دراسة وفرة مصادرها واحتمالات فيضانها وتوليد الطاقة والملاحة وغيرها[٨] أما المبادىء التي اقرت في عام ١٩٧٤ وتم الاستناد عليها من قبل محكمة العدل الدولية في لاهاي لحل المشكلات بين الامم فيمكن ايجازها بما يلي[٩]:

١ ـ حق الدول التي تقع في الجزء السفلي من النهر في استلام اشعار مسبق عن أي نشاط في الدول التي تقع في اعلى النهر والذي قد يؤثر عليها.

٢ ـ وجوب دخول الاطراف ذات العلاقة في فترة استشارات ومداولات فيما بينها قبل البدء بأي مشروع في حوض النهر.

٣ ـ منع الاعمال التي يمكن ان تسبب اضرار كبرى لاي طرف من الاطراف ووجوب التعاون بين الجميع حول المشاكل المعنية.

٤ ـ الاشتراك المتكافىء لجميع الاطراف في حل المشاكل والذي يقتضي الاعتراف بحقوق الدول المجاورة.

٥ ـ منع أية اعمال تؤدي الى اضرار البيئة في الدول الاخرى.

٦ ـ ضرورة تأجيل الاعمال المتعلقة باستغلال المصادر المشتركة في حال توقع ان تكون المفاوضات بين الدول المعنية طويلة.

نهر الفرات

يتكون نهر الفرات من اربعة روافد رئيسية تركية تأخذ مياهها من حوض يبلغ تساقط الامطار فيه ما بين ٤١٥ و٦٢٥ مليمتر في السنة. يتجه النهر جنوباً حتى يدخل الحدود السورية ثم يجري باتجاه الجنوب الشرقي ليدخل العراق الذي يقطعه من الشمال حتى الجنوب. يقطع الفرات مسافة ٢٧٠٠ كيلو متر منها حوالي ١٢١٣ كلم داخل العراق. ويعتبر نهرا دجلة والفرات اشهر نهرين في العالم حيث يعود لهما فضل اقامة اعرق الحضارات الانسانية منذ آلاف السنين. وبالرغم من ان الفرات يمر بثلاث دول إلا انه يرتبط دائماً باسم العراق كما ارتبط اسم النيل بمصر رغم اشتراك تسع دول فيه. كما يرجع التطور الحضاري والثقافي والاقتصادي لنصف العراق تقريباً (سكاناً ومساحة) لنهر الفرات بمعنى كمية ونوعية مياهه[10]. ويتميز الفرات بتذبذب تصريفه الذي يصل اقصاه في نيسان (مايس).تأتي بعد ذلك ثمانية اشهر من الانخفاض الشديد في المنسوب واختلافه بين سنة واخرى، وقد سجل اعلى معدل للتصريف في النهر وذلك في مايس عام ١٩٤٤ وهو ٦٦٠٠ متر مكعب في الثانية[11].

ومن اجمل الظواهر الطبيعية التي ترتبط بالفرات ارتباطاً وثيقاً هي ظاهرة الاهوار في جنوب العراق. وهي من اهم الخصائص البيئية والمناخية والهيدرولوجية في العراق وتشغل آلاف الكيلومترات من المساحة ويقطنها حوالي المليوني انسان وتعتبر من اغرب واجمل مناطق العراق عموماً. تتراوح اعماق المياه فيها بين ٢ و٥ متر وتتميز بكثرة النبات الطبيعي والحياة البيولوجية الوحشية (Wildlife) القائمة على اساس التوازن الطبيعي، ناهيك عن التقاليد الحياتية المتميزة للسكان والتي تطورت خلال آلاف السنين وبقيت محافظة على

جوهرها البدائي المتمثل بالتصاق الانسان بمحيطه الطبيعي وكونه جزءاً متكاملاً معه**. وان هناك سبع محافظات عراقية تعيش من الفرات بكل ما فيها من نشاط اقتصادي وتقاليد ثقافية ومستوى معيشة وغير ذلك (وهي الانبار، كربلاء، بابل، النجف، القادسية، المثنى، والناصرية والبصرة الى حد ما من خلال شط العرب). ومن سوء الحظ انه لا توجد لنهر الفرات أية روافد في العراق مما يجعل امكانية التحكم بمياهه تقع كلية خارج حدوده وخاصة في تركيا.

لقد كان النهر معروفاً بفيضانه السنوي خلال موسم ذوبان الثلوج في شهر آذار وما بعده، ورغم ان لبعض تلك الفيضانات آثاراً سلبية إلا انها عموماً ذات فائدة كبرى لمساحات واسعة من الاراضي التي تغمرها المياه بطميها المترسب الذي لا يخلق اراض جديدة صالحة للزراعة فحسب بل يكون كذلك الفرصة الوحيدة للحصول على المياه اللازمة لنمو النبات وخاصة الطبيعي منه في المراعي والحقول وما شابه في مساحات اخرى. وقد حدث لنهر الفرات منذ بداية عقد السبعينيات ما لم يحدث عبر تأريخه المديد، فقد بنيت السدود الكبرى عليه فأصبح ما لم يستطع سد كيبان التركي حجزه من المياه يحتجزه سد قره قايا التركي هو الآخر والا فسد الطبقة السوري وما يفيض فسد حديثة العراقي. إلا ان تلك السدود مجتمعة هي اقل سعة من خزان اتاتورك التركي الذي انجز في عام ١٩٩٠ والذي تبلغ سعته الخزنية حوالي ٥٠ مليار متر مكعب. فاذا عرفنا ان معدل حجم المياه التي تدخل العراق الآن من نهر الفرات هو ٩ مليار متر مكعب فقط في السنة امكن تصور امكانية قطع المياه تماماً عن العراق خمس سنوات على الاقل اذا قررت تركيا ذلك. وفي ظل غياب أي اتفاق بين الاطراف المعنية لتقسيم المياه تبقى هذه المخاطر جدية واحتمال ابتزاز سوريا والعراق قائم ورغم ان الاتفاق السوري العراقي حول توزيع كمية المياه التي تطلقها تركيا ايجابي إلا ان الرفض التركي لاي نوع من الاتفاق يدل على نوايا مبيتة.

حرب تركية على المياه

تعتبر تركيا واحدة من اكثر دول العالم نشاطاً في مجال استغلال المياه سواء لتوليد الطاقة الكهربائية أو لاغراض الزراعة وغيرها، ففي الميدان الاول جرى العمل لتوليد ١١٠٠٠ ميكاواط في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١ فقط(١٣). واذا كان توليد الطاقة لا يؤدي الى نقص جدي في كمية المياه الجارية (عدا بعض الضائعات الناتجة عن الخزن). إلا ان استصلاح ٧٤٠٠٠ كيلو متر مربع في جنوب شرقي تركيا، والذي يأمل منه الاتراك ان

يحولهم الى اكبر منتج للمنتجات الزراعية والغذائية في الشرق الاوسط، يعني فقدان كميات كبيرة من المياه. أما على الصعيد الاستراتيجي فتعد تركيا نفسها لتصبح مصدرة ليس للغذاء فحسب بل للمياه كذلك من خلال انابيب تمتد عبر البحر المتوسط الى اسرائيل وبعض دول الخليج العربية التي تعاني من نقص شديد في مصادر المياه العذبة وتبحث عن بدائل لتلبية احتياجاتها المتزايدة. ان استيراد المياه يناقش منذ مدة طويلة على الصعيد الخليجي عن طريق تحوير بواخر شحن البترول لتلائم شحن المياه أو ضخ المياه بالانابيب من الباكستان أو تركيا. ومن الطبيعي ان تحاول تركيا اقناع هذه الدول بأمر تحويل مياهها (مياه الفرات بالدرجة الاولى طبعاً)، وقد اطلق الرئيس التركي تورغوت اوزال اسم «قناة السلام» على الانابيب التي ستنقل تلك المياه الى الاقطار المستوردة، كما دعا شخصياً الى عقد مؤتمر قمة اسلامي (لاحظ الغطاء الديني) آخر في مدينة اسطنبول في تشرين الثاني ١٩٩١ لمناقشة «امكانيات التعاون في مجال المياه التي تمثل مورداً طبيعياً بالغ الاهمية لكثير من الدول الاسلامية» واقترح ان يكون اسم المؤتمر «مؤتمر القمة المعني بقضايا المياه في الشرق الاوسط»[١٤]. واذا كنا من دعاة التفاوض والاتفاق بين الدول وخاصة في الشرق الاوسط في ميدان استغلال المياه وتوزيعها وادارتها بطريقة مثلى تؤمن حاجات شعوبنا المتجاورة، إلا اننا نعتقد بضرورة ان يحسم هذا الامر أولاً بين الدول المشتركة بالانهار بما يضمن حقوق الجميع ثم يجري بعد ذلك البحث عن سبل استغلال المياه الزائدة عن الحاجة وامكانية تحويلها.

ان الحماس التركي لامر بيع المياه كبير جداً وكان يعززه الدعم الدولي لتركيا في بناء السدود وغيرها من المشاريع المكملة. فقد تلقت تركيا الدعم المالي الكبير من البنك الدولي وبنك الاستثمار الاوربي ورابطة التنمية الدولية في امريكا والمانيا وايطاليا وفرنسا. ولكن البنك الدولي نفسه امتنع عن تقديم أي دعم مادي لمشروع سد اتاتورك واشترط الاتفاق مع العراق وسوريا نظرا للآثار السلبية المتوقعة. وبذا يكون قد اتخذ الموقف الصحيح ازاء هذا المشروع، مما حدا بالحكومة التركية الى ان تتبنى تمويله لوحدها مما احدث مصاعب مالية جمة لسنا بصددها. ولكن ما يهمنا هو الموقف الدولي من خلال البنك الدولي الذي تثير مساعداته المشروطة لدول العالم الثالث الكثير من الاختلاف والجدل. ويأتي انشاء سد بهذه الضخامة في وقت فقدت فيه مثل تلك المشاريع الكبرى وخاصة في دول العالم الثالث بريقها واهميتها نظراً للمضاعفات البيئية والاجتماعية السلبية، ودورها في ارهاق ميزانية الدول وزيادة الديون الخارجية وما يتطلبه ذلك من ارتهان سياسات هذه الدول لعوامل خارجية ورفع نسب الضرائب على المواطنين وغيرها. والاخطر من ذلك فيما يتعلق بالسدود هو عامل الامان للمنشأ اذ ان احتمال انهياره امر وارد في أي وقت وبالتالي تدمير

كل ما يقع اسفله من مدن ومصانع وزرع وضرع وقبل هذا وذاك مقتل آلاف الناس غرقاً. ومن الجدير بالذكر هنا ان مياه خزان اتاتورك ستغمر مساحة مقدارها ٨١٧ كلم مربع مما يعني غرق العديد من القرى وتهجير ٥٥ ألف عائلة(١٥).

استنتاجات اخيرة

على ضوء ما سبقت الاشارة اليه يمكن باختصار ان نستنتج ما يلي :

١ ـ ان الفرات نهر دولي لا يحق لاي طرف ادعاء ملكية مياهه أو السيادة المطلقة عليه وان المشكلات المتعلقة به هي ذات طابع دولي يجب السعي لحلها بين الاطراف المعنية انسجاماً مع الاتجاه البارز في قوانين المياه الدولية الذي يتميز بالابتعاد عن مفهوم السيادة المطلقة للدول على المياه وتتقبل فيه الدول نوعاً من (التنازل) فيما يخص سيادتها على المياه للصالح العام وقد تركز هذا الفهم نتيجة للمعرفة الشاملة للانسان بسلوك المياه وتأثيرها على البيئة.

٢ ـ ان سكـان العراق هم اول من بدأ باستغلال مياه الفرات منذ آلاف السنين، وطوروا في الالف الثالث قبل الميلاد منشآت الري وشقوا القنوات لنقل المياه والسيطرة عليها مما يرتب حقوقاً يؤكدها القانون الدولي فيما يخص الاسبقية باستعمال المياه، ويعتبر مبدأ الاسبقية من العناصر المهمة جداً في قوانين المياه في الدول الغربية.

٣ ـ ان مياه الفرات التي تدخل عبر الحدود الوطنية العراقية هي جزء من سيادة العراق وبالتالي لا يمكن قطع تلك المياه أو تقليل كميتها الى الحد الذي تحدث معه اضرار بيئية اذ ان البيئة هي الاخرى وفق القانون الدولي جزء مكملاً للسيادة الوطنية لاي بلد.

٤ ـ مما لا شك فيه ان لتركيا حقوقاً مهمة في مياه الفرات تتأتى من كون ان الجزء الاكبر من مياهه ينبع من الاراضي التركية، على ان تؤخذ تلك الحقوق بطريقة لا تسبب اضراراً للبلدان المجاورة ويجري العمل بمبدأ التعويضات المادية للبلدان المتضررة من نقص المياه.

٥ ـ لا توجد في القانون الدولي اشارة مباشرة الى بيع المياه لدولة أو دول اخرى نظراً لعدم حدوث حالة مشابهة في التاريخ. والقانون ينبع من حاجة الانسان لتنظيم ظاهرة أو نشاط ما. ولكن روحية قوانين المياه الدولية التي اشرنا اليها بعيدة كل البعد عن ان تشرع مثل تلك الاعمال خاصة اذا ترتب على ذلك نقص في مصادر المياه في الدول المشتركة في النهر، كما ان ذلك يعني بشكل ما تحويل النهر عن مجراه الطبيعي وبما ان النهر لا يهدد بكوارث أو فيضانات مدمرة كما هو الحال مع الفرات في الوقت الحاضر، فان هذا

العمل يعد انتهاكاً خطيراً للقوانين الطبيعية وكذلك التشريعية الدولية.

٦ ـ ضرورة تشكيل لجنة دائمة بين تركيا والعراق وسوريا تضم المختصين من هذه الدول بشؤون المياه تكون مهمتها الاشراف على ادارة استغلال مياه الفرات وتؤمن التعاون واقامة برامج وآليات العمل لتحسين النشاط الهادف الى تطوير الحوض النهري.

٧ ـ يجب السعي لدى الدول الخليجية من اجل توضيح مخاطر مشروع «قناة السلام» المقترح وضمان عدم دعمها للمشروع دون وجود اتفاقية أو معاهدة بين الدول الثلاث المعنية بنهر الفرات.

٨ ـ السعي لضمان مساهمة الاطراف والمؤسسات الدولية في ايجاد حلول لمشكلة الفرات نظراً لما يتميز به الموقف الدولي من حياد ووزن مادي الى حد ما.

الهوامش:

* النهر	اسماء الدول التي تشترك فيه وفي لجانه
النيل	مصر، بورندى، اثيوبيا، كينيا، رواندا، السودان، تنزانيا، اوغندا، والزائير.
الراين	المانيا، فرنسا، بريطانيا، هولندا، بلجيكا، وسويسرا
الدانوب	النمسا، جيكوسلوفاكيا، بلغاريا، رومانيا، هنغاريا، اوكرانيا، الاتحاد السوفييتي، ويوغسلافيا.
الامازون	بوليفيا، البرازيل، كولومبيا، اكوادور، غويانا، بيرو، سورينام وفنزويلا.
الفرات	تركيا، سوريا والعراق.
السنغال	مالي، موريتانيا، السنغال وغينيا.
النيجر	تسع دول افريقية.
الميكونغ	كمبوديا، لاوس، تايلند وفيتنام.
بلاتا	الارجنتين، بوليفيا، البرازيل، باراغواى واوروغواى.

** تخضع مثل تلك الاماكن في بقية انحاء العالم المتحضر الى رعاية واهتمام خاصين من قبل الحكومات المعنية وتخصص المبالغ الطائلة للمحافظة على الحياة الوحشية فيها ويسهر العلماء والمختصون على دراسة مظاهرها والاكثار من اجناس الطيور والحيوانات الاخرى فيها ومنع تلوثها وجفافها أو قطع نباتها. وقد اتيحت لكاتب المقال فرصة الاطلاع عن كثب على جهود المسؤولين الاستراليين في هذا المضمار اذ توجد بعض الاهوار في العمق الاسترالي التي تحظى بمثل ما اشرنا اليه، وهذه الاهوار هي عبارة عن برك مائية لا يزيد عمق الماء فيها عن المتر في احسن الاحوال وتشغل مساحة عدة كيلو مترات فقط، وكم هو محزن ان يقارن الانسان ذلك بما هو قائم في وطنه. واني اذ اشير الى ذلك لاني اتذكر ما قاله

لنا استاذنا ومؤسس علم الري الحديث في العراق الدكتور نجيب خروفة في احدى محاضراته في كلية الهندسة بجامعة بغداد من ان الحل الامثل لتطوير المنطقة هو تجفيف تلك الاهوار وحين سألته عن المليوني انسان اجاب ببساطة الى ضرورة ترحيلهم!! . هذا الانفصال الرهيب بين العلم والبيئة والتأثير الاجتماعي للنشاط الاقتصادي ويضمنه اعمال الري والاستصلاح لدى الدكتور خروفة فيما يخص هذه القضية كان يجد ارضية خصبة في مجمل الموقف الحكومي تجاه اشياء مثل انسان، بيئة، حيوان.. الخ، تحت عناوين مختلفة اهمها «خطط التنمية الانفجارية»!!.

المصادر

1 - Linnerooth J. 1990 «The Danube River Basin: Negotiating Settlements to Transboundary Environmental Issues» Natural Resources Joumal, Vol. 30 No. 3.

2 - Caponera D. A. 1985 «Patterns of Cooperation in International Water Law: Principles and Institutions» Natural Resources Journal, Vol. 25, July.

3 - Laurgeri L. 1988 «Water for all - Who Pays» Water Resources Journal, United Nations, June.

4 - The Law of International Rivers - Unpublished Australian Paper.

5 - Ministry of Irrigation, Egypt 1981 «Planning the Development and Utilization of International Rivers: The Nile» Proceeding of Un Interregional Meeting of International Rivers Organisations, Dakar, Senigal.

6 - Economic and Social Commission for Asia and Pacific (ESCAP), 1981 «The Experience of ESCAP in the Development of International Rivers» Proc. of UN in Dakar.

7 - LeMarquand D. 1981 «International Action for International Rivers» Water International, No. 6.

8 - United Nations 1981 «Technical Assistance Activities of the United Nations for the Development of Shared Water Resources» Proc. of UN in Dakar.

٩ ـ الجنابي ح. ١٩٩١ «نهر الفرات عامل تفجر آخر في الشرق الاوسط» الغد الديمقراطي، العدد ١٩٢، أواخر آب.

١٠ ـ الجنابي ح. ١٩٩١ «الفرات قضية قائمة» مجلة الثقافة الجديدة، العدد ٢٣٢، ابريل.

11 - Doluca K. & Pircher W. 1971 «Development of Euphrates River Basin in Turkey» Water Power, Feb.

12 - Dawood F. A. 1983 «Ancient and Modern Irrigation in Iraq» ICID Bul. Vol. 32 No. 2.

13 - Anik F. 1990 «The Development of Turkey's Electric Energr» Water Power and Dam Construction, Sep.

١٤ ـ جريدة الاتحاد، الامارات العربية المتحدة، ١٩٩١/٨/١٧.

15 - Özis U. Basmaci E. & Harman C. N. 1990 «Ataturk Nears Completion» Water Power and Dam Construction, Sep.

سيدني ١٩٩١/١٠/٢٤

حوار مع اقتصادي مغترب

غزو الكويت..
دوافعه وعواقبه الاقتصادية

■ عما قريب ستحل الذكرى الثانية لغزو الكويت. . ففي الثاني من آب ١٩٩٠ ذهل العالم لاجتياح قوات صدام لأراضي الدولة الكويتية بذرائع متعددة لم يرد بينها شيء عن الدافع الاقتصادي الكامن وراء تلك المغامرة المشؤومة. صحيح أن إعلام النظام ومؤيديه قد حاول تبرير ضم الكويت بالقول إنه خطوة نحو «التوزيع العادل لثروة العرب» أو أن سيطرة العراق على ثروات الكويت تصونها من هدر البذخ الاستهلاكي السائد في دول الخليج ومن توظيف أموالها الطائلة في الغرب المؤيد لإسرائيل. لكن مثل تلك الذرائع لم تنطلق من الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في العراق عشية غزو الكويت. فبعد حوالي السنتين من توقف الحرب مع إيران أمسى الاقتصاد العراقي في أزمة خانقة، فعوائد صادراته من النفط لم تعد تكفي لتسديد فوائد وأقساط الديون الخارجية ولتلبية حاجات العراق الاستهلاكية والإنتاجية من السلع المستورد ناهيك عن الأموال الهائلة التي ظل النظام ينفقها على استيراد السلاح والتكنولوجيا العسكرية. وبات الاقتصاد العراقي من الضعف بحيث تزايدت صعوبات النظام في إغراء الممولين الأجانب لمنحه قروض جديدة. كذلك لم تجد نفعاً الحوافز والتسهيلات التي قدمها لرأس المال العربي للاستثمار في العراق. كما فشلت محاولات النظام في الحصول على زيادة هامة في حصته من إنتاج النفط الذي كان الركود يسود أسعاره في الأسواق العالمية. كل هذه المصاعب التمويلية كانت تعيق إعادة إعمار مادمرته الحرب، واستئناف عملية

التنمية، وخلق مايكفي من فرص العمل لمواجهة البطالة المتزايدة، خاصة بين المسرحين من الخدمة العسكرية بعد سنوات من المعاناة والسخط والآمال التي يخيبها الواقع الاقتصادي. وينبغي أن نضيف حاجة صدام وحاشيته إلى أموال طائلة لمواصلة الإنفاق على مظاهر الأبهة والاحتفالات بالانتصار المزعوم على إيران، وشراء الذمم والأقلام في الخارج والداخل.

لكل ذلك، ألا ترى أن هناك مبرراً لوضع العامل الاقتصادي لاغتصاب الكويت في مقدمة العوامل الدوافع التي حملت صدام على الإقدام على تلك المغامرة؟

لاشك أن الحرب العراقية ـ الإيرانية وبرامج التسلح الضخمة، كان لها عواقب منهكة على مجمل الاقتصاد العراقي. ويتجلى ذلك، على سبيل المثال، في تراكم الديون الخارجية بعشرات المليارات من الدولارات على العراق بعد أن كانت بحوزته عشرات المليارات من احتياطي النقد الأجنبي قبيل إشعال الحرب ضد إيران. فالأزمة الاقتصادية كانت خانقة حقاً. لذا من الصحيح تماماً أخذ العوامل الاقتصادية بعين الاعتبار لفهم دوافع الغزو.

لكني أعتقد ان من الخطأ الفادح الاعتماد على العامل الاقتصادي وحده لتفسير إقدام النظام على مثل هذه المغامرة. ينبغي القول أنه أراد بها تصريف أو تغطية أزمته السياسية التي تفاقمت وغدت صارخة في مواجهة جملة المتغيرات التي شهدهاالعالم، مثل الانفراج الدولي وتصاعد قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والبريسترويكا. فواضح أن نهج النظام صار على طرفي نقيض مما حصل في العالم، وهذا من شأنه طرح مسألة التغيير في كل مكان. لكن النظام كان عاجزاً عن إجراء تغيير جذري لإدراكه أن مثل هذا التحول يقوض أساس ممارساته الدكتاتورية. وتوهم أن هناك فرصة جيدة لتحقيق نصر سياسي بضم الكويت والاستيلاء على مواردها الاقتصادية التي قد تعادل موارد العراق (باستثناء القوى العاملة) مما يساعده على تجاوز الأزمة الاقتصادية التي تفاقمت في نهاية الثمانينات. وتصور أن أحداً لن يذرف الدمع على الكويت إذا استولى عليه.

■ لكن إذا أخذنا أبعاد هذه الأزمة بعين الاعتبار، ألا يمكن الاتفاق مع الرأي القائل أن خيارات النظام للخروج من المأزق الخانق كانت محدودة تماماً، وهذا مادفعه إلى المغامرة اليائسة؟

لاأرى أن الخيارات الاقتصادية كانت محدودة تماماً قبل الغزو. فالعراق بموارده البشرية والمادية الضخمة كان بإمكانه أن يخرج من الأزمة بغير هذه المغامرة لو توفرت

السياسات العقلانية لمعالجة الأزمة. لكن النظام كان أسير سياساته التي ورط العراق بها حتى قبل إشعاله الحرب ضد إيران. فمنذ أوائل السبعينات، وخاصة بعد الطفرة الهائلة في عوائد النفط راح النظام يوجه قسماً عظيماً من موارده المادية والبشرية نحو التسلح، وتراوده أوهام الزعامة ليس على صعيد المنطقة فقط بل كذلك أراد تقديم قيادة بديلة للعالم الثالث. حتى أن إعلام النظام كان يصور العراق وكأنه أصبح أو على وشك أن يصبح من القوى العظمى في العالم. (امتلاك السلاح النووي، وبقية أسلحة وسائل الإبادة الجماعية، ناهيك عن حجم ومستوى تسليح الجيش العراقي عشية غزو الكويت. هذا الطموح لم يكن يتناسب مع إمكانات العراق الموضوعية، بل شكل عبئاً ثقيلاً على الاقتصاد الوطني).

■ **في البداية كانت حجة النظام لتصعيد الأزمة مع الكويت، وحشد القوات العراقية على مقربة من حدودها، أن الكويت والإمارات رفعت إنتاجها من النفط فوق الحصص المحددة من قبل منظمة أوبك، وأدى ذلك إلى هبوط أسعاره عالمياً مما يعود إلى خنق العراق اقتصادياً. فما مقدار وجاهة هذه التهمة؟**

لو رجعنا إلى الأمور التي تذرع بها النظام للغزو نجد أنها تتمثل في عنصرين اقتصاديين أساسيين. أولهما مطالبته بإلغاء أو تأجيل الديون التي قدمتها دول الخليج، بضمنها الكويت ومجموعها أكثر من ثلاثين مليار دولارد، حوالي ثلثها للكويت والثاني هو مطالبة العراق برفع حصته في إنتاج النفط في أوبك. ربما نضيف إلى المطلبين مطلباً ثالثاً كان يطالب العراق به منذ زمن، ويتمثل بتوقف الكويت عن استغلال حوض نفط الرميلة الضخم، وهو يقع على الحدود بين البلدين.

لكن تلك المطالب ظلت موضوعاً للتفاوض بين الطرفين. وكان بالإمكان التوصل إلى تسوية معقولة لها في إطار العلاقات بين الأشقاء وبين الدول المتحضرة دون اللجوء إلى القوة الفجة.

هكذا نرى أن ذريعة الغزو تافهة وكان بالإمكان تجاوزها وتفادي كارثة ماحل بالعراق والكويت والمنطقة جمعاء.

■ **ولكن ماهو بالملموس البديل الذي كان بالوسع أن يتوفر للنظام ضمن تركيبته السياسية والاجتماعية، ونهجه العام غير القيام بتلك المغامرة.**

لو تمسك بتلك التركيبة فمن الصعب حقاً إيجاد بديل ملموس أو فعال للخروج من الأزمة الخانقة التي وقع فيها النظام جراء حربه ضد إيران. أما إذا بحثنا في أمر تغيير هذه التركيبة، في إطار وعلى هدى التحولات التي كانت تعصف بالعالم، نرى أنه كان بالوسع

العثـور على استثمـار الطاقات الكامنة في المجتمع العراقي. فإضافة إلى الاحتياطات النفطية الهائلة والإمكانات الزراعية ووجود بنية مادية وبشرية وتنظيمية متطورة، هنالك رغبة وطموح الناس في العراق إلى الخروج من الأزمات التي نُكب بها. ولو جرى تحول في النهج السياسي العام يوفر الثقة والاطمئنان لأمكن تأمين المصادر المالية الأجنبية التي تساعد على تخفيف حدة الأزمة ودفع عجلة التنمية الطبيعية إلى أمام، لكن، كما نرى، فإن الأزمة بنيوية ـ سياسية ارتباطاً بعسكرة الاقتصاد من جهة والدكتاتورية السياسية من جهة أخرى.

■ طيلة سنوات عملك الاختصـاصي تهيـأت لك فرصة جيدة لمعرفة منطلقات السياسة الاقتصادية واتجاهات تطبيقها والنتائج التي تمخضت عنها. فبودنا أن تلقي المزيد من الضوء على عسكرة الاقتصاد.

ظاهرة عسكرة الاقتصاد سبقت الحرب العراقية ـ الإيرانية بسنوات عديدة. وأساسها نزوع كل من إيران الشـاه وعـراق الـدكتـاتورية الحالية لممارسة دور القوة المهيمنة في المنـطقـة. وكثير من مظاهـر التنمية الاقتصادية عندنا بنيت وفق اعتبارات عسكرية قبل الحرب بسنوات عديدة، خاصة بعد الزيادة الهائلة في عوائد النفط بعد سنة ١٩٧٣. خذ توطين المشاريع على سبيل المثال. كانت المصانع وغيرها من المشاريع الحكومية تبنى في مواقـع يجـري اختيارهـا انطلاقاً من اعتبارات عسكرية بدل أن تكون مواقعها مبررة اقتصـادياً. ولاشـك أن موارد العـراق المادية والبشرية ضخمة. لكن احتياجات التنمية ضخمـة جداً هي الأخـرى. فالأولوية يفترض أن تكون للمشاريع الكثيرة التي تحتاجها التنمية، في حين لاحـظنـا أن النظام خصص موارد بشرية ومادية كبيرة لمشاريع ذات أغراض عسكرية ضيقة.

■ لايمكن فهم تاريخ العراق الحديث فهماً وافياً بمعزل عن ثروته النفطية الهائلة. وينطبق ذلك على المنطقة عامة، والخليج بوجه خاص. فأي دور لعب النفط في حربي الخليج، في «القادسية» وفي «أم المعارك» باستعارة التسمية الصدامية؟

تتميز منطقة الخليج بأنها تحتوي على حوالي ثلثي احتياطي العالم من النفط. وليس من السهل تصور هيمنة أي من دول هذه المنطقة على نفط الخليج بصرف النظر عن ولاء هذه الدولة إلى أي جهة دولية معينة. فهكذا هيمنة قد تؤدي إلى الإخلال الخطير بالاقتصاد العالمي الذي تمثل الطاقة عجلته. لذلك فإن التصور العقلاني للأمن وكذلك للتنمية في منطقة الخليج هو في العثور على صيغة مناسبة للعلاقات بين دول المنطقة، وبينها وبين العـالم الخارجي، صيغة للعلاقات تضمن المصالح المشتركة والمتبادلة لكل الأطراف

المعنية. فمن الجنون أن يتصور أي من بلدان المنطقة ماتصوره النظام العراقي من هيمنة على هذا المورد والتحكم فيه. لنتذكر أن ميثاق منظمة أوبك نفسها هو تعبير معين عن صيغة التوازن هذه،لكنه تعبير عن طرف الدول المنتجة للنفط. فينبغي الحرص على تطوير صيغة التوازن هذه بما يناسب تطور الظروف.

وضمن هذا التصور لخصوصية منطقة الخليج يمكن فهم حرب الخليج الأولى وخروج طرفيها خاسرين، أي بدون أن يخرج أي منهما منتصراً وسيداً على المنطقة. ومن المنظور ذاته يمكن فهم نتائج غزو الكويت. لكن النظام أثبت أنه لم يدرك كنه خصوصية منطقة الخليج هذه ولم يعتبر من دروس حربه مع إيران.

■ كما قلنا، النظام صعد حملته على كل من الكويت والإمارات متهماً إياهما بالسعي إلى خنق العراق اقتصادياً، لأن تجاوزهما لحصتيهما من إنتاج النفط يؤدي إلى انخفاض سعر النفط عالمياً. ومعلوم أن تغير سعر برميل النفط بدولار واحد كان يومذاك يؤدي إلى تغير عوائد العراق بحوالي مليار دولار سنوياً حسب اتجاه السعر صعوداً أو هبوطاً. فكيف ترى ذلك الخلاف الآن بعد كل ماحصل؟

هذه ليست أول خصومة حول حصص المنتجين للنفط ومعلوم أن في أوبك اتجاهين بصدد العلاقة بين سعر النفط وكميته. الأول يؤكد على ضرورة تثبيت الإنتاج أو تقليصه بهدف الحصول على أعلى سعر للبرميل الواحد. والثاني تتزعمه السعودية، كما هو معروف، ويدعو إلى ربط كمية الإنتاج، وبالتالي سعره، بضمان نمو الاقتصاد العالمي. وهو ينطلق من أن زيادة سعر النفط تؤدي إلى زيادة كلفة إنتاج مختلف السلع عالمياً مما يؤدي إلى تقليص الطلب عليها، مما يؤدي بالتالي إلى ركود اقتصادي، هذا إذا توخينا تبسيط العلاقة إلى حد أقصى. والخلاف بين الاتجاهين قائم منذ سنوات عديدة. وضمن الاتجاه السعودي تتصرف الإمارات والكويت بشأن كمية الإنتاج. فهل يصح أن يكون ذلك مبرراً لتصعيد الأزمة وغزو الكويت؟ والحال أن الدافع الاقتصادي الحقيقي وراء هذه المغامرة هو اعتقاد النظام العراقي (كما هو واضح في مقابلة صدام مع ايفريل كلاسبي السفيرة الأميركية السابقة) إن أميركا لاتمانع في ضم الكويت وإن مرت هذه العملية بسهولة فإنها ستؤدي إلى مضاعفة إيرادات العراق المالية والخروج من أزمته الاقتصادية الخانقة، كما قلنا سابقاً.

■ لننظر إلى الغزو من ناحية العواقب الاقتصادية بالنسبة للعراق والكويت والمنطقة عموماً. هناك تقديرات متباينة للخسائر. فأين ترى الخسارة الكبرى؟ وكيف نستطيع التوصل إلى تقدير قريب من الواقع لمدى الخسائر؟

يمكن القول أن حجم الكارثة التي سببها الغزو، والحرب التي أعقبته، قد تجاوز أي حدود معقولة في تاريخ العالم المعاصر منذ الحرب العالمية الثانية. على سبيل المثال نجد أن الجزء الأعظم مما بناه العراق خلال العقود الخمسة أو الستة الأخيرة قد دمرته الحرب. هناك نوعان من الخسائر: الخسائر المباشرة التي تشمل قيمة المؤسسات والمنشآت المدمرة في مختلف قطاعات الاقتصاد، وهناك الأسلحة والتجهيزات العسكرية التي لاتتوفر عنها أرقام دقيقة منشورة (تقدر أولياً بنحو ١٠٠ ـ ٢٠٠ مليار دولار) فالخسائر المباشرة قد يصل مجموعها إلى مابين ٤٥٠ ـ ٥٠٠ مليار دولار. وهي مبالغ تتجاوز الناتج المحلي الإجمالي للعراق بأكثر من عشر مرات.

أما الخسائر غير المباشرة فهي أولاً خسارة الاقتصاد لمردود هذه الثروة المدمرة لو أنها بقيت سالمة ومنتجة، هناك مثلاً إنتاج وتصدير النفط (وكان يدر حوالي ١٥ ـ ٢٠ مليار دولار سنوياً). وهناك إنتاج بقية المنشآت المدمرة. ولكن الخسارة الأفدح اقتصادياً هي تلك المترتبة على مقتل وتعويق وتشريد القوى العاملة، ولاسيما الماهرة منها وفيها مخزون من التعليم والإعداد كلف البلاد المليارات. خذ على سبيل المثال المهندس، فكلفة إعداده تقرب من ٤٥ ألف دولار. وحامل الدكتوراه يكلف إعداده في أميركا حوالي ٤٠٠ ألف دولار.

هذا فيما يتعلق بالعراق وحده، ويجب ألا ننسى مالحق الكويت من خسائر. فالحكومة الكويتية تطالب العراق بأكثر من ١٠٠ مليار دولار تعويضات عن الخسائر. وهنالك أيضاً الأضرار التي لحقت بالدول العربية الأخرى من أشخاص وشركات مما أدى إلى أزمات في اقتصاد عدة دول وخاصة الدول المصدرة للقوى العاملة، وتشكل تحويلات رعاياها العاملين في الخليج نسبة عالية من مواردها من العملة الأجنبية أضف إلى ذلك الخسائر التي لحقت بمواطني وشركات دول غير عربية بسبب الأزمة والحرب. وطلبات التعويض مازالت تتدفق على لجنة خاصة شكلتها الأمم المتحدة لهذا الغرض.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أيضاً الأرقام الفلكية التي تطالب بها إيران لتعويض خسائرها في حرب الخليج الأولى، فإن الإنسان يقف عاجزاً حتى عن أي تصور لخروج العراق من الالتزامات الخارجية التي ترتبت على الحربين الأولى والثانية.

لقد رهن النظام العراقي مستقبل الأجيال العراقية القادمة بمغامراته الإجرامية هذه. ومن الصعب جداً تصور إمكانية أن يتمسك أي نظام لاحق في العراق بشرعية وتبعات هذه المغامرات. ولابد من إيجاد مخرج عادل لها.

■ **أعلن النظام أنه أعاد بناء ٩٠٪ من المؤسسات التي دمرت في الحرب الخليجية الثانية. فما حظ هذا الادعاء من الصحة؟**

قد لانستغرب ذلك بتاتاً، لأن في العراق طاقات بشرية وفنية كبيرة. ولها الفضل، لا للنظام، في إنجاز ماأنجز من إعادة الإعمار. وكان يمكن لهذه الطاقات أن تثمر إنتاجاً وإبداعاً هائلين لولا سياسات النظام التي أهدرت وتهدر طاقات العراق. وإذ أحيي هذه الطاقات أرى أن ماأنجزته يبشر بآفاق رحبة لإعادة بناء العراق وتقدمه إذا ماتوفرت للتنمية الشروط السياسية المؤاتية.

■ نعلم أن الشروط السياسية لعملية التنمية موضع صراع بين المصالح المتباينة، وبالتالي بين من يمثل هذه المصالح من أحزاب ومنظمات أخرى. ويتنامى الوعي بضرورة توصلها إلى صيغة حضارية لإدارة الصراع فيما بينها. فقد خسر شعبنا وتعذب بمالا يعوض. ومهام المستقبل تتجاوز طاقات أية طبقة أو فئة بمفردها. فثمة حاجة إلى بديل تتفاعل في إطاره مختلف المصالح والتيارات. وكانت المعارضة العراقية قد توصلت، بعد مخاض عسير جداً، إلى وفاق حول بديل يمكن اعتباره ديمقراطياً. كما تبنت المعارضة ماتسميه تعددية اقتصادية، والمقصود هنا بيان ٢٧/١٢/١٩٩٠ للجنة العمل المشترك ووثائق مؤتمرها الأول في بيروت. فنحن في هذا إزاء مسألة العلاقة بين الديمقراطية والتنمية.

محاولات التنمية في العراق، قبل ثورة ١٤ تموز وبعدها، اعتمدت على دور الدولة الحاسم في تحديد مهام التنمية واتجاهاتها. وقد يكون ذلك طبيعياً بالنسبة لبلد كالعراق يمثل وارد الدولة من النفط فيه أكثر من نصف الدخل القومي. السؤال الذي يطرح الآن يمس برنامج المعارضة فيما يتعلق بالتعددية السياسية والاقتصادية، وتخفيف دور الدولة المركزية المهيمن في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومايرتبط بذلك من طرح برنامج اقتصادي بديل.

المسألة الأولى تتعلق بمفهوم التنمية الذي ساد حتى الآن في العراق، وبموجبه تقوم الدولة ببناء المشاريع الاقتصادية الكبرى وتشغيلها باعتبارها ركيزة التنمية، وأدى ذلك إلى نشوء مركزية مفرطة وخانقة على نمط النموذج الاقتصادي السوفييتي، وبذلك راحت الدولة تدير الاقتصاد بالأوامر المركزية حسب ماسمي بالتخطيط الكمي للاقتصاد. وذلك النموذج نابع من إطاره السياسي، القائم على أيديولوجية الحزب الواحد ودولة الحزب وهي الجهاز الإداري للاقتصاد.. والمجتمع.. أما برنامج المعارضة الذي يتبنى التعددية السياسية فيتطلب تعددية اقتصادية موازية تنفي الهيمنة المركزية للدولة. فيتحول دور الدولة من الأوامرية والتدخل والإدارة المباشرة السابقة الذكر إلى التحفيز والتوجيه ضمن تفاعل وعلاقة ديناميكية مع الحياة الاقتصادية، لضمان النمو المتوازن للاقتصاد. وهذا الدور

المنشود يجب أن يبتعد، وحيثما أمكن، عن نزعة إقامه المشاريع «العملاقة» التي شهدنا العديد من أمثالها في العراق.

لايعني هذا إلغـاء دور الدولة كلياً بحيث تصبح مجرد بنك لتوزيع القروض، بل ينبغي أن يتركز دورها في الاستثمار ضمن قطاعات معينة يعجز القطاع الخاص أو المشترك عن القيام بها، والهدف من هذه الاستثمارات ينبغي أن يكون تعميق مسيرة التنمية، وبلوغ أعلى الكفاءة للاقتصاد بمجمله. ودور الدولة المباشر واضح في قطاعات ذات كثافة عالية لرأس المال مثل الصناعة الكيماوية واستخراج وتكرير النفط، فضلاً عن بعض الخدمات العامة.

التعددية السياسية والاقتصادية يجب أن تستهدف مشاركة أوسع فئات المجتمع في عملية التنمية وفي جني ثمارها. ومن الوسائل المجربة في الابتعاد عن المركزية وفي تعميم ثمار التنمية هو توسيع قاعدة الإنتاج عن طريق تشجيع إقامة مؤسسات صغيرة ومتوسطة تنتج أجـزاء من سلع رئيسية على أساس التعاقد أو المقاولة الثانوية. وهكذا تنشأ سلسلة من المصالح المتبادلة بين القطاع الكبير (الحكومي والخاص) والصناعات الصغيرة والمتوسطة.

ويلعب الاقتصـاد الـزراعي دوراً مكمـلاً للصنـاعة في توسيع القاعدة الاقتصادية والفئات المرتبطة بها والناشئة عنها في المستقبل.

إن كارثتي إشعـال الحـرب ضد إيران وغـزو الكويت هما حتماً نتيجة لاستفحال المركزية إلى درجة استبداد الفرد ولغياب التعددية السياسية.

■ هذا الموضوع يقتضي مزيداً من الحوار.. ونأمل أن تتاح لنا فرصة أخرى لذلك.

الصابئة و «اشكالية التسمية»

سنان بن ثابت

في عددها الـ ٢٣٧ نشرت (الثقافة الجديدة) الغراء ـ نقلاً عن مجلة (دراسات اشتراكية) السورية ـ مقالة للسيد أ ـ اكاد بعنوان «السريان واشكالية التسمية» تناول فيها التعريف بالسريان، وقال انهم استمرار حي متواصل لشعب وحضارة ما بين النهرين. وعدد مجموعات معينة من سكان وادي الرافدين قال انها تندرج تحت اسم «السريان». وذكر من بينها «الصابئة» وتتبع المراحل التي مرت بها حضارة ما بين النهرين، وانتهى الى ان هذه الحضارة باتت تعرف منذ ان ساد الاغريق المنطقة بالسريانية، وهو اسم مُحوّر من «آشور» كما يقول، اذ كان الاغريق قد اطلقوا اسم آسوريا على المنطقة واشتق منها اسم «سوريايا» أو كما يُعرفون بالعربية، السريان، ومن هذه جاء اسم «سوريا». وقال ان هذه التسمية حلت محل التسميات الجزئية لشعب وحضارة ما بين النهرين، واضحى «الآرامي والكلداني والسومري والبابلي والآشوري يعرف نفسه «سريانياً». ويتتبع بعدها تاريخ الصراعات الكنسية في المنطقة وانعكاسها على المجموعات السكانية في المنطقة لينتهي الى القول انه «ضمن السياق التاريخي لمسألة التسمية نجد ان السريان احفاد حضارة ما بين النهرين من سومر وأكد وبابل وآشور وآرام قد انقسموا الى طوائف مذهبية وكل طائفة تنفرد باسم متباين. ويسبب عوامل الجهل والحساسيات المذهبية القديمة، ويسبب غياب المناخات

المنـاسبة تصبح عوامل تفرقة وليس عوامل توحيد. فقسم من الكلدان يعتبر نفسه حفيد الكلدان القدماء وقسم من السريان النساطرة يعتبر نفسه حفيد الآشوريين القدماء، وقسم من السريان الغربيين يعتبر نفسه وكأنه حفيد الآراميين القدماء، علماً ان لا دليل مقنعاً على ذلك، فالسريان الحاليون من نساطرة ويعاقبة وكلدان وملكيين هم احفاد الحضارة البابلية والآرامية والكلدانية والآشورية والاكـدية والسـومرية والتي تمازجت عبر الزمن في صفة حضـارية مشتركة هي حضارة ما بين النهرين التي عُرفت بالحضارة الآشورية من خلال اطلاق تسمية الجزء على الكل».

لقد كان حرياً بالكاتب، وهو الذي يعيب على ابناء هذه الطوائف جهلهم بحقائق انتمـائهم التاريخي وتأثرهم بالحساسيات المذهبية القديمة ان يدقق كثيراً فيما يورد من احكام دفعاً لأية حساسية (سياسية وليست مذهبية) يمكن ان تبرز هنا، وان يعتمد مساند موثوقة، والاهم من كل ذلك، ان يتعرف جيداً واقع هذه الطوائف وكيف تعلل ادعاءاتها الاثنية، لاسيما وانها تواجه تعاملاً شوفينياً فظاً يسعى الى محو كل ما تتميز به كأقليات قومية[1].

- ١ -

ما من شك في ان سكان وادي الرافدين الحاليين، وليس السريان وحدهم، هم نتاج مجمـوعة الحضارات القديمة التي عددها الكاتب، واخرى لم يُشر اليها كالميدية التي ينتمي اليها الاكراد. كذلك فانهم تأثروا بغيرها ايضاً مما ابدعه من استوطن وادي الرافدين لبعض الـوقت أو ارتبـطوا مع سكـانـه بروابط مختلفـة قوية، مادية وروحية، كالعيلامية والفارسية (في عهديها الاخميني والساساني) والهيلينية والهندية. وهم بعد كل هذا، واهم من كل هذا، نتاج الحضارة العربية ـ الاسلامية التي سادت من بعد. كانت الحضارات المتعاقبة تتفاعل فيما بينها عبر وسائل مختلفة، وكانت كل واحدة منها تهضم ما توصلت اليه سابقتهـا وتضيف اليه ما تبدعه هي، والامر هنا يستجيب الى عوامل وقوانين التطور التاريخي. فالهجرات المتعاقبة من الشعوب السامية أو اجتياحات الشعوب الآرية كانت تجـد أمـامها ـ وهي التي تفارق البداوة تواً، أو لازالت على بداوتها احياناً ـ مجموعات سكانية مستقرة قطعت شوطاً بعيداً في التحضر فتسارع الى التعلم منها وتعطيها بدورها ما توصلت اليه هي. نذكر هنا على سبيل المثال ان الاكديين والسومريين والعموريين كانوا يجهلون الحصان، وحين رأوه لاول مرة مع السكيثيين والكيشيين الذين غزوا البلاد من الشمال الشرقي اطلقوا عليه اسم (حمار الشرق) لانهم كانوا يستخدمون الحمير وحدها

من قبل. واذا كانت الحضارة السومرية (وربما لم تكن هي الحضارة الاولى في بلاد ما بين النهرين كما يعتقد بعض علماء الآثار)[2] قد ازدهرت في اقصى جنوب العراق قبل ظهور الملك الاكدي سرجون بفترة طويلة[3]، وأنشئت دول ـ المدن في عدد من حواضرها، ودشنت عهد التدوين لاول مرة في العالم بعد ان توصل السومريون الى الكتابة المسمارية، ووصلت تجارتها حتى الهند شرقاً والبحر المتوسط غرباً، فان الاكاديين ـ وهم اول القبائل السامية البدوية التي تهاجر من الجزيرة العربية ـ قد بدأوا يستوطنون ما بين النهرين الى الشمال من سومر ويندمجون بالسومريين. ومنذ حكم سرجون ـ الذي وحّد تحت سلطانه جميع دول المدن السومرية والاكدية في امبراطورية واحدة صارت تعرف باسم الامبراطورية السومرية ـ الاكدية حلت الدول الكبيرة محل دول ـ المدن. ثم تعاقبت الهجرات السامية: العموريون الذين انشأوا دولة بابل الاولى، والآشوريون الذين اقاموا دولتهم في شمال دجلة، والآراميون الذين اقاموا دويلاتهم في منطقة الخابور وغربها، والكلدانيون الذين انشأوا دولة بابل الثانية. وغزاها في العهد القديم العيلاميون والكيشيون والكويون والسكيثيون والحوريون والحثّيون والفرس الاخمينيون (الفرثيون) والاغريق والفرس الساسانيون، واستقر الميديون في جبال زاغروس (جبال كردستان) والى الغرب منها حتى دجلة. وفي اواخر العصر القديم بدأ العرب يفدون الى بلاد الرافدين وانشأوا دولة لهم في الحيرة.

لقد أسهمت كل هذه الاقوام بقسطها في الحضارة المشتركة لوادي الرافدين.. ومع ذلك فان الحضارة البابلية ظلت هي الارقى من بين ما توصل اليه سكان وادي الرافدين في العصور القديمة. لقد امتد تأثيرها بعيداً حتى مصر وبلاد الاغريق والرومان، والى شعوب العصر الوسيط من بعد. وكما يقول ول ديورانت في (قصة الحضارة) ان بابل، العاصمة الغنية والجبارة لحضارة اوجدت الفلك، واضافت كثيراً الى تقدم الطب، وأسست علم اللغة، واعدت اول الشرائع العظيمة، وعلّمت الاغريق المبادىء الاولى للرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة، واعطت اليهود الميثولوجيا التي حملوها الى العالم، واورثوا العرب جزءاً من التقاليد العلمية والمعمارية التي بفضلها ايقظوا اوربا من سباتها[4]. وكما يقول ساكس H.W.F. SAGGS «... لا يسع أي امرىء يمتلك احساساً بالرياضيات ان لا يتأثر بانجازات البابليين (...). ان البابليين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان بوسعهم ان يحلّوا مسائل نحتاج اليوم لحلها ان نستخدم الجبر»[5]. ويكفي المرء لادراك انجازاتهم الهندسية ان يتذكر «قناة حمورابي» التي شقها لتأخذ الماء من كيش قرب المسيب لتصب في الخليج. ورغم الخراب الذي حل ببابل اثر الاحتلال الكيشي فانها استعادت مجدها السابق وتجاوزته بعد تأسيس الدولة البابلية الثانية على يد الكلدانيين[6].

وقـد ظل البـابليون والكلدانيون يفلحون ويعمرون ارض السواد حتى بعد الفتح العربي الاسلامي، وقد اشار الى ذلك المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف). أما الآشوريون، فانهم باستثناء ما ابتدعوه من فنون عسكرية وتطويرهم للسلاح، لم يضيفوا سوى القليل في الميادين الاخرى. «لقد كانوا حفظة حضارة اكثر من ان يكونوا مبدعين لها»[٧]، ومع ذلك، فهم في هذا الـدور قدموا للتطور الحضاري البشري اسهاماً مهماً وفي هذا الشأن تُذكر مكتبة آشور بانيبال المعروفة.

في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد نزح الآراميون من العربيا الى الهلال الخصيب، واستوطن اغلبهم في سوريا، واتجه بعضهم نحو الفرات الاسفل. ومع انهم لم يقيموا دولة موحدة كبيرة، إلا انهـم استطاعوا ان يقيموا دويلات صغيرة عديدة، وان يجعلوا من دمشق وتـدمر وغيرهما مراكز تجارية هامة، واستطاعوا ان يهيمنوا على حركة التجارة بين دول المنطقة. ولسهولة تدوين لغتهم اصبحت هي اللغة السائدة في المجالين الدبلوماسي والتجاري. وقد تبناها الفرس كلغة رسمية، ولجأ العبريون ايام عزرة (في نهاية القـرن الرابع قبل الميلاد) الى تدوين كتبهم الدينية بها ليفهمها عامة الناس. ولكن مع احتلال الاسكندر المقدوني للمنطقة، وتأسيس الدولة السلوقية فيها بعد وفاته، تراجعت شعبية الآرامية لا كلغة وحسب، وإنما كثقافة عامة ايضاً. لقد فقدت الآرامية هويتها ازاء اتساع الحضارة الهيلينية، وأصبحت آرامية الشكل والنسب هيلينية المحتوى. ونـذكر هنا ان الفيلسـوف زينـون، مؤسس الفلسفـة الـرواقية الهيلينية كان آرامياً. ولكن مع ظهـور المسيحية، انتمى الآراميون (السريان) اليها حاملين معهم اليها التأثير الهيليني. ولكن كانت هذه ايضاً مناسبة لكي تستعيد الآرامية منزلتها السابقة كأداة للتوصيل الثقافي والروحي في صورتها الشرقية أي لهجة إديسا (الرها كما كان يدعوها العرب وأورفه حالياً)، واصبحت هي اللغة الرسمية للكنيسة السريانية ودُوِّن بها الادب المسيحي الاول أو بعضه، أما اللهجة الغربية فقد تبنتها دولتا تدمر والانباط مع تحويرها الى العربية. ومثلما حدث للآرامية من قبل، فان الهيلينية هي التي فقدت هويتها هذه المرة متخذة من المسيحية هوية لها.

ان الهيمنة السياسية التي اقترنت بالفتوحات المتعاقبة وما نجم عنها من تفاعلات حضارية ساعدت في صهر المجموعات السكانية ببعضها. ونحن لا نقلل هنا من تأثير العـامـل الـديني أو اللغـوي، لاسيما ان هذه المجموعات السكانية كانت في غالبيتها مجموعات سامية الاصل تتحدث بلغات وربما بلهجات قريبة من بعضها. بيد ان عاملي اللغة أو الدين أو المذهب غير كافيين لمحو كل الفوارق. وليس غريباً ان تنشأ عوامل مضادة تدفع الى التمايز. ومع الاختلاف في منطلق المعالجة نذكر هنا ان النظام الفاشي الحاكم في العـراق، جرياً على سنته في اعادة كتابة التاريخ بروح التعصب القومي، يصر على

اعتبار الجميع عرباً، تارة استناداً الى ادعائه المعروف بان كل الساميين عرب (رغم ان العرب هم احد الشعوب السامية واحدثها تاريخاً)[٨]، ومرة استناداً الى ادعائه بان سكان العراق هم جميعاً حفدة حضارة واحدة هي الحضارة العربية.

ان اطلاق الاغريق اسم (آسور) على جميع الاقوام التي كانت تسكن وادي الرافدين يومذاك، وفيهم البابليون والآشوريون والكلدانيون والآراميون والعبريون والميديون والفرس والعرب، وربما غيرهم ايضاً،نشأ عن كون الآشوريين هم الاقرب اليهم جغرافياً، ولان الآشوريين سيروا جيوشهم الى مناطق بعيدة في الاناضول، وهو لم يغير من واقع التركيبة الاجتماعية للسكان، والمكتشفات الآثارية التي ترجع الى ذلك العهد تؤكد هذه الحقيقة، كما لم يطمس من ذكر بابل وحضارتها، لا عند هيرودوت وغيره من مؤرخي ذلك العهد أو من تلوه ولا في التوراة والاناجيل. ومع ذلك فنحن لا نميل الى تضخيم التمايزات، لاسيما وان عملية الصهر الاجتماعي التي اقترنت بالفتح الاسلامي قد احدثت تغييرات ديموغرافية واسعة.

- ٢ -

الصابئة واشكالية التسمية

اذا كانت التسمية تثير كل «الاشكاليات» التي ألمح اليها مؤلف مقالة (دراسات اشتراكية) كما يعتقد، فانها تثير، بالنسبة للصابئة، اشكاليات حقيقية امتدت طوال القرون وحتى الآن. مَنْ هم الصابئة؟ وأين كان موطنهم؟ وبم يدينون؟ هنا اشكاليات عديدة وحقيقية ليس من الهيِّن التعامل معها، ان لم نقل انها تكاد ان تكون عصية على الحل تماماً ان لم تسعفنا الاكتشافات الآثارية بشيء. ومما يثير الاسف ان اغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع في بلداننا، من السريان أو غيرهم، لم يسهموا في دراسة هذه الاشكاليات دراسة موضوعية معمقة، ولم يستفيدوا من كون الصابئة يعيشون بين ظهرانيهم وتربطهم واياهم قرابة اللغة، واستمروا يكررون ذات التقييمات التي اطلقها بعض خصومهم من السريان قبل قرون.

الصابئة مجموعة صغيرة مسالمة من الناس، تدين بدين خاص، يعيش معظمها في العراق، وبعضها يقطن في المدن الايرانية الواقعة على نهر كارون. قبل بضعة عقود كان معظمهم يسكن مدن اقصى الجنوب في العراق: قلعة صالح وسوق الشيوخ والناصرية والعمارة والبصرة والقصبات والقرى القريبة منها. لكن اغلبهم نزح من بعد الى بغداد

واستقر فيها. كانوا في السابق يمتهنون الحرف التي يحتاجها القرويون، واضافوا لها في المدن صياغة الذهب والفضة المطعّمة بالميناء، وبرعوا فيها كثيراً. لكن الحياة العصرية جذبتهم الى المهن الاخرى، وانصرف شبابهم الى التحصيل العلمي الحديث بنشاط ملحوظ. وهم يتحدثون بالعربية في العراق، ولا يتقن لغتهم الخاصة سوى الكهنة. أما في ايران فكثير منهم يتحدث بها الى جانب العربية والفارسية. لغتهم هي الآرامية الشرقية ولكن اصابها كثير من التحوير والاحلال بفعل المحيطين العربي والفارسي. ولها ابجدية خاصة تقترب في بعض حروفها من النبطية والتدمرية. لعبت هذه المجموعة دوراً ذا شأن في الحياة الروحية والثقافية للمنطقة وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية (وربما قبلها بقليل) حتى ظهور الاسلام، لاسيما ايام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الاول. وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية الى العربية كما كان لهم دورهم الملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والادب، وكان هذا سبباً في تقريب البلاط العباسي والبوهيمي لبعضهم. وقد اثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب. ولكن مع تدهور الحضارة العربية الاسلامية، واثر احتلال المغول والعثمانيين، ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة، وتعرضت الى الاضطهاد في بعض الاحيان. لقد جذبت المجموعة انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر. ومنذ ذلك الحين تطورت الدراسات بشأنهم حتى وضعت حولهم مئات الكتب والابحاث[٩]. وتحول هذا الاهتمام الى ما عُرف بالحمى المندائية في بعض دوائر اللاهوت الغربي. وكان مبعث هذا الاهتمام الكبير اصرار بعض كبار باحثي اللاهوت في الغرب على ان انجيل يوحنا وبعض اعمال الرُسل المسيحيين قد تأثر بأدب المندائيين، ولانها ايضاً الفرقة (الغنوصية) الوحيدة التي تعيش الى الآن فيما زالت المجموعات الغنوصية الاخرى منذ ألف عام تقريباً.

لقد اثير كثير من الجدل والتكهنات حول اصل هذه المجموعة، وحول معتقداتها الدينية، وثار جدل طويل لم ينته الى الآن حول الاسم أو الاسماء التي تسموا بها أو اطلقت عليهم، ودخلت في هذا الجدل عوامل مثيرة بفعل بعض الاكتشافات الاركيولوجية.

فقد دُعوا بالصابئة أو الصابة كما في بعض كتب التراث الاسلامي. وقيل في تفسير الكلمة انها من الفعل صبا بمعنى مال وزاغ «والشهرستاني في الملل والنحل يفسر هذا الميل بالمروق عن الحق والزيغ بالزيغ عن نهج الانبياء فيما يذهب الدكتور جواد علي الى تفسير الميل بالخروج عن الوثنية الى التوحيد استناداً الى ان الجاهلية كانت تدعو كل من يخرج عن عبادة آلهتها بهذا الاسم. وارجعها الشهرستاني ايضاً الى العشق والهوى وهو يريد بهذا تعصبهم الى «الروحانيين». ويرى العقاد انها محوّرة عن الفعل سبح للمماثلة هنا بين

السباحة وتعميد الصابئة بالماء الجاري. أما الصابئة انفسهم فيرجعون الكلمة الى الآرامية. فصبا في لغتهم تعني الانغمار أو الانغماس في الماء نظراً الى انهم يمارسون التعميد في الماء، ومنها اشتقوا المصدر (مصبتّا) أي التعميد. ويدعوهم ابن النديم في فهرسه بالمغتسلة تارة وبصابة البطائح تارة اخرى. وواضح هنا ان اسم المغتسلة قد جاءهم من التعميد بالماء الجاري. أما الطبري فيرى ان تسميتهم بالصابئة جاءت من نسبتهم الى «صابي» الذي تقول الاساطير انه احد ابناء ميتوشالح وهو جدّ نوح.

وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث من السور الى جانب اصحاب الكتاب من اليهود والنصارى.وتسبّب كتّاب التراث العربي الاسلامي في تعقيد آخر اذ اطلقوا اسم الصابئة على مجموعات عديدة من الناس تتباعد فيما بينها في المكان كثيراً حتى ليشار الى بعضها في الصين. ويميز بعضهم بين المندائيين والحرّانيين الذين يُزعم انهم انتحلوا اسم الصابئة ايام المأمون لكي يؤمنوا لانفسهم التعامل الذي خصّ القرآن به اهل الكتاب.

لكن الامر لا يقف عند هذا الحد، اذ تظل اشكالية التسمية تطاردهم في ميدان آخر، فكتبهم الدينية لا تدعوهم باسم الصابئة، وانما تدعوهم باسمين آخرين يثير كل منهما اشكالاً خاصاً. فهي تدعوهم بـ «المندايي» أو «المندائي». وهو اسم يُطلق على جملة العامة في الطائفة. أما كهنتهم فتدعوهم بـ «الناصورائي». لقد اعطى لهاتين التسميتين تفسيرات مختلفة. فقد قيل ان «المندائي» جاءت من «المندي» أو «مندا» وهو بيت العبادة لدى الصابئة، واصلها فارسي وتعني (المسكن) أو (البيت). والبيت كما هو معلوم قد استخدم في الادب الديني لكل الاديان بالمعنى المجازي، فقيل (بيوت الله). وقال بعضهم انها تحوير عن فعل «دا» أو «أدا» الآرامية وتعني عَلِمَ أو عَرَفَ. ولقي هذا التفسير قبولاً عاماً لدى الباحثين على اعتباران المندائي غنوصيون أي معرفيون (والغنوصية لفظة اغريقية الاصل تعني المعرفة. والغنوصيون يقصرون معرفتهم على الدين واكتشاف الاسرار الربانية عن طريق الوحي والالهام وقد اتسعت كحركة دينية وفكرية قبيل ظهور المسيحية وفي القرون الاولى لها وشملت تيارات مسيحية وغير مسيحية ومن بينها التيار المندائي). وتضيف السيدة دراور E. S. Drower (وهي من ابرز المختصين في الدراسات المندائية، وكانت قد تابعت معتقداتهم وشعائرهم بنفسها في العراق قرابة ربع قرن) احتمالاً آخر لا يقل غموضاً. فقد افترضت ان التسمية ربما جاءت من نسبتهم الى «ماندا»، وهؤلاء قوم كانوا يسكنون المنطقة التي سكنها الميديون[10]، مستندة الى ما ورد في احد كتبهم الدينية (حرّان كوتيا) من ان اعداداً كبيرة من الناصورائيين قد التجأوا الى حرّان فراراً من الاضطهاد الذي لحق بهم في اورشليم في القرن الاول المسيحي، وكان في حران ناصورائيون مندائيون ومنها ساروا من بعد الى جبال الميديين (طور دُ مَدّاي) وكان يعيش

فيها عدد ممن يماثلهم في الدين ثم انحدروا من بعد الى «دَسْت» ميسان في جنوب شرقي ما بين النهرين واستقروا في الطِيب.

وتأتي التسمية الثالثة، الناصورائي، وتعني في لغتهم الضليع في العقيدة (وكانت في الماضي القديم تُستخدم في تسمية التُقاة أو المنقطعين الى دينهم وايمانهم ثم صارت ترد في تسمية الكهنة وحدهم من بعد) لتضفي بُعداً آخر في الغموض الذي يلفهم، وقد فسرها بعضهم على انها اشتقاق من مدينة الناصرة ونسبهم الى المسيحية من الناصرة. بل وذهب بعضهم الى حد اعتبار (النصيرية) من المندائيين لمجرد تماثل الاسم[11] بينما (النصيرية) طائفة من غُلاة الشيعة كما يصفهم الشهرستاني يقطنون في بعض اعالي الفرات في سوريا والعراق.

من اين جاء هذا التشوش؟ ولماذا يصر بعض الكتاب، والى الآن، على نعتهم بالوثنية تارة أو عَبَدة الكواكب تارة اخرى، كما يفعل السيد أكاد الذي نرد عليه؟ ولماذا يذهب آخرون الى التمييز بين المندائيين والصابئة، وبين (صابئة حرّان) و(صابئة البطائح)؟ ولماذا يميل الكتاب المحدثون من الطائفة ذاتها الى تجاهل ان لهم ماضياً بعيداً كانوا فيه، شأن الآخرين، لم يتوصلوا الى التوحيد الخالص بعد؟ لن ينصرف بحثنا الى الاجابة على هذه التساؤلات باستفاضة يقتضيها هذا الموضوع الشائك، ولن يتسع المجال في مجلة تنصرف في الاساس الى مهمات فكرية وسياسية اخرى كبيرة لمثل هذه الاستفاضة، لذلك سنعمد الى الرد بايجاز شديد.

لقد لعبت عوامل عديدة في هذا التشوش والغموض، منها ما تسببوا هم في ايجاده، ومنها ما لحق بهم بفعل الاوضاع العامة المحيطة بهم من جانب والخصومات الايديولوجية من جانب آخر. كانت اقوام المنطقة تودع العصر القديم وهي تدخل بصور مختلفة في جملة من التحولات في معتقداتها الدينية والفكرية عامة، سواء جاءت هذه سريعة وعنيفة أو في صورة تطويرات وتحويرات تدريجية. كانت تجري عملية واسعة من الاخذ والعطاء بين الحضارات المختلفة بفعل الحروب التي دارت بين الامبراطوريات. وكان في رأس هذه التطورات المنحى الواضح لاستبدال حكم الآلهة المتعددة بسلطان الاله الواحد، الاله القومي. ان هذا الميل الذي بدأ مع البابليين منذ زمن قديم تسارع من بعد في كل مكان واتخذ شكلاً واضحاً للانتقال من الاله الملموس الى الاله المجرد. وقد تولى الكهنة، الذين لعبوا دوراً خاصاً في الميدان الفكري، باعطاء التفسيرات التي تسمح بالتوافق ما بين التعدد في الالهة الذي يقابل التعدد في الظواهر الطبيعية التي تؤثر في حياة الانسان من جانب والتوحيد من جانب مقابل. وقد لعب اليهود بعد تشتتهم دوراً خاصاً في تسريع هذه العملية، كما تبنوا هم، من جانبهم، بعضاً من الميثولوجيا البابلية. وشهدت تلك

الحقبة ايضاً ظهور الثنائية الزرادشتية (القرن السادس ق.م) التي تقوم على الصراع بين الخير والشر والظلام والنور والتي اتسع نطاقها في القرن الاول الميلادي بعد تبني ملوك فارس البارثيين الدعوة لها واعتبارها الدين الرسمي. وقد امتزجت هذه الافكار بالمعتقدات الفلكية البابلية واساطيرهم عن الخلق والطوفان ونظريات التثليث التي شاعت بين المصريين والحثيين. والبابليين، والفلسفة الهيلينية والنظريات الفيثاغورية عن الكون.. كان من شأن هذا التفاعل ان برز منحىً «تلفيقي» عام، ترك اثره في الفكر والمعتقدات الدينية والميثولوجيا الشائعة في المنطقة. كيف تلقت الشعوب المختلفة هذه التغيرات الروحية؟ وبأية صورة، وبأية وتيرة طورت افكارها الدينية؟ هنا تظهر التباينات التي تمليها الظروف الخاصة لكل جماعة. كان الصابئة، شأن الآخرين، يطورون افكارهم ومعتقداتهم.. ولكن لما كانوا جماعة مشتتة، لا سلطان لها (أو على الاقل لم يبق لها سلطان)، ونظرت منذ البداية الى العالم الدنيوي على انه عالم فانٍ، والحياة سوى مرحلة موقتة تُودع بعدها الروح الى العالم العلوي الذي هبطت منه، مالت الى المحافظة وانطوت على نفسها بفعل ما هي عليه من احباط. كما ان تشتتها وتباين البيئات التي احاطت بها دفع الى ظهور تباينات في طرحها لافكارها واشكال طقوسها. ان كتبهم الدينية التي وُضعت واستنسخت بشكل لا يدل على مهارة عالية تعكس حالة الجمود التي انتهت اليها معتقداتهم.. فيما تتصف ترانيمهم الدينية بروح شعرية عالية ومرهفة الحس مما يدل على انهم حفظوها من مرحلة اسبق كانت تتصف بالحيوية والتدفق. وفي خضم الصراعات السياسية والحروب وعمليات التنكيل التي سادت نهاية العصر القديم، وانتشار الاخلاق الرواقية، اخلاق الزهد والتصوف والرهبنة كتعبير عن فقدان الثقة والامان بذلك العالم المضطرب، تعزز لديهم الميل نحو العزلة محولاً دينهم الى دين نخبة تُؤثر ان تبقي معتقداتها بعيدة عن متناول العامة (التي اكتفت بالعبادة والطقوس)، ناهيك عن الناس الآخرين من معتنقي الاديان الاخرى، وتحرِّم البوح بأسرارها. لقد فقدوا الروح السجالية التي كانوا يساجلون بها مبشري المسيحية وغيرهم. وقد دفعهم هذا الى ابتكار ابجدية خاصة لتكتب بها معتقداتهم واساطيرهم وطقوسهم زيادة في الحيطة[١٢]. كانت الصابئة نتاج هذا التطور التاريخي العام والخاص، لذلك ليس غريباً ان تلوذ بالبطائح بعيداً عن فضول الآخرين واضطهادهم.

لكن الروح المحافظة، لاسيما لدى كهنة الطائفة لم يكن بوسعها ان تحول دون تأثر المجموعة بالتطور العام المحيط بها للنهاية، اذ اصطدمت في مجرى تاريخها في لحظات معينة بأزمات معينة ارغمتها على ان تدخل تعديلات مهمة على معتقداتها وطقوسها الدينية. وبقدر ما تسعفنا به المصادر التاريخية، والنظر في كتبهم الدينية يمكن ان نشخص

فترتين قديمتين للاحياء الديني اقترنت بتعديلات مهمة اولاهما في القرن الثالث الميلادي والثانية بعد الفتح الاسلامي. ففي الاولى، واجهوا انشقاقاً واسعاً قاده ماني، مؤسس (المانوية) في عام ٢٤٠ م، بعد ان كان قد اعتنق هو وابوه دينهم وعاش بينهم في (الطيب) اكثر من عقدين من السنين. وكما هو معروف، فان المانوية امتدت كثيراً في المكان والزمان، وكان لها وزنها الكبير بين الاديان الاساسية في القرون الوسطى. ويبدو ان كهنة المندائيين انصرفوا في هذه الفترة بهمة الى تدوين ما لم يدون من معتقداتهم واساطيرهم مدخلين عليها تعديلات تتطلبها المواجهة على جبهتين: المسيحية والمانوية. وفي الثانية، اعني بعد الفتح الاسلامي، واعتناق معظم الاقوام التي كانت تحيط بهم الدين الاسلامي، انصرفوا الى تدوين كتبهم من جديد آخذين بالاعتبار التطورات الفكرية التي حملها الاسلام. تدل على ذلك كثرة من الاصطلاحات الاسلامية المستخدمة في كتبهم.

ان ما وصلنا من تراثهم الديني المدوّن، وما نقلته كتب التراث العربي الاسلامي، وما اورده عنهم المؤرخون السريان لم يُعر لهذا التطور الانتباه الضروري. نحن هنا امام حالة من القطع أو تكاد. والنُبذ التاريخية القصيرة التي وردت في بعض كتبهم قد وُضعت أو أُلحقت بعد فترة طويلة من الاحداث ذاتها. ان كتب التراث الاسلامي تتحدث عن تاريخهم بما يقرب من الاسطورة وتنثرهم على مساحة واسعة دون ان تتحدث بشيء عما لحق بأفكارهم ومعتقداتهم من تطور الّلهم إلا ملاحظة الامام ابي حنيفة التي سنأتي على ذكرها. فالشهرستاني في الجزء الثاني من (الملل والنحل) يقول ان الصابئة ظهرت في اول سنة من حكم الملك طمهورث ويقول عنه انه من ملوك الفرس، وابن خلدون في الجزء الاول من تاريخه[13] ينقل عن ابن الكلبي ان طمورث اول ملوك بابل وانه ملك الاقاليم كلها وكان محموداً في ملكه، وفي اول سنة من ملكه ظهر بيوراسب وكان اول من دعا الى ملة الصابئة.ويمد في مواطنهم من بابل الى اقاصي مصر، وكما يلاحظ بالس فان كل من لم يندرج في واحد من التيارات الدينية الاخيرة في المنطقة اطلق عليه اسم الصابئة. أما ابن النديم الذي اصبح ما اورده في فهرسه عنهم مرجعاً اساسياً بشأنهم فانه اشار الى وجودهم في مناطق مختلفة من وادي الرافدين والى وصفهم بالكلدانيين إلا انه لم يذهب بعيداً في تحري تاريخهم، بل اكثر من هذا، زاد في الغموض الذي يلفهم بما نقله عنهم من الكتاب السريان الذين كانوا واياهم في خصومة دينية، دون ان يقف من الروايات بشأنهم موقفاً نقدياً، لاسيما اتهامهم بالوثنية وعبادة الكواكب مع انه اورد للفيلسوف الكندي حديثاً اشار فيه الى انهم جماعة موحِّدة وانه، أي الكندي، اطلع على كتابهم في هذا الشأن وان هذا الكتاب «على غاية من التقانة في التوحيد، لا يجد الفيلسوف اذا اتعب نفسه مندوحة عن مقالاته والقول بها»[14]، وان الطبري في تفسيره للقرآن استند في روايته عنهم الى قول

ينسب في الاصل الى الصحابي اسامة بن زيد (توفي في ٦٧٤ م) يقول فيه ان الصابئة يقطنون جزيرة الموصل[١٥]، وهي على مقربة من حرّان. كذلك فان الرحّالة الاصطخري نعت مدينة حرّان بمدينة الصابئيين. ان الامام ابو حنيفة الذي عاش ما بين ٨٠ و١٥٠ هـ (٦٩٩ - ٧٦٧ م) وتوفي في زمن المنصور وصفهم بالموحدين وافتى بتحليل الزواج منهم، ولم يُعب عليهم كونهم يعظمون الكواكب وإنما اعتبر ذلك من بقايا معتقداتهم السابقة، وبذلك يكون قد نظر الى معتقداتهم نظرة تاريخية، وعلى نهجه سار تلميذه ابو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد. أما القول بان من قصدهم الامام ابو حنيفة وابو يوسف هم صابئة البطائح أو من يدعوهم ابن النديم بالمغتسلة وليس الصابئة الآخرين في حرّان وما حواليها فهو امر يجافي الواقع، فقد كانت فرقهم في ما بين الرافدين تتماثل في معتقداتهم وطقوسهم، وان وجدت فوارق فهي ثانوية نشأت عن تأثير البيئات المحلية المحيطة بهم. والحكاية التي تروى عن ان الصابئة الحرانيين قد انتحلوا اسم الصابئة في عهد المأمون لكي يضمنوا لانفسهم التعامل الذي خصّ القرآن به اهل الكتاب فأمر ينافي الحقيقة هو الآخر، اذ لا يعقل ان المأمون، وهو الخليفة المفكر الذي عرف بسعة اطلاعه كان يجهل وجود الصابئة قريباً من مركز خلافته، ويجهل حقيقة الصابئة الحرّانيين الذين لعبوا دوراً هاماً في النهضة الفكرية التي تزعمها آنذاك.

وتعاني مثل هذه القطع اللاتاريخي ايضاً النظرية المقابلة التي تقول بان هذه الطائفة نشأت في الاصل في فلسطين ثم هاجرت في المنتصف الثاني للقرن الاول الميلادي الى حرّان وانتقلت من بعد الى منطقة ميسان في جنوب ما بين النهرين، والتي يدافع عنها بحرارة عديد من الباحثين المختصين، وتبناها الكتاب المندائيون المعاصرون ذاتهم. وتستند هذه النظرية الى امرين اساسيين اولهما تماثل افكارهم وطقوسهم الدينية، والى حد بعيد، مع افكار وطقوس الاسّانيين، أو على الاقل، مع بعض جماعات الاسّانيين (اذ يرى بعض الباحثين انهم ليسوا جماعة واحدة)، من جهة اخرى فهي تستند الى ما ورد في كتابهم (حرّان كويتا) الذي يصف، وإن بسرد مشوش، الوضع الذي كانوا عليه هناك وكيف انتقلوا من بعد الى حرّان والى «طور - دْ - مدّاي» - أي جبال ميديا - ثم انحدروا الى ميسان وعيشهم هناك حتى الفتح الاسلامي.

غير ان قصور هذه النظرية يكمن في كونها لا توضح لنا كيف تحوّلت جماعة صغيرة لا يزيد تعدادها عن اربعة آلاف نسمة كانت تسكن قمران وما جاورها عند البحر الميت من كهوف الى الجماعات الواسعة الذين ينتشرون في مناطق عديدة في العراق وغيره كما يشير المؤرخون العرب القدامى، لاسيما وان الاسّانيين لم يكونوا من المبشرين بدينهم وافكارهم ويضعون قيوداً صارمة للانضمام اليهم. (لن ندخل هنا في مناقشة نقاط التماثل

والاختلاف بين الجماعتين وهو ما سنعالجه في ميدان آخر).

إلا ان هذا التحفظ لا ينفي من الاساس احتمال مثل هذه الهجرة. انني أميل الى الاعتقاد ان مثل هذه الهجرة قد حدثت بالفعل لمجموعة من الناس، سواء كانوا من الاسّانيين أو من بعض من عايشهم عند البحر الميت واخذوا الكثير من افكارهم وممارساتهم الدينية والاجتماعية(٥). ان هؤلاء بعد هجرتهم سكنوا في وسط ليس بالبعيد أو الغريب عنهم كما يشير كتابهم المذكور الى ذلك صراحة. ولا يستبعد ان يكون هؤلاء المهاجرون قد ساعدوا في تسريع التغيرات الفكرية التي كانوا يمرون بها عهد ذاك، واصبحوا بالنسبة الى هذا الوسط الصابئي الكهنة الذين يرشدونهم ويوجهونهم في شؤون دينهم، لاسيما وان معتقداتهم الدينية تميز ما بين الكهنة والعامة في الشؤون والمعرفة الدينية، وربما كانوا هم الذين لعبوا الدور المحافظ الذي تحدثنا عنه، والذي ابقى عليهم كطائفة خاصة كل هذه القرون برغم ما عصف في المنطقة من صراعات دينية ومذهبية.

هوامش:

(١) للاستزادة في هذا الشأن احيل السيد أكاد والقارىء الكريم الى خطاب السكرتير العام للحزب الشيوعي العراقي في مدينة عينكاوة في العراق في ٢٨/١٠/١٩٩١ المنشور في جريدة (طرق الشعب).

(٢) يشير وولي وغيره، استناداً الى التنقيبات التي اجروها في اور واريدو وغيرهما الى ان هناك حضارة اخرى سبقت الحضارة السومرية اطلقوا عليها اسم حضارة العُبيد نسبة الى تل العُبيد الذي كانت تجري فيه التنقيبات، وهم يعتقدون انها ربما تكون قد سبقت «طوفان نوح» للفاصل الصلصالي الكبير الذي يفصل بين آثار الحضارتين.

(٣) تُعطى تواريخ مختلفة لظهور الملك الاكدي سرجون. فلقد حدده الملك الكلداني نبونيد (الذي عُرف باهتماماته التاريخية وتنقيباته الآثارية) بما يقابل ٢٧٥٠ ق.م. ويرى سوين وآرمسترونغ انه حكم في القرن الثالث والعشرين، ويرى البرايت، استناداً الى الالواح المسمارية التي عثر عليها في ماري وغيرها انه حكم منذ اوائل القرن الخامس والعشرين. والمدهش هنا ان الملك نبونيد، بوسائله وطرقه التي لا يمكن ان ترقى الى وسائل واساليب البحث الاركيولوجي المعاصرة يتوصل الى تحديد تاريخ مقارب الى حد كبير لما يحدده الباحثون المعاصرون.

(٤) Durant, W. J. Our Oriental Heritage, Simonand Sehuster, Newyork, 1954.

(٥) Saggs, W. F, Civilization Before Greece and Rome, Yale University prees, Newhaven and London, 1989.

(٦) الكلدانيون هم مؤسسو وحكام دولة بابل الثانية، وينسبهم بعض المؤرخين الى قبيلة كلدة الآرامية، فيما يرى آخرون ان هذه القبيلة ابناء عمومه الآراميين. أما السكان فكان جلّهم من البابليين والاكديين.

ومن منجزات الكلدانيين بناء سد لحجز المياه الفائضة لغرض الارواء محيطة ١٤٠ كم، وانهم طوروا صناعة الخمور من التمر والبيرة من الذرة، وطوروا صناعة صهر المعادن، واستخرجوا النفط من باطن الارض، واتخذ نبوخذ نصر نهر الفرات لنقل البضائع من الخليج حتى (الطبقة) في شمال سوريا، وطـور الكلدانيون حياكة الملابس من القطن والصوف وصبغها وتطريزها لغرض التصدير، واتسعت ضواحي بابل كثيراً لسكن الاثرياء، وكان يربط جانبي المدينة جسر كبير لمرور العجلات والسابلة.

(٧) Swain, J. W. Armstrong, W, The Peoples of the Ancient World, Harper Brothers, New York, 1959, P. 80.

ونـذكـر هنا ان انهيار الدولة الآشورية الذي جاء بعد ان انهكت قواها بفعل الحروب المتصلة التي خاضتهـا سواءً للفتح أو للدفاع بوجه الضغوط المتصلة عليها من الاقوام الآرية في الشمال والشرق وتضافر قوى الكلدانيين والبابليين والميديين للقضاء عليها، كان غريباً في بابه اذ شتت الأشوريين حتى لم يبق لهم أي دور كما يقول الفيلسوف اليوناني كسينوفون. (راجع توينبي) الجزء الثالث Toynbee)
Arnold J. A study of History, Volume 3, Oxford U. Press, London, 1961 P. 468 - 488.

(٨) اول اشارة للعرب وردت في الالواح المسمارية تذكر ان الملك سرجون واخلافه ري يوش وماني شتوسو ونارام ش كان يرسلون الحملات العسكرية بين حين وآخر الى جنوب شرقي العربيا .Albright, W. F)
From the Stone Age to Christianity, John Hopkins Press, 1940, Baltimore, P. 107).

وفي الجدول الذي وضعه المؤرخ الكلداني بيروس الذي عاصر الاسكندر المقدوني يُلاحظ ان السلالة الخامسة التي حكمت بابل في الفترة ما بين ١٥١٨ - ١٢٧٣ ق.م والتي ضمت تسعة ملوك كانت سلالة عربية، إلا ان هذا القول (الذي لم يصلنا مباشرة وإنما عن طريق المؤرخين الاغريق وغيرهم الذين اقتبسوا من تاريخه الذي وضعه حول بابل والذي ضاع برمته) لم يؤيد بألواح مكتوبة. (انسلكوبيدا الدين والاخلاقيات).

(٩) وضعت حول الـدراسـات عن الصـابئـة المنـدائيين ابحـاث بيلوغرافية عديدة، اهمها كتاب Pallis الدانيماركي الذي صدر في كتاب لاول مرة عام ١٩٣٣ وتناول مئات الكتب والابحاث التي عالجت الموضوع من زواياه المختلفة منذ عام ١٥٦٠ حتى عام ١٩٣٠، وتأتي دراسة Edwin M. YAMAUCHI ، جامعة روتجرس بعنوان THe Preent Status of Mandaean Studies لتكمل التقصي حتى الوقت الراهن.

(١٠) وردت الاشارة الى قوم «ماندا» في الالواح المسمارية للكلدانيين والحثيين، ولم يعطِ مؤرخو العصر القديم (الكلدان والاغريق والارمن) أية شروحات عنهم. ان مؤسس الدولة البابلية الثانية يتحدث في اكثـر من مرة عن العون الذي لقيه من جحافل «ماندا» وتارة يدعوهم جحافل «عمّان ماندا» الذين يقـطنون الجبال في القضاء على الدولة الآشورية واحتلال آخر موقع لهم في حرّان. ويشير اليهم الحثيون في ألواحهم لدى الحديث عن ضريبة ويمنحهم عفواً خاصاً عن دفعها هم وبعض اصحاب الحرف. ويتحدث عنهم نبونيد، آخر الملوك الكلدانيين - وهو ابن كاهنة معبد القمر في حرّان - رداً على طلب الاله مردوخ باسترجاع هيكل القمر في حرّان من ايدي (ماندا) قائلاً: «كيف يصح لملك بابلي ان يتدخل في حصتهم من الغنائم فيجيبه الاله ان هؤلاء ماتوا وتفرقوا. ويفترض احد المؤرخين المختصين ان «ماندا» هم في الغالب السكيثيون. ! نحن اذن امام ميدان جديد آخر للبحث. لكن

الذي يلفت النظر له ان الباحثين في تاريخ تلك الفترة يشيرون الى تعاون كلداني ـ ميدي في اسقاط الدولة الآشورية . . والميديون كانوا على خصومة مع السكيثيين وان السكيثيين لم يعيشوا في ما بين النهرين سوى ثلاثة عقود انسحبوا بعدها الى القفقاس واستقروا من بعد في جنوب روسيا.

(١١) Pallis, S. A. Essay on Mandaean Bibliography 1560 - 1930, Philo Press, Amsterdam, 1974, P. 11.

(١٢) لا نملك ما يقطع كيف ومتى وضعت هذه الابجدية، إلا ان العلماء المختصين يعتقدون انها اقدم من الالفباء السريانية المعروفة بـ (استرانجيلو)، وذهبوا في اصلها وقرابتها مذاهب شتى فبعضهم يعتقد انها تطورت بالتوازي مع الفباء البهلوية في العصر الساساني بينما ذهب آخرون الى انها الشكل الاول للبهلوية، ونسبها آخرون الى الالفباء العبرية. لكن المرجح لدينا انها تقترب في بعض حروفها من الالفباء التدمرية والالفباء النبطية. وعلى اية حال فان نقوداً عثر عليها في منطقة عيلام ترجع الى القرن الثاني الميلادي (١٥٠ م) عليها نقوش وحروف مندائية. ويشار ايضاً الى المخطوطات التي عثر عليها في تانك ـ إي ـ سارفاك في شرقي عيلام والتي تشابه حروفها الحروف المندائية وتعود الى القرن الثاني الميلادي ايضاً. وعلى أية حال فان تمائم من الرصاص تعود الى عام ٤٠٠ م مكتوبة بالابجدية المندائية نشرها ليدبارسكي عام ١٩٠٩ في المانيا. وفي عام ١٩٦٧ نشر M. Yamanchi بحثاً في مجلة Berytus للدراسات الاركيولوجية يقول فيه ان البروفسور ماكوخ عثر على اربعة رُقَىً من الرصاص كتبت بالابجدية المندائية يعود احدها الى عام ٢٥٠ م.

(١٣) اعتمدنا في ما يرويه ابن خلدون على ما اورده الشيخ احمد فهمي محمد الذي حقق كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني وعلق عليه. الجزء الثاني، طبعة دار السرور، بيروت، ١٩٤٨، ص ص ٥٥، ٦٠ وهوامش اخرى يمكن ان يرجع اليها من يشاء.

(١٤) الدكتور حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، دار الفارابي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٨، ص ص ٦٨٤/٦٧٥. ومن المؤسف ان الدكتور مروة بما عُرف من دأب كبير في التقصي تسرع في نفي اطلاع الجعد بن درهم على تفاصيل مذهب الحرانيين في منتصف القرن الثامن الميلادي، مع ان عديداً من الباحثين المتخصصين في الغرب قد أكدوا وجود الادب المندائي آنذاك.

(١٥) يبدو ان الصابئة لم يسكنوا حرّان وحدها، بل انتشروا فيما جاورها ايضاً. فعدا عما ذكره الطبري هنا، فان الشهرستاني يشير الى وجودهم في واسط، وهي غير واسط الحجاج كما يقول ياقوت الحموي، وإنما هي قرية في نواحي الموصل بين «مرقة» و«عين الرصد»؛ كذلك وجدوا في الرقة على نهر الفرات، وكان البتّان الصابئي، عالم الفلك المعروف يعيش هناك.

(١٦) لقد كتب الكثير من الابحاث حول هذه المجموعة أو المجموعات، وحول مخطوطات البحر الميت التي تنسب لهم والتي اكتشفت في عام ١٩٤٧ وما بعده، وعلاقة هذه المجموعات باليهودية والمسيحية والمندائية وعلاقة النبي يحيى والسيد المسيح بها نخص بالذكر منه ما وضعه A. Dupont - Sommer بالفرنسية، و William Sanford Lasor ، و Harold H. Rowley و Yigael Yadin.



المركزية الديمقراطية
مفهوم لزمن آخر

د. عبد الرؤوف حسين علوان

ان طائفة من المفاهيم الايديولوجية السياسية، ومن بينها المركزية الديمقراطية، تتعرض لامتحان عسير. فهي اما ان تبقى أو تزول. وهذا الوضع الذي يفرض نفسه على كل حزبي، ويدفع به نحو البحث الفكري عن الخيارات الافضل، يمتلك عوامله الخاصة: التجربة الماضية وما آلت اليه من نتائج؛ وهيمنة التوجهات الديمقراطية، والآثار المتراكمة للبيروقراطية؛ والرغبة للتعامل مع الواقع الراهن على نحو جديد؛ الخ

ولهذا جرت وتجري مناقشات واسعة حول هذا المفهوم - تاريخه؛ وتاريخ تبني الاحزاب الشيوعية له؛ والصراعات التي دارت حوله ومدلولاتها بعد التجربة؛ ومدى صلاحيته؛ وعلاقاته بعدد من المفاهيم الحزبية والسياسية الاخرى؛ وكيفية تحسين العمل بموجبه؛ وما الى ذلك.

ان مثل هذه المناقشات، والمراجعات، والتي يمكن لأي متتبع ان يلاحظها، سواء عندنا أو عند غيرنا، بقت في اطرها القديمة الكلاسيكية المألوفة. فالذين يعتقدون ان مفهوم المركزية الديمقراطية هو سبب البلايا في الحياة الحزبية الداخلية استندوا في تصوراتهم على المنطلقات الكلاسيكية. أما أولئك الذين لازالوا يصرون بعناد على التمسك بهذا المفهوم اعتمدوا ذات المنطلقات التي ترقى عندهم الى مستوى المسلمات التي لا يمكن الخروج عنها.

وهكذا، غابت الحقيقة العلمية بين النفي العدمي للمفهوم وبين قوة العادة. هذان التطرفان يستدعيان شعار «قراءة النظرية قراءة جديدة»، على الرغم من التحفظ على هذا الشعار لما يتركه من ايحاءات ترمي الى التمسك بالنظرية ذاتها، وهو الامر الذي ينطوي على مخاطر عديدة ستكون موضوعاً لمعالجة أخرى.

وعموماً، نعتقد ان فاتحة المعالجة الفكرية لقضية المركزية الديمقراطية يمكن ان تبدأ بصياغة السؤال الآتي: هل ان ردود الفعل على العمل الحزبي، بعد التطورات العاصفة في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) وبلدان اوروبا الشرقية، كانت تعني، حقاً، ردود فعل ضد المركزية الديمقراطية؟

البيريسترويكا ـ والاستثارة ضد المفهوم

حينما أدخلت البيريسترويكا منطلقات جديدة في العمل السياسي، على صعيدي الحزب والدولة، كالعلنية، والصراحة، والخ.. فانها حددت الاتجاه نحو الكشف بعمق، وبصورة مباشرة عن تلك المآسي، والويلات... جراء وضع المنطلقات والاعتبارات القديمة ـ «المبادىء» في العمل الحزبي وقيادة الدولة، هذا اولاً، وحينما نظرت الى الديمقراطية باعتبارها مسألة جوهرية، فانها دفعت بالفكر الاجتماعي الى التسلل لجميع مجالات الحياة مشككاً في صلاحية الموجود وناقداً أياه، وفي نفس الوقت، أملت عليه، أي على الفكر الاجتماعي موقفاً حاداً يتلخص في وضعه أمام مسؤولياته التاريخية للبحث عن نمط الحياة الافضل، وذلك لان البيريسترويكا لم تقدم حلولاً جاهزة بديلة للموجود الذي جرى تهديمه، ومعلوم ان المتهدم هو كل شيء، وهذا ثانياً.

ولهذا فان البيريسترويكا ازاحة الستار، كما قال د. حميد بخش في دراسة غير منشورة عن النظام الداخلي، لتكشف عن:

«.. اشاعة البيروقراطية وقتل المبادرة وشل الحيوية في كل الكيان الحزبي وحلقاته، وساعد على تثبيت نظام الطاعة العمياء وتغذية السلبية والترقب، وانتظار التوجيه من فوق، ومصادرة حقوق هيئات الحزب واعضائه والشكلية واللامبدئية في كل امور الحزب، وتكوين وحدة حزبية اجبارية تتزعمها مجموعة من الكوادر القيادية المتبقرطة المرتبطة بالفرد القائد والتابعة له، وساعد على انتشار وباء الوصولية والنفاق والفساد والاثراء والتستر على الاخطاء والجرائم المرتكبة في القمة وما يحيط بها من اتباع جمعوا على اساس الولاء الشخصي والامتيازات وعلى الاساس العائلي والاقليمي ـ المحلي وما شابه».

المتكشف هذا، بخطوطه العريضة التي هي غيض من فيض، خلق عند الكل اكثر

مما يوصف بانه احباط ويأس، انه خلق التقزز، والقرف، والاشمئزاز، والنفرة، والعداء ايضاً. ومن وجهة نظر سببية، فان المتكشف هذا، كما يعترف الجميع، نجم عن الفهم النظري الخاطيء لما يتعلق بمفهوم المركزية الديمقراطية، ولسوء استخدامه في التطبيق. وبمعنى آخر، فان الخروج على متطلبات المركزية الديمقراطية افضى مباشرة الى المركزية البيروقراطية.

وينبني على هذا الاستنتاج المنطقي ان المزاج العام، الذي استثارته البيريسترويكا جراء ما كشفته، إنما هو ضد المركزية البيروقراطية بالتحديد. أما استهداف مفهوم المركزية الديمقراطية فانه يعود الى عامل اخلاقي. فالحزب الذي يعلن تمسكه بالمركزية الديمقراطية ويحقق في الممارسة مركزية بيروقراطية فضة، ولا انسانية، لا يمكنه ان يثبت مصداقيته، ولا يستطيع ان يكسب الثقة، بل على العكس فانه يجلب العداء ليس فقط للحزب، بل ولمفاهيمه ايضاً.

المركزية الديمقراطية امكانية تاريخية

تظهر المركزية (لا باعتبارها شكلاً للحكم، أو للاستقلالية التنظيمية، وإنما كتعبير عن هيكلة منظمة ممركزة) بالضرورة في التجمعات البشرية بوصفها تعبيراً عن حاجة، طالما تعبر التجمعات البشرية عن ميول للتنظيم الاجتماعي.

وإذا كانت المتابعة التاريخية لظهور المركزية في التجمعات البشرية الدنيا (العائلة، العشيرة، القبيلة) تتصف بكونها ممكنة، ويسيرة، فان هذه المتابعة بالنسبة للتجمعات البشرية الراقية (القوم، الشعب، المجتمع) كثيرة التعقيد.

ان السبب في ذلك يعود الى ان المركزية تظهر اجتماعياً في العائلة، والعشيرة، والقبيلة، بالاستناد الى رابطة القرابة بالدم، فيما تظهر في التجمعات البشرية الراقية في الحياة السياسية وحسب، بالاستناد الى الرابطة القومية ـ الوطنية.

نعني انه في التجمعات البشرية الدنيا يوجد دائماً شكل للتنظيم ممركز. ففي العائلة ـ «رب العائلة»، وفي العشيرة ـ «شيخ العشيرة»، وفي القبيلة ـ «رئيس القبيلة»، وما يستتبع ذلك من مجالس ـ عائلية، وعشائرية، وقبلية.

أما في التجمعات البشرية الراقية فان شكل التنظيم الاجتماعي الممركز يجد تعبيره في الدولة، التي بظهورها تنشأ الحياة السياسية. فالدولة، والحالة هذه، هي بمثابة تلبية لحاجة التجمع البشري الراقي الى التنظيم الاجتماعي، وليس لتنظيم شؤون الملكية الخاصة فقط.

بظهور الدولة تتوفر الامكانية امام ظهور الحزب السياسي، كرد فعل اجتماعي على كيفية ادارة شكل التنظيم الاجتماعي الممركز، أي الدولة. ويظهر الحزب السياسي في تكوينه الداخلي كبنية تنظيمية ممركزة.

ان البنية الداخلية للحزب، المنظمة الممركزة، لا تعبر عن حاجة طبقة اجتماعية للتنظيم الممركز، وإنما يظهر الحزب هكذا بفعل قوة الدولة، التي لا يمكن لافراد منفردين ان يواجهوها. لأن الوظيفة الاجتماعية للحزب السياسي هي السعي لتغيير ادارة الدولة، لا تغيير وظائفها الاجتماعية.

ولكن المركزية اذ تظهر بالضرورة كحاجة، فانها لا تظهر خالصة، وإنما تظهر بطبيعة خاصة تلازمها. فهي اما ان تكون «بيروقراطية» أو «ديمقراطية». اما الديمقراطية الموصوفة بالليبرالية فان تقيمها يقع خارج حدود ما نحن بصدده.

وعن هذا الظهور للمركزية بطبيعة خاصة يتحدث التاريخ السياسي العالمي، وايضاً التجربة الحاضرة. وهذا التاريخ يقدم لنا كماً هائلاً من الوقائع التي يمكن وبيسر تحديد ملامح المركزية البيروقراطية من خلالها. فيما لا يقدم لنا أية وقائع يتفق علماء الاجتماع، أو المفكرين، أو السياسيون على انها تحدد ملامح المركزية الديمقراطية. وبمعنى آخر، ان هذه الاخيرة لم تظهر الى الوجود، ولحد الآن، وبالتالي فان المركزية الديمقراطية، من وجهة نظر التاريخ، ليست سوى امكانية.

الحاجة الى المعقولية ـ وواقعية البديل

ان المفكـرين الاوائـل الـذين اكتشفـوا ان الاشتراكية هي الحل الامثل للمعاناة الاجتماعية، اندفعوا تحت تأثير النوازع الذاتية والطموحات والاحلام ان يحققوها من خلال ارادتهم الفردية. ولهذا انتهت تلك التجربة التاريخية، الموسومة بالطوباوية، الى الفشل. والتجربة اللاحقة، الموصوفة بالعلمية، لم تفض إلا للنتيجة ذاتها ـ أي الفشل. والسبب الكامن وراء هذه المفارقة يكمن في عدم وعي حقيقة ان المجتمع لا يتقبل، في الممارسة، إلا تلك الافكار التي تتفق وتتناسب مع مستوى التطور الذي هو فيه، بهذا المعنى، فان المصيبة لا تكمن في الطوباوية بذاتها، التي ينطوي عليها أي فكر يستشرف المستقبل، بل في الممارسة السياسية الطوباوية.

ويبـدو ان هذا يصدق ايضاً على قضية المركزية الديمقراطية، فالتجربة الماضية افضت الى ان ما تحقق في الممارسة السياسية ما هو إلا مركزية بيروقراطية واضحة.

ومن هنا، فان الادعاء بامكانية تحقيق مسألة لم تستطع البشرية، لحد الآن، ان

تقدم النموذج عنها، لا يمكن وصفه بغير الطوباوية، في احسن الاحوال. ولهذا السبب فان جميع النداءات والاشادات الوجدانية والعاطفية، ومن قبل جميع الشيوعيين، لتطوير وتحسين العمل بالمركزية الديمقراطية لانعاش الحياة الحزبية الداخلية لم تعط ثمارها الواضحة.

ثمة حقيقة لا بد من وعيها، وهي ان الامكانية المتاحة لتحقيق ديمقراطية حزبية داخلية مقبولة، لا بد وان يكون متوافقاً مع مستوى تطور الديمقراطية السياسية في البلد المعني، ومستوى تطور الوعي للوسط الحزبي الوثيق الارتباط بمستوى تطور الوعي الاجتماعي.

نعني انه من غير الممكن ان تتحقق ديمقراطية حزبية داخلية خالصة مثلما نتصورها، وإنما يمكن تحقيق مثل هكذا ديمقراطية بمستوى معين، بقدر معين. والطموح هو ان تكون مقبولة وتنطوي على ملامح من تصوراتنا وقابلة للتطور.

هذا لا يعني الدفاع عن البيروقراطية، بالعكس، انه دفاع ضد الاوهام، من اجل المعقولية السياسية، وضد الممارسة السياسية الطوباوية، لصالح المصداقية. لان الضرورة تقتضي الارتكان الى الوقائع الملموسة، والامكانيات الفعلية القابلة للتحقيق، دون الانغمار في الطوباويات، ودون اشاعة الاوهام، التي تفضي بعد الفشل الى احباطات ويأس.. ان احزاباً في السلطة لم تستطع ان تحقق اكثر من «ديمقراطية»، يعرفها الجميع، والتي هي، في نهاية المطاف، بيروقراطية فضة، فما بالك بحزب خارج السلطة. ان الواقعية السياسية تفرض نفسها الآن ونحن بحاجة اليها، أمس الحاجة.

ان المهمة الراهنة لانعاش وتحسين الوضع الحزبي الداخلي تتمثل في تحقيق مستوى من الديمقراطية الحزبية الداخلية يلائم مستوى الوضع التاريخي الملموس الذي نمر فيه. بمعنى آخر، ان الامكانية المتاحة هي تحقيق آلية حزبية ديمقراطية تتجاوب مع وضعنا الحالي وتحمل سمات المركزية الديمقراطية.

وبالاستناد الى ذلك فان مفهوم ـ الآلية الحزبية الديمقراطية لا يعبر عن كامل مضمون المركزية الديمقراطية، وبالتالي فهو ليس بديلاً عنه. انه الممكن التحقيق في الوقت الراهن، في هذا الزمن الذي نحن فيه، أما المركزية الديمقراطية الخالصة، فيبدو ان زمن تحققها هو زمن آخر.



فروع لاحزاب اشورية
تناقش مشروع البرنامج

الرفاق في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي المحترمين.

تحية نضالية حارة:

لقد وصلنا مشروع الوثيقة البرنامجية والنظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي والمنشور في جريدة طريق الشعب (العدد ٧ و٨ تشرين الاول ١٩٩١) من خلال منظمة حزبكم في استراليا لدراستها وتقييمها وابداء ملاحظاتنا حولها.

لقد اجتمعنا نحن الاحزاب القومية الآشورية وتدارسناها من جميع جوانبها وتوصلنا الى بعض التقييمات حسب اجتهاداتنا وادراكنا. ويسرنا ان نسجلها لكم ادناه آملين ان تساعدكم من خلالها على رؤية مواقفنا.

وقبل الدخول في ابداء هذه الملاحظات نود تسجيل فخرنا واعتزازنا بنضال الشيوعيين العراقيين الذين سجلوا اروع البطولات في تاريخ عراقنا الجريح على مر اكثر من نصف قرن. واذ يخطو حزبكم هذه الخطوة الجريئة من اجل توسيع المشاركة الفعلية للجماهير ومنظماتها في صياغة برنامجكم ونظامكم الداخلي المطروح، يكون هذا بحد ذاته محفزاً لنا في ابداء آرائنا دون تحفظات. وبهذا يكون حزبكم قد انعطف نحو دمقرطته ليكون حزباً لكل العراقيين وبكل قومياتهم دون تمييز من اجل تحقيق مثلكم العليا للعدالة الاجتماعية والانسانية والديمقراطية وصولاً الى الهدف الابعد في تحقيق شعاركم: وطن حر وشعب سعيد.

في آرائنا هذه سوف لا نتدخل في موضوع النظام الداخلي لحزبكم ونعتقد ان هذا يخصكم وحدكم وما تتطلبه المرحلة بناء على المتغيرات الجديدة وما آلت الاوضاع عليه في معسكر الشعوب سابقاً، لذا سندخل في موضوع الوثيقة البرنامجية لحزبكم فقط.

١ ـ المقدمة نقترح ان تكون: في سبيل (اسقاط) الدكتاتورية واقامة البديل الديمقراطي (التعددي) لاعادة اعمار الوطن وتحقيق الامان والاستقرار والعيش الكريم للشعب (العراقي) وصيانة الاستقلال والسيادة الوطنية. (التعديل: اسقاط بدلاً عن ازاحة. اضافة التعددي بعد البديل الديمقراطي واضافة العراقي بعد كلمة للشعب).

٢ ـ البداية التي تقرأ: ان الدكتاتورية الغاشمة التي تتمسك بالسلطة... الى السطر السابع عندما تقول: (وحربها الشوفينية المستمرة ضد الشعب الكردي)... تتبدل هذه الجملة لتقرأ: وحربها الشوفينية المستمرة ضد الشعب الكردي والقوميات المتآخية الاخرى في العراق.

٣ ـ الفقرة التي تبدأ: (يستلهم الحزب في وضع برنامجه حضارة شعوب الرافدين، والرصيد النضالي التاريخي لشعبنا بقوميته العربية والكردية والاقليات القومية منذ ثورة العشرين الخ). تتعدل هذه الجملة لتكون: يستلهم الحزب في وضع برنامجه حضارة الرافدين، والرصيد النضالي التاريخي لشعبنا العراقي بجميع قومياته المتآخية.

٤ ـ بعد الفقرة ٣ وفي السطر ١٢ تقريباً عندما تقول الجملة: ومستهدفاً تحقيق المصالح الجذرية لشعبنا، (عمالاً وفلاحين وكادحين وكسبة ومثقفين).. تتعدل هذه الجملة هكذا: تحقيق المصالح الجذرية لشعبنا بكل فئاته وطبقاته.

٥ ـ ومباشرة بعد الجملة المذكورة في الفقرة ٤ التي تقرأ: عمالاً وفلاحين وكادحين وكسبة ومثقفين وكل شغيلة اليد والفكر الى ان يقول: (ويجمع في صياغة برنامجه بين الخصائص الوطنية لشعبنا).. تتعدل هذه الجملة لتكون هكذا: ويجمع في صياغة برنامجه بين الخصائص الوطنية والقومية لشعبنا. اضفنا (القومية) على الخصائص الوطنية حيث هي اقرب الى الواقع السياسي والاجتماعي في العراق هذا اليوم.

٦ ـ الفقرة التي تبدأ: اصدار عفو عام وشامل التي تقع ضمن (اولاً) النقطة الثانية الى ان تنتهي وتقول: بمن فيهم الاكراد الفيليون. نقترح اضافة الى هذه العبارة لتكون هكذا: ... بمن فيهم الاكراد الفيليون ومن اسمتهم السلطة الدكتاتورية بالتبعية الايرانية. السبب في اضافة هذه العبارة هو ان الكثير من المواطنين العراقيين غير الفيليين قد تم تهجيرهم قسراً بتهمة تبعيتهم الايرانية. كما نقترح الغاء اصدار عفو عام وشامل ونفضل ان تبدأ الفقرة هكذا: تكريم ضحايا الحكم الدكتاتوري من مدنيين وعسكريين واعادة... الخ. السبب ان الضحايا يستحقون التكريم وليس العفو مثلما ورد في اصل الفقرة.

٧ ـ بعد النقطة التي تقول (تقديم المسؤولين عن الجرائم بحق الشعب الى محاكمة عادلة) نقترح اضافة هذه النقطة كنقطة مستقلة: تمنع منعاً باتاً أي تجاوزات غير شرعية ومحاسبة المقصرين في الانتقام خارج حدود القانون ضد اقطاب السلطة والمتعاونين معها وتحريم اراقة الدماء بأي شكل من الاشكال. واجراء محاكمتهم وفق القانون وبحضور مراقبين من هيئات دولية لحقوق الانسان حيث ان دولة القانون يجب ان تسود منذ يوم ميلادها. السبب هو الحصول على التأييد العالمي وجر الروافد المنخدعة بالسلطة وضمها الى جانب المعارضة هذا اليوم وتعزيز مكانة السلطة الديمقراطية الجديدة.

٨ ـ النقطة (ثانياً) والتي تقول: ازالة آثار وعواقب حرب الدكتاتورية الداخلية والخارجية والحملات الانتقامية ضد ابناء الشعب في الوسط والجنوب. نقترح الغاء كلمتي الوسط والجنوب وان تقرأ: ضد الشعب العراقي بكل اطرافه القومية والوطنية والدينية.

٩ ـ النقطة الثانية بعد (ثانياً) والتي تقول: العمل على الغاء جميع قرارات المقاطعة والحصار الاقتصادي والسياسي (وقرارات التعويض عن حرب الخليج). هنا اضفنا (وقرارات التعويض عن حرب الخليج حيث ان البديل الديمقراطي لا يكون مسؤولاً عن نتائج الحرب الخليجية).

١٠ ـ خامساً التي تقول: حماية الطبقة العاملة والشغيلة نقترح اضافة هذه الجملة: وتثقيفها على تنمية الرأسمال الوطني والاخلاص في العمل والمثابرة لزيادة الانتاجية ونوعيتها.

١١ ـ من نفس الفقرة خامساً والنقطة التي تقول: اشاعة منظومة شاملة للضمان الاجتماعي ضد البطالة والعوز واضرار العمل. نقترح ان تكون هكذا: اشاعة منظومة شاملة للضمان الاجتماعي ضد البطالة والعوز وتأسيس شركة تأمين من قطاع العام والخاص لضمان صحة العمال من جراء الاضرار في العمل.

١٢ ـ ثامناً ومباشرة قبل نقطة رعاية الادب والفن الخ . . . نقترح اضافة هذه النقطة: مكافحة الامية وتطبيق قوانين التعليم الاجباري وفق طرق علمية متطورة.

١٣ ـ ثامناً التي تقرأ احترام التعددية في الثقافة الوطنية واحترام الثنائية القومية العربية والكردية للثقافة العراقية. نقترح ان تكون هذه الفقرة هكذا: احترام التعددية في الثقافة الوطنية العراقية بكل قومياتها دون تمييز، والتفاعل مع الروافد الثقافية الانسانية واعادة كتابة تاريخ العراق مجدداً على اسس احترام هذه الثقافات.

١٤ ـ النقطة الرابعة من ثامناً التي تقول: وازالة سياسة التبعيث الى آخر الفقرة التي تقول والممارسة الديمقراطية في الحياة الدراسية. نقترح اضافة هذه العبارة: مع مراعاة استقلالية المنظومة التربوية من أي تأثيرات تحزبية أو دينية داخلها.

١٥ ـ تاسعاً نقترح اضافة هذه الفقرة المستقلة: فتح مجال الانتماء للخدمة العسكرية والقبول في الكلية العسكرية وكلية الشرطة لكافة العراقيين دون تمييز وعدم حصر الترقية والمراتب العسكرية بين فئات معينة أو قومية دون اخرى.

١٦ ـ ضمن عاشراً نقترح اضافة هذه النقطة المستقلة: السماح لكافة المغتربين والحاملين جنسيات اجنبية، العودة والاقامة في الوطن دون قيود أو شروط مسبقة واعادة الجنسية العراقية لهم مع حق الاحتفاظ بجنسيتين مختلفتين في آن واحد.

١٧ ـ ضمن عاشراً ايضاً اضافة هذه النقطة المستقلة: تشجيع استثمار اموال المغتربين في الوطن وذلك ضمن سياسة استيراد العملة الصعبة الى العراق بأيادي عراقية وضمان تصديرها مع الفوائد.

١٨ ـ ضمن عاشراً ايضاً نضيف هذه الفقرة المستقلة: الغاء كافة التعهدات الخاصة بفئات معينة من ابناء الشعب العراقي والتعهد الخاص بالآشوريين ضمن شروط منح الجنسية العراقية لهم والاعتراف ضمنياً بكونهم اصلاً من ابناء وادي الرافدين.

١٩ ـ عاشراً وفي النقطة التي تقول: (ضمان الحقوق الثقافية والادارية للاقليات القومية الخ . . .) نقترح ان تكون هكذا: ضمان الحقوق الثقافية والادارية القومية للآشوريين (بكافة انتماءاتهم المذهبية) والتركمان والارمن وتطويرها وتوسيعها في سائر الميادين، والغاء جميع مظاهر التمييز والاضطهاد ضدهم.

٢٠ ـ اضافة الفقرة المستقلة التالية ضمن عاشراً: اعادة بناء القرى والاماكن المقدسة للآشوريين في شمال الوطن والتي هدمتها السلطة الدكتاتورية في العراق وتشجيع الهجرة المعاكسة لغرض الاستيطان فيها وتوفير كافة الخدمات اللازمة لاهاليها.

٢١ ـ عاشراً وفي النقطة التي تقول اعادة الفلاحين الى قراهم الخ. نقترح اضافة هذه الجملة الى آخر النقطة فتكون: وتشجيع الهجرة المعاكسة من ذوي الخبرة والكفاءات للمشاركة في عملية اعمار بناء الوطن والاستفادة من الاخطاء التي حصلت في هذا المجال في جميع الفترات السابقة التي سببت هرب هذه الكفاءات بسبب بيروقراطية الاجهزة الحكومية.

٢٢ ـ حادي عشر، والتي تقول: استكمال تحرير المرأة الخ. الى ان تقول ونشر دور الحضانة ورياض الاطفال (العامة والخاصة) والغاء كل القيود التي تحد من ممارسة هذه الحقوق. هنا اقترحنا اضافة العامة والخاصة بسبب تشجيع القطاع الخاص للمساهمة والمشاركة في هذا المجال الحيوي جداً لتكون هناك منافسة بين الاثنين خدمةً للامومة والمرأة بشكل عام.

٢٣ ـ ثاني عشر، التي تقول: الارتقاء بدور ونشاط وحياة الشبيبة الخ، والى آخر هذه

الفقرة التي تنتهي لتقول الفنية والرياضية. نقترح اضافة هذه العبارة: مع المحافظة على استقلاليتها المطلقة.

٢٤ ـ ثالث عشر، التي تقول: تعزيز روابط الانتماء واللغة ووحدة الارض الى ان تقول: والسياسة التي تتطلبها عملية الوحدة العربية ـ نقترح هنا ان تقرأ: . . . والسياسية التي تتطلبها (عملية التضامن) بدلاً من عملية الوحدة حيث ان الوحدة العربية قد اثبتت عدم نجاحها، كما وان عبارة التضامن تهيء السياق التدريجي للوحدة العربية ومرونة تطبيقاتها في الممارسات العملية.

٢٥ ـ سادس عشر الفقرة التي تقول الكفاح لدرء خطر الحرب النووية وتصفية بؤرها والتصدي لنهج الهيمنة والعدوان الامبريالي. نقترح ان تقرأ العبارة الاخيرة وتكون: لنهج الهيمنة والعدوان لقوى الشر والظلام. السبب في تغيير العدوان الامبريالي والاستعماري الى آخر هذه التسميات الى تسمية قوى الشر والظلام هو بسبب الظروف الجديدة التي واجهها العالم من جراء التغيرات في المعسكر الاشتراكي كما وان هذه التسمية تساعدنا على الساحة الخارجية لمرونة العمل في مثل هذه الاوساط.

هذا ودمتم.

الاتحاد الآشوري العالمي ـ فرع استراليا
ممثلية الحركة الديمقراطية الآشورية في استراليا
حزب بيت نهرين الديمقراطي (العراق) ـ فرع استراليا

الدور القيادي والموجه للحزب

ابو سيزار

ان هذه الحقيقـة قد تم تعليلها علمياً واثباتها عبر المحن التاريخية، لقد استرشد الشيوعيون العراقيون بهذا القانون دائماً على امتداد كل تاريخ نضالهم.

كان من الهام، عند صياغة هذا المفهوم، ليس تحليل وتقييم التغيرات الايجابية في تطور الحـزب نفسـه فحسب، بل وتحليل بعض القضايا الخطيرة والانحرافات وحتى التشويهات في حياة الحزب الداخلية وفي اضطلاعه بدوره القيادي ايضاً.

يتلخص جوهر القضية في ان الموضوعية الصحيحة بحد ذاتها حول اعتبار الحزب طليعة سياسية للطبقة العاملة كانت خطوطاً عامة في برامج الحزب، بل ولاتزال خطوطاً عامـة، وتحـول عدد من الهيئـات الحزبية الى نوع من «الطابق الاعلى» لبنيان الحزب والمرجع الاخير لحل قضايا عديدة تدخل في اطار صلاحيات حلقات اخرى من الحزب، والى مراكز للنزعة الادارية. واستأثر بعض القادة بالحق في تأويل القوانين على طريقته الخاصة، بل وفي الاخلال بها احياناً، كما اخذوا يستخدمون اساليب العمل البيروقراطية الفاسدة. وكل ذلك الحق ضرراً فادحاً بالحزب وقضية نضال الشيوعيين. ان التشويهات المـذكـورة وسواها، التي ترتبط بـ «عقدة الفهم غير السليم للقيادة الحزبية» يجري في الحزب نقاش حول طرق تذليلها.

ولذا ارى من مهام تجديد الحزب كان مهمة توفير الممهدات الضرورية لقيامه بنجاح بوظيفته الاساسية والعليا، وظيفة القائد السياسي للطبقة العاملة وجميع الشغيلة التي تضفي

طابعاً واسعاً ومنظماً على جهودهم الرامية الى تحويل المجتمع في طريقه نحو الديمقراطية.

وسيضطلع الحزب بدور القائد السياسي عن طريق تحديد الخط العام للتطور الاجتماعي، عن طريق تطوير وتعميق العمل التنظيمي والتربوي الرامي الى جعل هذا الخط قضية عزيزة على قلوب الشغيلة.

ان الدور القيادي للحزب سيتحدد في المستقبل ايضاً عن طريق عمل اللجان الحزبية والمنظمات القاعدية على اصطفاء الكوادر وتوزيعها وتربيتها. غير انه لا يجوز مع ذلك ان تقام الوصاية، بأي شكل كان، على المنظمات الحزبية عند اجراء انتخاب قادتها. وينبغي، فيما بعد، العمل بمزيد من الاتساق على ايجاد جو في المنظمات الحزبية بحيث تمنح ثقتها لاكثر الشيوعيين جدارة وتتحلى بالمسؤولية السياسية عن نتائج القرارات المتخذة. وسوف تطرأ تغيرات على وظائف الرقابة للجان الحزبية ومنظمات القاعدة، وستتخلص الرقابة الحزبية من عناصر التدخل في صغائر شؤون الهيئات والمنظمات الاخرى، وتتلخص مهمتها في مراقبة الشيء الرئيس، ومعرفة كيف تتحقق سياسة الحزب، كيف تجمع المنظمات الحزبية في نشاطها بين العناية بمصلحة الشعب بأسره ومصالح الشغيلة.

وتتطلب الوقائع الجديدة من اعادة البناء اساليب جديدة وطرق جديدة للقيادة الحزبية. وأنا اعتقد ان اهم شيء الآن: ١ - ان تعمل القيادة الحزبية ليس من «الخارج» بل ان تعمل من «الداخل» أي بجهود الكادر القيادي والشيوعيين العاملين في الهيئات والمنظمات الحزبية.

٢ - بقوة المثل والدور الطليعي للهيئات المنتخبة ولكل الشيوعيين عند تكوين وتطبيق السياسة الحزبية.

٣ - عن طريق توفير جو سياسي وايديولوجي واخلاقي ملائم لتحقيق اهداف الحزب ومهامه. وتتطلب اعادة بناء القيادة الحزبية نقل مركز الثقل الى اماكن العمل واستيعاب الجديد من الوظائف والحقوق والواجبات والمسؤوليات للمنظمات الحزبية، فتقدم عندها الى المرتبة الاولى بوصفها معياراً في منتهى الاهمية لتقييم نوعية القيادة الحزبية وتناسبها مع الوقائع الجديدة.

ان النموذج العضوي لنشاط الحزب الشيوعي العراقي يتطلب منه ومن كل هيئاته ان تعيد بناء عملها على اساس المبادىء الملازمة للحزب بوصفه منظمة سياسية طوعية وان تضرب مثالاً في اشاعة الديمقراطية في حياتها الحزبية.

لقد اشير اكثر من مرة في السنوات الاخيرة وفي محافل شتى، ولاسيما في

الكونفرنسات الحزبية للمنظمات والهيئات الحزبية الى ١ ـ انعدام الديمقراطية الواسعة.
٢ ـ النقص في الانتقاد والانتقاد الذاتي المبدئيين بوصفهما قانوناً من قوانين تطور الحزب.
٣ ـ المركزية المفرطة. لهذا السبب يفهم الشيوعيون العراقيون ان اعادة بناء الحزب ونشاطه، قبل كل شيء التطوير المتسارع للديمقراطية في داخل الحزب، الامر الذي يتسم بأهمية خاصة، ليس بالنسبة للحزب ذاته فحسب، بل بالنسبة لزيادة تأثيره المشجع في عملية اشاعة الديمقراطية في المجتمع ايضاً.

فما هي الاتجاهات الاساسية لاشاعة الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية؟

قبل كل شيء انماء ضمانات استقلالية المنظمات الحزبية القاعدية في حل القضايا الملموسة.

التخلص من النزعة الاستعراضية والتظاهرية، والحد من اصدار الاوامر من المركز.

توفير الممهدات لاستخدام منظمات القاعدة، بشكل كامل، حقوقها وقيامها بواجباتها وتحملها لمسؤولياتها، أما الهيئات العليا فيتوجب عليها تركيز الاهتمام على القيام بالوظائف التي لا تستطيع الحلقات الدنيا القيام بها.

كما يتم توفير ظروف اضافية ملائمة لتطوير الديمقراطية الحزبية المباشرة. في الاجتماعات العامة واجتماعات المندوبين في المنظمات القاعديةوحق النقاش وتقييم عمل اللجان الحزبية وفي ادخال التعديلات على قوامها في أي وقت كان ولزيادة دور الهيئات المنتخبة، كجماعات عاملة، فعلاً، في القيادة السياسية، واتخاذ تدابير ملموسة لتقليص الاجهزة الحزبية وتلافي تشتتها وعزلتها المكتبية وسعيها الى الحلول محل الهيئات المنتخبة. وبدلاً من الاقسام والاقسام الفرعية العديدة داخل اللجان الحزبية يتم انشاء لجنة خاصة بكل من الاتجاهات والنشاطات الاساسية وهي عبارة عن حلقات للهيئات القيادية الجماعية تعمل على اسس طوعية حصراً.

يجب بذل الجهود لبناء العلاقات المتبادلة بين الهيئات والمنظمات الحزبية على مختلف المستويات بشكل جديد. ويعني ذلك ان الهيئات الحزبية يجب ان تكون «مفتوحة» لمشاركة الخلايا الدنيا وشيوعيي القاعدة وستعتمد بشكل أوثق على العقل الجماعي والابداع الجماعي عند اتخاذ القرارات وتطبيقها.

انني ارى القضية الرئيسية لمواصلة تنظيم اسلوب وطرق العمل الحزبي على اسس ديمقراطية هي تنشيط المنظمات القاعدية، وتعليمها العمل دون انتظار التوجيهات من فوق. من الضروري توجيه الكوادر نحو العمل مع كل شيوعي ولا حزبي والصلات الشخصية المباشرة، والكشف عن الامكانات الشخصية وعن القضايا، واحترام كرامة الانسان. والمقصود هو الحوار بين اشخاص متساوين وتكوين الاحساس لدى الناس بانه لا

غنى عنهم وان رأيهم يؤخذ في الاعتبار عند اتخاذ القرارات وصوتهم مسموع وانهم يستطيعون التأثير في سير الامور حيثما يسكنون ويعملون وينتسبون الى المنظمات الحزبية. ولا شك في ان ذلك سيساعد على زيادة المبادرة وتشديد الرغبة في المشاركة الشخصية في كل العمليات الجارية، الامر الذي يستحيل بدونه تطبيق مفهوم الدور القيادي.

ويمكن القول، اذن، اننا قد وضعنا الآن ليس الاستراتيجية فحسب، بل كذلك الاتجاهات الملموسة والآليات العملية بمواصلة اشاعة الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية.

بالطبع لا يجوز ان نغذي اوهاماً حول المدى الحقيقي للعمليات الجارية الآن في الحزب. ان هذه العمليات معقدة ومتناقضة. واكثر ما يعرقلها، اضافة الى الخمول، هو الانحراف الاداري البيروقراطي في النشاط الحزبي. ولا تزول، تلقائياً، الوصولية والقساوة والغطرسة الآمرة. ان اصحابها يحاولون التكيف.

ان الحياة تقدم، بالحاح، مطلب ترقية اناس الى العمل القيادي اكتسبوا سمعة اجتماعية بفضل صفاتهم الاخلاقية ونشاطهم واعمالهم الملموسة، وستمارس تأثيراً ثورياً في عملنا الحزبي والسياسي.

(السويد)

بعض ملامح تطور الحركة التحررية الوطنية في كردستان العراق

نوزاد عبد الله

ان الحركة التحررية الوطنية للشعب الكردي مرّت بمراحل عديدة وصعبة طوال تاريخها المديد والتي لم تسفر عن تحقيق اهدافها في تكوين كيان سياسي مستقل في أي جزء من اجزاء كردستان المقسمة. بل ازدادت قضيتها تعقيداً بارتباطها بمصائر الحركات التحررية والديمقراطية للشعوب المجاورة لها.

فهناك عوامل كثيرة ساهمت في اعاقة نشوء الدولة الكردية، لعل من اهمها السيطرة الاجنبية على كردستان وتقسيمها من قبل الامبراطوريات التي تعاقبت على حكم المنطقة وجعلها مسرحاً للصراع والتطاحن بينها، مما جعل التطور الاقتصادي - الاجتماعي يجري بشكل غير طبيعي بل ومشوه ايضاً، معرقلاً بالتالي تطور الانتاج السلعي وتوحيد السوق الكردستانية. وارتبطت البرجوازية الكردية منذ نشوئها بالعلاقات العشائرية بقوة جعلتها لا تملك كياناً مستقلاً، ولا تستطيع القضاء بسهولة على العلاقات الاقطاعية ومخلفاتها من تبعثر وتشتت، الامر الذي أخّر بروز الحركة التحررية الوطنية كظاهرة ترافق ظهور البرجوازية.

ثم جاء دور الاستعمارين الانكليزي والفرنسي في عرقلة نشوء هذه الدولة بعد الحرب العالمية الاولى، وتقسيم كردستان حسب اتفاقية سايكس - بيكو، والحاق جزءها الجنوبي (ولاية الموصل) قسراً بولايتين اخريين هما بغداد والبصرة وتكونت الدولة العراقية بالشكل الملائم لمصالح هذين الاستعمارين والدولة التركية الناشئة حديثاً.

وهكـذا فان الدول التي تشكلت في المنطقة بعد الحرب بحدود سياسية حددتها مصالح الاستعمارين، لم تتطابق مع التكوين القومي المنضوي ضمن هذه الحدود تطابقاً تامـاً، مما ادى الى بروز القضية الكـردية وحركتها التحررية الوطنية في كردستان العراق باهداف اكثر نضوجاً وتبلوراً من ذي قبل.

ان حزبنا الشيوعي العراقي نظر ومنـذ تأسيسه الى هذه الحركة نظرة مبدأية، رافعاً شعار حق تقرير المصير للشعب الكردي ومقدماً في سبيل ذلك قافلة من الشهداء.

فقد دعا الحزب بجانب شعار حق تقرير المصير الى النضال المشترك بين الشعبين العربي والكردي ضد الاستعمار وعملائه ومن اجل تحرر العراق منه، باعتبار ان الامبريالية هي التي تعيق تحقيق الاماني القومية للشعب الكردي، وهي التي صاغت مواثيق الامم المتحدة بالشكل الذي يمنع فيه أي تطاول على الحدود السياسية القائمة باتجاه تغييرها.

أي ان الحزب اعتبر القضية الكردية جزءاً من القضية الديمقراطية في العراق، وحلها يعتمد على ازالة الاستعمار واقامة الحكم الوطني فيه.

ورفع الحزب شعار الاخوة العربية ـ الكردية، وكافح الافكار الانفصالية التي دعت اليهـا بعض القـوى بعـد ثورة ١٤ تمـوز ١٩٥٨، ودعا للدفاع عن وحدة العراق الوطنية والحفـاظ على الجمهـورية الفتية باعتبارها الضمان لتطور الشعب وبلوغ امانيه. واعتبر الافكار والتوجهات الانفصالية مطلباً رجعياً لا يخدم مسيرة الشعب الى توطيد الاستقلال وتعميق التحولات السياسية والاجتماعية.

واعتبر الحزب ان المصالح الطبقية المشتركة للشعبين هي فوق كل شيء ودعا في سبيل ذلك الى النضال ضد كل الطبقات المستغِلة من اقطاع وبرجوازية عربية وكردية.

وتمسك بمقولة تقضي بان أي حزب شيوعي في أي بلد لا يقوم على اساس قومي بل طبقي مهما تعددت القوميات في ذلك البلد.

ان الحركة التحررية الوطنية الكردستانية، قضية متحركة دوماً، تتطلب رسم سياسة مناسبة حيال كل مرحلة وازاء أي تطور تمر به. ومن منطلق الواقع الحالي لهذه الجركة، نحلّل التوجهات والشعارات التي ناضل من اجلها الحزب، محاولة مراجعتها وتصويبها، ورسم برنامج للتحرر الوطني يستجيب لحقائق هذا الواقع ومستوى تطور القضية الكردية على كافة الاصعدة.

اولاً ـ ان مضمون عصرنا الحالي يصعب تحديده أو وضعه ضمن اطر ثابتة كالسابق، حيث ان سرعة الاحداث وتغير الظروف والاوضاع الدولية تحول دون ذلك. فانهيار الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي وفشل نموذجهما، قد حوّل النظام الدولي الى نظام احادي القطب وتبددت المحاولات لجعله اكثر عدلاً وديمقراطية على صعيد العلاقات الدولية.

ومـع هذا فان الاوضـاع الجـديدة تتيح انشاء محاور واقامة تحالفات قد لا تبقي الوضع بالشكل الحالي وتجعل من ثبات الخريطة السياسية ـ الاقتصادية أمراً مستبعداً.

ويمكن اعطاء بعض ملامح لهذا العصر بقدر ما يتعلق بالقضية التي نبحثها.

ان الحدود السياسية الدولية التي تكونت بعد حربين عالميتين لم تعد مقدسة وابدية، بل اصبحت هنالك امكانية واقعية لتغييرها وخاصة بعد ترسيخ السوق الرأسمالية في العالم كله، وزوال ثنائية السوق الاشتراكي ـ الرأسمالي، وما كان يثار من مخاوف لدى الرأسمالية ازاء أي تغير في الخريطة السياسية وتكوين دول جديدة.

وهـذا لا يعني ان الـرأسمالية العالمية تنظر الى التغيرات التي تطرأ على الحدود السياسية بمعزل عن مصالحها الاقتصادية بل بالارتباط معها. ولكن مخاوفها السابقة من امكانية ارتباط الدول التي تنشأ حديثاً بالمنظومة الاشتراكية وسوقها وبالتالي فك تبعيتها عن الاقتصاد الرأسمالي العالمي قد زالت. أي ان الامبريالية لم تعد تشكل عائقاً كالسابق امام الحركة التحررية الوطنية الكردستانية في سبيل تكوين كيان سياسي خاص بها.

ثانياً ـ اعتبر الحزب القضية الكردية جزءاً من القضية الديمقراطية في العراق. ان هذا النهـج اثبت صحته، حيث ان الحزب اعتبر ان تحقيق الديمقراطية في العراق وامكانية وصـول الحـزب الشيوعي الى الحكم بمفـرده أو بائتلاف يضمه، هو الضمان لحصول الشعب الكـردي على حقه في تقرير مصيره بالشكل الذي يريده. ومن جانب آخر اخذ الحزب بنظر الاعتبار الوضع الدولي وما يثيره من صعوبات سياسية وعوائق قانونية تحول دون تبديل الحدود السياسية القائمة.

ومن الجــدير بالـذكـر ان أي توجـه لم يضـع في الحسبـان ضرورة تحقيق هذه الديمقراطية على صعيد العراق سرعان ما انهار، مهما حصل على مكاسب للشعب الكردي.

ان صواب هذا النهج حتى الآن ممكن له انْ يستمر، ولكن لا يمكن اعتبار الارتباط بين المسألتين ابدياً بل يظل متحركاً ارتباطاً بعوامل كثيرة لعل من اهمها العامل الخارجي المتمثل بالامم المتحدة وهيئاتها، وامريكا وحلفائها بعد توطيد النظام الدولي ذي القطب الـواحـد، وامكـانية تعاظم هذا العامل في المستقبل المنظور باتجاه وضع حل سياسي للقضية الكردية حتى بمعزل عن النظام الحالي أو أي بديل عنه يتنكر لاهداف الشعب الكردي القومية المشروعة.

هذا الى جانب حقيقـة اخرى، ألا وهي تضاؤل احتمال وصول الحزب الشيوعي للحكم أو حصوله على موقع مؤثر ضمن أي ائتلاف يحكم العراق وبالتالي تضاؤل تأثيره الايجابي في صنع القرار لحل هذه القضية، وخاصة ان قوى سياسية كثيرة في المعارضة

الحالية لا تقر بحقوق الشعب الكردي الكاملة في تقرير مصيره بنفسه.

ثالثاً - ان شعار الاخوة العربية - الكردية الذي رفعه الحزب كان له اثره الفعال في تعزيز الكفاح المشترك بين الشعبين في جميع مراحل النضال، واصبح الحزب الشيوعي بحق حزباً للقوميات المتآخية. ولتبحث التغيرات التي طرأت على الحركتين التحرريتين العربية والكردية وطبيعة مهامهما.

ان الهدف الرئيسي الذي كان يناضل من اجله الشعبان وكافة الاقليات القومية في ازالة الاستعمار وتوطيد استقلال العراق قد تحقق. فقد تحرر العراق وحصل على سيادته الوطنية وانتقلت مهام الحركة التحررية العربية في العراق الى مهام ديمقراطية في سبيل تحقيق دولة القانون وتوطيد النهج المستقل للتطور الاقتصادي الاجتماعي... الخ. اما مهمام الحركة التحررية الوطنية في كردستان العراق فلم يتحقق منها شيء يذكر بعد سنوات النضال، أي ان المرحلة التي تمر بها هذه الحركة لا يمكن اعتبارها متطابقة مع المرحلة التي تمر بها حالياً الحركة الديمقراطية في العراق من حيث طبيعة المهمات التي تواجههما والطبقات الاجتماعية المشاركة فيها وآفاق تطور الحركتين، وان كانت كلتاهما لا تستهدفان بناء الاشتراكية في المستقبل المنظور. وبالمقابل لا يمكن اعتبار المرحلتين منفصلتين كلياً، لا تجمعهما أية وشائج. ففي الظروف الملموسة الحالية يجمعهما عدو مشترك يعيق بلوغ اهدافهما، ويتطلب نضالهما الموحد لاسقاطه.

ولنعد الى الاساسين اللذين حددهما الحزب لتعزيز الاخوة بين الشعبين: الاول - ادراك ان الاستعمار هو العائق امام تحقيق الاماني القومية للشعبين. الثاني - الاعتراف المتبادل للشعبين بحق تقرير المصير، والتحرر والوحدة القومية[1].

ان العراق قد تحرر من الاستعمار، ولم يعد هذا الاخير يشكل (كما بينا) عائقاً كالسابق امام تحقيق الاماني القومية للشعب الكردي. وان الاعتراف بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره وتحرره ووحدته القومية لا يعني سوى اتاحة الفرصة له لاقامة كيانه السياسي الخاص به (أياً كان شكله). وان الظروف الموضوعية والذاتية لهذه القضية قد نضجت الى حد يتيح امكانية تحقيقه. وهذا يعني ان شعار الاخوة بين الشعبين يجب ان يطرح بأسس جديدة تأخذ بنظر الاعتبار هذه التغيرات التي طرأت على الحركة التحررية الوطنية، وتنسجم معها.

هذا بالاضافة الى ان طول عهد الدكتاتوريات المتعاقبة على حكم العراق وانتهاجها جميعاً سياسة شوفينية انكرت حقوق الشعب الكردي القومية المشروعة، ومارست سياسة وصلت حد الابادة الشاملة وضيّقت من رقعة كردستان بتعريبها اجزاءً واسعة منها، وتغييرها الطبيعة الديموغرافية فيها، وتمركز الكفاح والنضال في كردستان خلال العقدين الاخيرين

بمستوى لم تشهده المناطق الاخرى من العراق، وما حصل من خراب ودمار للمنطقة نتيجة رد الفعل القاسي من الحكومات، كل ذلك ولد لدى الجماهير في كردستان مزاجاً يختلف عن الذي تكون في سنوات النضال المشترك بين الشعبين ضد الاستعمار وعملائه. وخلق عدم ثقة لديهم حتى من أي بديل للنظام الحالي يمكن ان يمنحهم حقوقهم القومية المشروعة والتي طالما ناضلوا من اجلها.

ان هذا المزاج المتكون نتيجة هذه العوامل، يجعل من الدعوة الى ضرورة النضال المشترك، والمصير المشترك... الخ امراً صعباً، يجب اخذه بنظر الاعتبار عند طرح أي توجه بهذا الخصوص.

رابعاً ـ الافكار الانفصالية التي كافحها الحزب عبر تاريخه وخاصة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ معتبراً اياها مطلباً رجعياً.

لا ادخل في تحليل مفردة «الانفصال» غير الدقيقة من وجهة نظر الحقيقة التاريخية لالحاق كردستان الجنوبية قسراً بدولة العراق المتكونة آنذاك. وسأستخدمها مجازاً.

من المعلوم ان لينين عندما صاغ سياسته من المسألة القومية، اعتبر حق تقرير المصير، بما فيه حق الانفصال وتكوين الدولة المستقلة، لأي شعب، حقاً مطلقاً لا يجوز التجاوز عليه.

وهذا الانفصال وتكوين الكيان السياسي لأي شعب أو قومية يجب تحليله وفقاً للظرف الملموس لذلك الشعب ويجب اخضاعه لمصلحة الديمقراطية بوجه عام وانطلاقاً من حقيقة ان أي تحول سياسي يجب ان يخدم في النهاية تطور القوى المنتجة ويحفز النمو الاقتصادي ـ الاجتماعي.

ولنأخذ امثلة من التاريخ. فقد أيّد ماركس مطلب استقلال بولونيا عن روسيا القيصرية، بالرغم من ان النبلاء هم الذين قادوا حركة البولونيين التحررية وذلك بسبب تأخر وعي الجماهير حينذاك في البلدان السلافية الاخرى. ولكنه وقف بالضد من الحركة القومية التشيكية وسلاف الجنوب الاوربي وحتى اطلق عليها لقب «الامم والشعوب الرجعية»[٦] لانها كانت تقوم بدور مراكز امامية لروسيا القيصرية في اوربا ضد حركة الشعوب الثورية. أي ان القيصرية كانت تستخدم هذه الحركات لغرض مناف للديمقراطية.

أما في وقتنا الحاضر، فان انفصال دول الاتحاد السوفييتي سابقاً عن بعضها البعض لا يمكنه ان يخدم الوجهة التقدمية للتحولات على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، ولا يسهم في تطور القوى المنتجة وبالتالي التنمية الاقتصادية المنشودة لاسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا. هذا بالرغم من الانتهاكات التي تعرضت لها اقوام وشعوب كثيرة نتيجة اخطاء السياسة القومية السابقة.

وعند تحليل الوضع في كردستان العراق وما آل اليه مصير الحركة التحررية الوطنية والشعب الكردي برمته، فان مطلب تكوين الكيان السياسي الخاص أو الانفصال يلقى تأييداً جماهيرياً ملحاً لا يمكن نكرانه أو اهماله، وهو مطلب تقدمي من وجهة النظر التي اشرنا اليها. أي ان هذا التوجه لا يمكن اعتباره الآن يخدم المنحى الرجعي للحركة التحررية الوطنية، وهو الاساس الذي يمكن ان تتعزز حوله الاخوة بين الشعبين.

خامساً - ان مقولة الحزب الشيوعي الذي يقوم على اساس طبقي لا قومي مهما تعددت القوميات في ذلك البلد، اذا اخذنا بها بشكل مجرد دون الرجوع الى الواقع الملموس لتطبيقه يمكن اعتبارها صحيحة. إلا انه ليس صائباً الاخذ بها بشكل مطلق، وتطبيقها في أي بلد وفي ظل مختلف الظروف.

ففي عراقنا المتعدد القوميات، توجد قومية رئيسة لم تنل من الدكتاتوريات سوى السياسة الشوفينية، ولم تزل مهام حركتها التحررية هي نفسها منذ عشرات السنين، في حين ان حليفتها في النضال قد حصلت على تحررها القومي وانتقلت مهامها الى مرحلة اخرى.

ان هذا التباين في المهام والاهداف لا يمكن الحزب الشيوعي ذي البرنامج والنظام الداخلي، التكتيك الموحد ان يغطي متطلبات ومستلزمات تحقيق هذه الطائفة الواسعة من المهام في الحركتين الديمقراطية والتحررية وبالتالي سيتخلف عن تلبية احداهما ان لم تكن كلتيهما.

ولكنْ من الضروري القول ان هذه المسألة (في العراق) لا يصح ان تعمم في كل بلد متعدد القوميات بحيث ينشأ لكل قومية حزبها الشيوعي الخاص بها.

ولنأخذ مثالاً من حاضرنا. فعندما كان شعار الحزب في مؤتمره الرابع هو انهاء الحرب فوراً... الخ يستجيب لمصالح جماهير عريضة في العراق وكان مطلباً ملحاً من مطاليبها، لم تتعاطف معه الجماهير في كردستان بالشكل المؤثر في بقية انحاء العراق، ولم يتحول بالتالي الى شعار تحريضي وتعبوي في كردستان لاحساس جماهيرها بان نهاية الحرب تعني تفرغ السلطة لها وشن حرب ضدها وضد فصائلها المسلحة. وهذا ما حدث فعلاً بالشكل المروّع المعروف.

ان الطبقة العاملة حالياً لا تواجه نفس الوتيرة من الاضطهاد والاستغلال في كردستان وبقية انحاء العراق. فالاضطهاد القومي الذي يتعرض له العامل الكردي يفوق كثيراً ما يتعرض له من استغلال طبقي على يد البرجوازيتين العربية والكردية، ولهذا لا يمكن اعتبار مصائرهما واحدة.

لذا فمن الضروري اعادة النظر في دعوة الحزب السابقة لاعتبار المصالح المشتركة

للطبقة العاملة هي فوق كل شيء»، وضرورة اخضاع كل المسائل الاخرى لها. حيث ان هذه المصالح المشتركة تضيق (ولا تزول) وتتوسع بالمقابل المطامح القومية المشروعة للشعب الكردي.

فقد اثبتت التجربة ان التحولات الاقتصادية ـ الاجتماعية لا تحل المسألة القومية تلقائياً كونها تحوي جوانب هامة اخرى، ولا يجوز حصر تناولها من المنظور الطبقي فقط.

ان هذا كله يجب تجسيده في برنامجي الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي المزمع تأسيسه في كردستان العراق والذي سيملك برنامجاً ونظاماً داخلياً وسياسة خاصة به. وان أي انتقاص لصلاحياته واستقلاليته يجعله لا يختلف عن منظمة الاقليم سوى بالاسم فقط.

ان هذا الحزب يجب ان يصبح حزباً للتحرر الوطني في كردستان العراق. ولهذا من الضروري توسيع قاعدته الطبقية ليشمل جميع الكادحين، وخصوصاً ان الحدود الفاصلة بين الطبقات والفئات الاجتماعية هي غير مستقرة، بل في تغير دائم.

وهذا من منطلق ان الحركة التحررية الوطنية لا يمكن ان تخلو من التناقضات وخاصة الطبقية منها. فلكل طبقة منظورها واداتها للتحرر الوطني. والتجربة اثبتت ان الممارسة العملية للقوى السياسية المختلفة في كردستان العراق عكست تمثيلها الطبقي والمنهج الفكري الذي استندت اليه الى حد كبير.

هذا بالرغم من ان برنامج التحرر الوطني لكردستان العراق هو من الشمولية لدرجة يتعدى فيها مصالح طبقات وفئات متعددة ولا يدع المجال للدعوة للنضال ضد الطبقات المستغِلة. ولهذا يمكن ان يتشابه الى حد كبير برنامج الحزب الشيوعي في كردستان العراق وبرنامج أي من القوى السياسية الاخرى، ولكن ادوات تحقيق هذا البرنامج والطرق والوسائل المعتمدة في مجرى النضال والطبقات الاجتماعية المنخرطة فيه لا بد وان تثير التناقضات والتباينات بينها والتي لا يمكن ارجاع اسبابها سوى الى تمثيلها الطبقي ومناهجها الفكرية المعتمدة.

١٩٩٢/٢/٢٨

---

(١) تقرير اللجنة المركزية للكونفرنس الثاني للحزب الشيوعي العراقي، ايلول ١٩٥٦.

(٢) لينين «خلاصة المناقشة حول حق الامم في تقرير مصيرها».

شيء عن التركمان

محمد حبيب

نبذة تاريخية:

تركمان العراق هم حصيلة الهجرات القديمة من القبائل التركمانية. ولعل أقدم هذه الهجرات كانت هجرة القبائل الطورانية[1] من الياقوتيين الذين هاجروا من شمال الصين وسلكوا الطريق الجنوبي (نان ـ لو) والذي يمتد من جبال تيان شان ـ كشغر ـ سغد ـ فرغانه ـ إيران ـ ميديا ـ قفقاسيا ـ بوسفور ـ وينتهي بالجزيرة[2]. وعندما وصل الياقوتيون إلى بلاد ميديا انتشروا على ضفتي دجلة والفرات وذلك سنة ٨٠٠ ق.م[3].

وفي سنة ٥٤ هجرية بدأت هجرة القبائل التركمانية إلى العراق بعد أن تغلب عليهم القائد عبد الله بن زياد. ثم تتابعت هجرات القبائل التركمانية من الشرق إلى الغرب.

وعندما توحدت القبائل المغولية بقيادة جنكيز خان (١١٥٥ ـ ١٢٢٧ م) توجهت هذه القبائل من موطنها في منغوليا واتجهت نحو الغرب كالسيل الهادر بقيادة جنكيز خان الذي هزت فتوحاته أركان الدول جميعاً من الصين شرقاً حتى البحر الأدرياتيكي غرباً[4].

وتجددت هجرة القبائل التركمانية في أواخر القرن الثامن الهجري عندما قاد تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) ـ وهو أحد أحفاد جنكيز خان ـ الجحافل المغولية نحو

الغرب. فأسس امبراطوريته وجعل عاصمتها سمرقند والتي امتدت من نهر الكنج شرقاً حتى سوريا غرباً. وكان الفتح العثماني للعراق سنة ٩٤١ هجرية آخر تلك الموجات من القبائل التركمانية. واستوطنت هذه القبائل في العراق من تلعفر وفي خط طويل من الغرب على طريق الموصل ومن (دلي عباس) في محافظة ديالى إلى الزاب الكبير. وتمركزت أكثـريتهم في كركوك[*]، واليوم يعيش أكثرية التركمان في مدينة كركوك، طوز خورماتو، كفري، داقوق، تازه، ليلان، قزر لباط وخانقين (في محافظة ديالى) وتلعفر والرشيدية (في محافظة نينوى). كما أن القرى التركمانية في أطراف كركوك (مثل بشير وتسعين ويابجي وكومبتلر وعشرات القرى الأخرى) قد أزيلت من الوجود مثل أخواتها الكرديات. وتم ترحيل ساكنيها إلى المجمعات القسرية في محافظة اربيل.

اللغة التركمانية:

ولدت اللغة التركمانية وحملتها تلك القبائل التي اتجهت نحو الغرب. ورغم اتحاد هذه القبائل في الأصل والعنصر فقد كانت لهجاتهم مختلفة. وقبل الإسلام كانت لهجتان شائعتان في اللغة التركمانية هما: لهجة (كوك تورك) ولهجة (الاويغور)[6] وبعد الإسلام تبدلت هذه التسميات إلى اللهجة الشرقية (الخاقانية) الي تطورت إلى اللهجة الجغطائية، نسبة إلى أحد أبناء جنكيز خان. ومن المؤلفات المكتوبة بهذه اللهجة (معراجنامه) (بختيار نامه) (تذكرة الأولياء). أما اللهجة الغربية فقد أطلق عليها اللهجة (الأوغوزية) نسبة إلى (أوغـوز خان) جد التـركمان الأعلى. وهذه اللهجة حملها السلاجقة إلى إيران ثم آسيا الصغرى والعراق[7].

كان سقوط الامبراطورية السلجوقية وقيام الامبراطورية العثمانية سبباً في انقسام هذه اللهجة إلى اللهجة العثمانية واللهجة الآذرية (المتداولة حالياً في أذربيجان). أما اللهجة التركمانية في العراق فهي وسط بين هاتين اللهجتين[8]. وأول من استعمل هذه اللهجة هو الشاعر التركماني نسيمي البغدادي في القرن الرابع عشر الميلادي[9].

ومثلمـا تختلف اللهجـات التـركية بين إقليم وإقليم فإننا نجد الاختلاف ذاته في اللهجـة التـركمـانية في العراق فهناك لهجة (تلعفر) وماجاورها، ولهجة (ألتون كوبري) و(كـركوك ـ داقوق) وماجاورها من القرى، وهناك لهجة (بيات) ولهجة (كفري ـ قرنية) ولهجة (خانقين ـ قزلرباط ـ شهربان ـ مندلي ـ قره غان) وتعتبر لهجة كركوك أنقاها وأقربها إلى اللهجتين الآذرية والتـركية الحديثة. لذلك اتخذت هذه اللهجة لغة الأدب والثقافة التركمانية في العراق.

الأدب التركماني :

يعتبر الأدب التركماني فرعاً من الأدب التركي الضخم[10] فقد كان (الأويغـوريون) أوفر القبائل التركمانية حظاً من الثقافة حيث كان لهم خط معروف يكتبون به حتى أن جنكيز خان «أمر بأن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغوري»[11] وبعد أن قطع الأو يغوريون شوطاً بعيداً في تطوير أدبهم بواسـطة الأبجـدية السـامية،التي انتقلت إليهم بواسطة المبشرين النسـاطـرة منـذ القـرن الخامس الميلادي، اصطنع الأتراك أبجديات أخرى مشتقة من الأبجدية اليونانية والسلافية وذلك بعد ترجمنة الإنجيل إلى التركية[12]. وكان الشعر التركي يسبق تطور الأبجـدية التركية بمراحل حيث كان للأتراك شعراؤهم الذين كانوا يسمونهم (شامان) أو (اويون) أو (قام) أو (باقصى) أو (أوزن)[13]. وكان للأويغور أغان طويلة يتناوب في إنشادها شخصان. وكانوا ينشدونها في رحلاتهم ويسمونها (خره وات) أو (خور). وهي تحكي عن أحوالهم ومستقبلهم وغرامياتهم وبطولاتهم وفروسيتهم. ولازالت القبائل الرحل من التركمان والقرغيز والمنغوليين ينشدونها حتى يومنا هذا[14].

وكـان للشعر التركي أوزانه الخاصة قبل الإسلام وتسمى (الهجا). وكانت جميع القصائد تنظم على شكل رباعيات وذات قواف ناقصة. وقد تأثر الأدب التركي بالأدبين الفارسي والعربي فانتقلت أوزان الشعر العربي (العروض) إلى هذا الشعر. فكان ميلاد (أدب الديوان) وذلك خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي.

قامت هذه الحركة على أكتاف الطبقة الأرستقراطية ذات المراكز الهامة لذلك اتجه الشعر التركي في ثلاثة اتجاهات:

١ ـ شعر الساز: وهو امتداد للشعر التركي الذي كان قائماً قبل الإسلام.

٢ ـ شعر الديوان: الذي ولد بعد تأسيس أدب الديوان.

٣ ـ الشعر الديني: الذي نما وترعرع في التكايا تحت تأثير أدب الشعب.

بمكن اعتبار ديوان (هبة الحقائق) للشاعر (أديب أحمد) الأثر المهم لأدب الديوان أما أشعار (أحمد يسوي) المتوفى سنة ١١٦٦ م فكانت نموذجاً رائعاً لأدب التكايا الذي جمع أشعاره في ديوان (الحكمة). لقد نما الأدب التركي وتطور خلال حكم دولة القراخانيين (٩٣٢ - ١٢١٢) ودولـة السلاجقة (القرن الحادي عشر ـ الثالث عشر).. ويعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبي لأدب الشعب وأدب التصوف من جهة، وأدب الديوان من جهة أخرى، وأخذت التركية تحل محل لغة الأدب الفارسي والعربي.

وفي القرن الرابع عشر ولد الشاعر التركماني عماد الدين نسيمي في إحدى ضواحي بغداد، ونشأ فيها،ويعتبر نسيمي المتوفى سنة ١٤٠٤ مؤسس الأدب التركماني في العراق

حيث استعمل اللهجة التركمانية ـ التي هي خليط من لهجة الأناضول الشرقية واللهجة الأذربيجانية ـ في نظم الشعر. وفي القرن السادس عشر ظهر الشاعر التركماني المبدع فضولي (١٤٩٨ ـ ١٥٥٨) الذي اعتبر مجدد الشعر التركماني وأمير البيان التركي وحامل لواء نظمه ونثره والشاعر الأعظم كما وصفه عبد الحق حامد. وقد امتد أثره حتى عصرنا الحاضر وذلك لصدق تعبيره ولنظرته الشعورية إلى الكون"[١٥]. كان فضولي سابقاً لعصره لذلك شعر بأغلال التقاليد والعادات البالية منذ نعومة أظفاره. وانطلاقاً من هذا الشعور كتب ملحمته الخالدة (ليلى مجنون)"[١٦]. وفي القرن السابع عشر كان طابع الشعر التركي صوفياً رومانتيكياً حيث النزوع إلى تقليد مثنويات جلال الدين الرومي وجاص ونظاص.

في القرن الثامن عشر تعاظمت الدولة العثمانية وفي هذه الفترة ظهر الشاعر التركماني المشهور عبد الرزاق نورس المتوفى سنة ١٧٧٥ م. فأخذ ينتقد الأوضاع الشاذة ويهجو السلاطين والوزراء مما حدا بالسلطان إلى نفيه إلى ولاية (بورصة) حيث قضى فيها أيامه الأخيرة وتوفي فيها ولم يطبع ديوانه لحد الآن"[١٧]. كما ظهر في هذه الفترة شعراء، أمثال غريبي اربيللي وأسعد نائب كركوكلي وغيرهم. .

أما الأدب التركماني في العراق فقد بقي تحت تأثير أدب الديوان رغم التحولات والتغييرات المهمة التي طرأت على الأدب التركي في تركيا وظهور شعراء كبار أمثال نامق كحال، عبد الحق حامد، رضا توفيق، حسين رحمي، خالدة ديب حتى بداية القرن العشرين. وكان خير من يمثله هو الشاعر المهجري دهده (١٨٧٧ ـ ١٩٥٢) أعظم شعراء التركمان بعد فضولي البغدادي حيث يعتبر لسان التركمان بلهجة العصر. كما وظهر شعراء كبار في كركوك وماحولها أمثال رسول حاوي "المتوفى في ١٨٢٦ وخضر ثاقب (١٧٩٣ ـ ١٨١٨) ومحمد مهري (١٨٤٩ ـ ١٩١٨) الذي عاصر الشاعر الكردي الشيخ رضا الطالباني، وطبيب أوغلي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٦) وسركيس عيواز أوغلي (كلداني) من محلة قلعة كركوك)الذي كتب ملحمته الشعرية (سفيل يونان). وقد أعدم بتهمة الارتداد في ١٧٩٩"[١٨]. ويرز عمر آغا ترجيل المتوفى سنة ١٩٥٥. وقد اعتبر من الشعراء الوطنيين فقد قاوم بأشعاره الاحتلال الإنكليزي والحكم الملكي الرجعي حتى نهاية حياته حيث سجن وشرد.

الهوامش والمصادر:

(١) الطورانيون: كلمة أطلقها الغربيون على الأقوام التركية التي تقطن المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى منغوليا ـ وتربط بينهم رابطة الدم والعنصر واللغة. وخلال حرب الاستقلال التركي (١٩١٨ ـ ١٩٢١) أراد جماعة من المتطرفين الأتراك جمع تلك الشعوب في دولة واحدة تحت راية تركيا الحديثة ولكن مصطفى كمال ـ أتاتورك لم يماش هذه الحركة فلم يبق منها الآن غير الاسم.

(٢) م. شمس الدين ـ مفصل تورك تاريخي.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ـ المغول في التاريخ.

(٥) لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ ترجمة جعفر الخياط.

(٦) كمال دميراي ومصطفى (اوزون ـ تورك ديلي ادبياتي).

(٧) إبراهيم الداقوقي ـ فنون الأدب الشعبي التركماني ـ بغداد ١٩٦٢.

(٨) عباس العزاوي ـ الكاكائية في التاريخ.

(٩) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ج٣.

(١٠) التركمانية والأذرية والقرغيزية والأوزبكية والتركستانية هي لهجات من اللغة التركية الأم (م.ح).

(١١) الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد. المغول في التاريخ.

(١٢) عارف مفيد ـ اورتاجاغ تاريخي.

(١٣) إبراهيم الداقوقي ـ فنون الأدب الشعبي التركماني ـ بغداد ١٩٦٢.

(١٤) ملا صابر كركوكلي ـ كركوك منتخب خوريا تلري ج ٣.

(١٥) البروفيسور حميد آرسلي ـ مقدمة ليلى مجنون.

(١٦) إبراهيم الداقوقي ـ فنون الأدب الشعبي التركماني ـ بغداد ١٩٦٢.

(١٧) إبراهيم علاء الدين ـ تورك مشهوراي.

(١٨) يدور موضوع هذه الملحمة الشعرية بلسان المسيحي (سفيل يونان) حيث قطع رأسه بالسيف سنة ١٧٩٩ في بغداد. ولد (سفيل يونان) في مدينة كركوك من عائلة مسيحية تركمانية. وبسبب حالة الفقر الذي كان يعانيها قام والده ببيعه إلى أحد أثرياء المسلمين. فيهاجر إلى بغداد. وقام الثري المسلم بإجراء عملية الختان له حسب العقيدة الإسلامية. وعندما شب سفيل ذهب إلى بغداد وعمل خياطاً لدى الأرمني داود. ونتيجة تردد (سفيل) على الكنيسة باستمرار ولكونه مسلماً أثار حنق المسلمين وألقي عليه القبض وقدم إلى المحكمة بتهمة (الارتداد عن الإسلام) ونفذ فيه حكم الإعدام بقطع رأسه بالسيف سنة ١٧٩٩ ـ إن هذه الحادثة هزت المسيحيين في كركوك والموصل وديار بكر في ذلك العصر.

اربيل ٢٨/ ٦/ ١٩٩٢

قراءة في متغيرات العالم

عالمنا المعاصر.. الى اين؟

د. سامي خالد

تتواصل التغيرات السريعة في العالم وتثير المزيد من الجدل والاسئلة . . . ما الذي حدث ويحدث . . ما هي سمات العصر الجديد الذي بدأنا الولوج فيه . . ما هي اسباب هذه التغيرات السريعة والمفاجئة . . . ما هي الآفاق المحتملة . . ما هو مصير العالم الذي يقترب من القرن الحادي والعشرين؟

هذه الاسئلة ، والعديد غيرها ، تشغل اذهان ليس فقط المختصين والعلماء بل وقطاعات واسعة من الناس الذين وجدوا انفسهم في وسط العمليات الضخمة من التبدلات الجارية في الفكر والسياسة في ظل عواصف العصر التي لم تنته بعد.

سنحاول التوقف ، في مقالنا هذا ، امام الظواهر الجديدة في تطور العالم . . اتجاهاته العامة . وبالطبع فهي ليست نهائية بل صورة اولية ـ خاضعة للتغيير ـ يمكن استخلاصها من العمليات السياسية الاجتماعية التي تتفاعل في عالم اليوم والتي ستترك اثرها ، بهذه الدرجة أو تلك ، على عالم الغد .

وبهذا الصدد يمكننا تحديد ثمانية اتجاهات جديدة تميز عالم اليوم وتميز ابعاد هذا العصر.

اولاً ـ نهاية الحرب الباردة وبداية مرحلة ما بعد الحرب الباردة وتشكل ما يسمى النظام العالمي الجديد.

لقد شهد العالم مرحلة الحرب الباردة التي استمرت ما يزيد عن أربعة عقود من الزمن، منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى التسعينات، والتي اتسمت بالتوتر وسباق التسلح والحروب والنزاعات الاقليمية والمحلية (يقدر عدد ضحاياها حوالي ٢٢,٥ مليون انسان) والحروب الاقتصادية والاعلامية والثقافية. ويمكننا اعتماد لغة الارقام فهي ادلّ بكثير من الكلام المجرد:

أ ـ سباق التسلح لغاية عام ١٩٩٠ يكلف يومياً حسب احصاءات معهد استكهولم الدولي لابحاث السلام، ٢,٢ مليار دولار أي ١,٥ مليون دولار كل دقيقة. واصبح معروفاً ان تكدس الاسلحة المدمرة يكفي لابادة الكرة الارضية خمس عشرة مرة، في حين يموت يومياً في البلدان النامية ولايزال ٣٠ ألف طفل بسبب الجوع والامراض.

ب ـ خلال العام ١٩٨٦ وحده اندلعت ٣٦ حرباً ونزاعاً مسلحاً اشترك فيها ٤١ بلداً وادت الى هلاك خمسة ملايين انسان.

ان هذه الامثلة الموجزة للغاية هي شواهد حية على زمن الحرب الباردة من تاريخ البشرية. وبالطبع لا ننسى هنا الاشارة الى انه خلال مرحلة الحرب الباردة تحققت انجازات هامة خاصة بفضل الثورة العلمية التكنولوجية. إلا ان الوجهة الاساسية كانت توظيف معظم منجزات هذه الثورة في مجال تكنولوجيا السلاح والسلاح المضاد.

اما ما بعد الحرب الباردة فأبرز علائمها هي الحد من السلاح النووي والتوجه نحو نزعه، وقف سباق التسلح، البحث عن حلول للنزاعات والمشكلات الاقتصادية الاجتماعية والاقليمية: (ناميبيا، جنوب افريقيا، انغولا، السلفادور، كمبوديا، الكوريتان...) رغم ان معظم هذه الحلول اقترنت بتنازلات من السوفييت وحلفائهم (الانسحاب السوفييتي من افغانستان، انسحاب الكوبيين من انغولا، انسحاب الفيتناميين من كمبوديا).

ولكن لم يقتصر الامر على هذا الجانب الايجابي بل يبرز بوضوح اليوم الوجه الآخر، الجانب السلبي الذي تدل عليه الاخفاقات مثل تعثر مفاوضات السلام في الشرق الاوسط واستمرار نيران الحروب الاهلية في القرن الافريقي اضافة الى بروز القطب الواحد وتكريس هيمنة الولايات المتحدة الامريكية التي تطمح الى لعب دور القائد الحاسم في مجرى تطور الخارطة السياسية للعالم. ومما عزز هذا التوجه عاملان اساسيان هما: انهيار

النظام الاشتراكي في اوربا الشرقية وتفكك الاتحاد السوفييتي اولاً، وثانياً حرب الخليج الثانية. وبدأت امريكا تطرح المفاهيم مثل النظام العالمي الجديد، النظام الاقتصادي العالمي الجديد، النظام الامني الجديد وغيرها من الآراء والتصورات التي لخصها خطاب الرئيس الامريكي بوش في ٦ آذار ١٩٩١.

فالولايات المتحدة كانت تعمل منذ فترة طويلة لتحقيق مكاسب خارجية بغية تخفيف ازماتها الداخلية المتفاقمة. ولذلك وجدت في انهيار النظم الاشتراكية وحرب الخليج الفرصة المناسبة. ولعله من المفيد الاشارة الى مقال هنري كيسنجر (جدول اعمال ما بعد حرب الخليج) الذي نشرته مجلة (نيوزويك) في عددها الصادر ١٩٩١/١٢/٢٨ والذي اشار في خاتمته «والنصر في حرب الخليج سيخلق فرصة تاريخية لوضع ميزان جديد وواقع جديد ومعادلة جديدة. وليس من الحزم أو عزائم الامور ان نضيع هذه الفرصة!».

وهكذا اذن فقد توجب نهاية الحرب الباردة بنهاية احد قطبيها الذي سمّاه الرئيس الامريكي السابق رونالد ريغان «امبراطوية الشر». إلا ان ذلك لا يعني نهاية الصراع السياسي الاجتماعي الذي يتزايد في عالم اليوم السائر نحو توازنات جديدة على الرغم من المحاولات الامريكية الرامية الى تكريس النتائج التي تحققت في العام الماضي كأمر واقع وخاصة الزعامة الامريكية للعالم. وبهذا الصدد فان الرئيس الامريكي الاسبق ريتشارد نيكسون في كتابه الجديد: «انتهزوا اللحظة، التحدي الامريكي في عالم ذي قوة عظمى واحدة» يقول: «يجب ان لا تعتمد مهمة امريكا الجديدة في العالم فقط على الرمال الناعمة للمثالية غير الواقعية بل على الصخر الصلب لواقع سياسي عالمي دائم. فالدول كما لها مُثلها، لها مصالحها ايضاً. وللدفاع عن مصالحها فهي تلجأ الى القوة بما فيها العسكرية».

ثانياً ـ انهيار الانظمة الاشتراكية في اوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي.

لقد تسارعت منذ العام ١٩٨٩ عملية انهيار وتفكك المنظومة الاشتراكية وشهد العام ١٩٩١ نهاية الاتحاد السوفييتي. ولازالت تتفاعل في هذا المجال عوامل عديدة لم تستكمل بعد، ولعل ابرز معالمها اشتداد وتعمق الازمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب والنزاعات الاهلية والقومية وتحول الآمال ببناء مجتمع الرخاء الى سراب ووهم خادع.

في هذا السياق تبرز الاسئلة ايضاً: ما الذي انهار ولماذا.. الاشتراكية أم الانظمة القائمة؟ ماذا سيكون مصير من تبقى مما يعرف بالدول الاشتراكية.. ما هي آفاق المستقبل.. ما هو البديل؟ وهل حقاً سيكون الخيار الرأسمالي المصير المحتوم وطوق

النجاة لهذه البلدان؟

بالطبع ان الاسئلة اكثر من الاجوبة ولكن الذي جرى ويجري هو تعبير عن مأزق وافلاس سياسي اقتصادي اجتماعي وايديولوجي للانظمة التي كانت قائمة.

ويمكننا تحديد اسباب ما حدث في عوامل داخلية واخرى خارجية بايجاز شديد.

أ ـ العوامل الداخلية:

١ ـ المجال الاقتصادي: وخاصة في مجال الملكية، فقد اعتبر التأميم شكل الملكية الوحيد وعدم اعتماد اشكال اخرى فاعلة للملكية. وكرس ذلك التخلف الاقتصادي بالقياس لما حققه الغرب في مجال الثورة العلمية التكنولوجية.

٢ ـ المجال القومي: المعالجة السطحية لاهم ظاهرة اجتماعية ظلت تغلي تحت السطح واستعيض عنها بالاممي على حساب القومي.

٣ ـ المجال السياسي: غياب الديمقراطية وسيادة الرأي الواحد والفكر الواحد.

٤ ـ المجال الروحي: الالحاق القسري للبناء الفوقي بالقاعدة الاقتصادية واهمال المشاعر والتقاليد والدين.

٥ ـ المجال التنظيمي: الحزب الواحد الذي تحول الى اداة سيطرة كلية فوق الدولة والمجتمع تحت شعار وممارسة (لا صوت يعلو فوق صوت الحزب).

وفي هذه المجالات الخمسة وغيرها شوهت الافكار الانسانية والمثل النبيلة للاشتراكية وجرى تطبيقها بشكل جامد بعيداً عن مستجدات الحياة وقوانين تطورها واصبحت بالفعل دولة العقيدة عائقاً امام التطور الطبيعي للمجتمع. وبهذا الصدد يقول الكاتب المصري محمد سيد احمد: «ان سبب انهيار الاتحاد السوفييتي هو الافلاس الايديولوجي الشامل في المجتمعات الاشتراكية حيث تحولت الايديولوجيا الى مؤسسات فقدت جاذبيتها واصبحت الايديولوجيا بنظر الجماهير مبرراً لاقامة نظام مؤسسي ينطوي على قدر كبير من الكبت وتفشي الفساد نتيجة ذلك، ونشوء طبقة جديدة من المنتفعين من المؤسسات الاشتراكية».

ب ـ العوامل الخارجية:

١ ـ الحرب الباردة: التي ارهقت اقتصاديات الانظمة الاشتراكية نتيجة التكاليف الهائلة لسباق التسلح وقد حققت بلدان حلف وارشو توازناً عسكرياً مع حلف الناتو في اواسط السبعينات. إلا ان ذلك انعكس سلباً على الاوضاع الاقتصادية الاجتماعية لهذه البلدان التي لم تكن تعتمد على نهب اقتصاديات البلدان النامية مثلما يفعل الغرب.

٢ ـ سياسة التدخل والتخريب الايديولوجي والحرب الاعلامية: وقد اتقن الغرب ذلك من خلال تجربته الطويلة عبر استخدام الدعاية والتحريض والاكاذيب وانصاف

الحقائق.

وتروج الآن نظريات عديدة واكثرها شهرة نظرية فوكوياما «نهاية التاريخ» التي تعتبر ان ما تحقق هو انتصار للرأسمالية ولفكرها السياسي الذي تجسده الليبرالية والديمقراطية الغربية تحت زعامة الولايات المتحدة الامريكية.

وكذلك طرح بريجنسكي في كتابه «الفشل العظيم: ولادة وموت الشيوعية في القرن العشرين» ذات التوجه وذات الافكار.

ان هذه النظريات وغيرها هي محاولات قديمة جديدة لطمس الحقائق ولتبرير عدوانية الولايات المتحدة والدول الرأسمالية ولتكريس نزعة الهيمنة ولتضليل الرأي العام العالمي حول نهاية الاشتراكية وبالتالي محاولة اثبات الفكرة القائلة بانه لا يوجد بديل عن الرأسمالية. ومعروف جيداً ان الغرب يسعى جاهداً وبالطاقة القصوى الى الاستفادة من المتغيرات التي جرت في اوربا الشرقية والاتحاد السوفييتي لتسليط الاضواء عليها وابعاد الاضواء عن تناقضات الرأسمالية والتخفيف منها. وهذا امر طبيعي. ولكن مما يؤسف له انه وقع في فخ الدعاية الرأسمالية بعض المتبجحين بما حدث في الاتحاد السوفييتي باعتباره انتصاراً للاسلام في مواجهة الالحاد. ولكن بعد تلمس النتائج الاولية يتضح ان البلدان النامية، ومنها البلاد العربية هي ضحية لهذه التطورات. وقد خسرت العديد من البلدان كثيراً نتيجة لغياب الاتحاد السوفييتي وستتضح هذه المسألة بصورة اكبر خلال الفترة القريبة القادمة.

ثالثاً ـ اشتداد مأزق وتناقضات النظام الرأسمالي العالمي

تأخذ هذه الظاهرة القديمة المتجددة ابعاداً جديدة في هذه المرحلة. حيث تتفاعل في العالم الرأسمالي تناقضات حادة رغم نجاح الرأسمالية في تجديد نفسها وفي ما حققته على صعيد التقدم العلمي التكنولوجي. فالازمة الشاملة تتسارع سواء على صعيد كل بلد رأسمالي أو على صعيد المنظومة الرأسمالية بمراكزها الاساسية الثلاثة: الولايات المتحدة الامريكية، اوربا الغربية، اليابان.

ولكي لا نستغرق طويلاً في تفاصيل هذا الموضوع الذي بات معروفاً، نكتفي بالاشارة الموجزة الى مثال ملموس هو الولايات المتحدة الامريكية التي تعترف رسمياً بالركود الاقتصادي والبطالة التي وصلت في شهر شباط ١٩٩٢ الى ٩,٥ مليون وقد قفز الدين القومي الامريكي بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩١ الى ثلاثة امثاله واصبح خُمس العائلات الامريكية في نهاية تلك الفترة افقر مما في بدايتها. وفي العام الماضي بلغ العجز في

الميزانية الفيدرالية الامريكية ٢٩٠ مليار دولار ويزيد هذا العام ليبلغ ٤٠٠ مليار. واعباء خدمة الدين الامريكي تصل وحدها الى ٢٠٠ مليار دولار في السنة وكلها ارقام غير مسبوقة في التاريخ الامريكي واضافت المزيد من التشوش في التصور الامريكي للعلاج. وتحاول الولايات المتحدة جاهدة تغطية عجزها الداخلي عبر المكاسب الخارجية. واخيراً لا بد من الاشارة الى ان التناقضات بين الولايات المتحدة وحلفائها تتسع اكثر فأكثر، وخاصة مع اوربا، حيث تزداد يومياً شعبية الشعار الاوربي : امريكا خطر على اوربا. . خاصة بعد نهاية المبررات التي كانت الولايات المتحدة توظفها للضغط على اوربا، واقصد «الخطر السوفييتي». كما تزداد التناقضات، خاصة في المجال الاقتصادي، مع اليابان. وكل هذه الاوضاع تنذر بدور اضعف للولايات المتحدة في المراحل القريبة المقبلة على الصعيد الاقتصادي وبالتالي السياسي.

رابعاً ـ تعمق ازمة وتناقضات العالم النامي

لعل الامر لا يبدو جديداً هنا، ولكن المستجد هو تسارع عملية التخلف اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً بوتائر لم يشهد لها التاريخ المعاصر لهذه البلدان مثيلاً. ويتجلى ذلك من خلال اشتداد التبعية وانخفاض معدلات النمو واشاعة نمط الحياة الاستهلاكي وبطء التحولات وتخلف الحركة السياسية وسيادة انظمة الحكم الفردية والتأثر المشوه (في اغلب الاحيان) بما يجري في العالم. والأمثلة لا تعد ولا تحصى. وجروح العالم النامي شاهدة على العصر وعلى همجية السياسات الامبريالية. ويكفي ان نشير الى البعض منها: في القرن الافريقي وحده ٢٣ مليون انسان مهدد بالموت بسبب الجوع والجفاف والامراض. ويومياً تحصد الحروب والنزاعات الاهلية والاقليمية الآلاف من السكان الابرياء في الصومال واثيوبيا وجيبوتي وغيرها.

أما عن الاوضاع الاقتصادية والتبعية للغرب فالارقام كافية الدلالة، حيث ان ديون البلدان النامية وصلت الى ١٣٥٠ مليار دولار وفوائدها السنوية وحدها ١٢٥ مليار.

ومن بين الظواهر الجديدة نلحظ تراجع الحركة الديمقراطية واتساع تأثير العامل الديني الاصولي (رغم ان هذه الظاهرة اخذت تتسع حتى في اوربا الشرقية) كرد فعل للصعوبات والتعقيدات المتفاقمة.

ورغم كل هذه التراجعات يوجد ميل نحو تعزز دور البلدان النامية في العلاقات الدولية من خلال التنسيق، وتعزيز دور المنظمات الدولية مثل حركة عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية وغيرها. كما تجري توجهات نحو ديمقرطة الحياة الاجتماعية في بعض

البلدان النامية إلا انها لازالت في بداياتها الاولى ولازال امام هذه البلدان المهمة الاساسية وهي الربط الوثيق بين التنمية الاقتصادية والديمقراطية السياسية.

ان كل ما مر ذكره نراه بوضوح في العالم العربي الذي لم يعرف بعد الاستقرار واليوم نشهد قوس النار من شمال العراق حتى جنوب السودان ومؤخراً كشفت اليونسكو ان هناك ١٠٠ مليون انسان أمي في العالم العربي الذي لا يتجاوز سكانه ٢٢٠ مليون نسمة.

خامساً ـ الميل العالمي نحو الديمقراطية وحقوق الانسان

اتسعت مطالب الشعوب المشروعة نحو الديمقراطية السياسية والاجتماعية واصبحت سائدة عالمياً مفاهيم التعددية والحرية والديمقراطية وجرت الانتخابات البرلمانية والرئاسية في العديد من بلدان العالم الذي تهب فيه رياح الديمقراطية بشكل واسع وحتى البلدان التي حاولت ان تضع جداراً سميكاً حول الديمقراطية، اضطرت للتحدث عنها، فالكل يتحدث الآن عن الديمقراطية بغض النظر عن اهدافه ومراميه. فالعديد من البلدان وخاصة العربية تعتمد اسلوب الادعاء بالديمقراطية والقيام بعكسها.

ان الميل نحو الديمقراطية ظاهرة تثير جملة من الاشكاليات، منها تأثير الوضع الاقتصادي على الواقع السياسي من خلال طرح السؤال: هل الاقتصادي يسبق السياسي، أم ان البناء السياسي يجب ان يكون قادراً على التواكب مع مثيله الاقتصادي؟ وبالطبع لا يفوتني ان اشير الى انه لا يكفي ان يكون هناك تيار ديمقراطي عالمي يسود الحقبة الراهنة لتنجح الديمقراطية. لان الديمقراطية ترتبط اساساً بالواقع الاجتماعي الملموس. ومهما يكن من امر فان ما جرى ويجري على هذا الصعيد هو ظاهرة ايجابية رغم ما صاحبها من تشويهات جاءت كرد فعل لغيابها سابقاً.

سادساً ـ بروز المسألة القومية وتشكل الدولة القومية

شهدت السنين الاخيرة تبلوراً واضحاً في هذا المجال تجسد في تصاعد الحركات القومية المطالبة بالاستقلال وتكوين الدول. وان طموح القومية باتجاه الدولة تزامن مع المتغيرات الجارية في العالم نحو الديمقراطية واصبح هدف اقامة الدولة بالنسبة للقوميات فوق كل شيء حتى تشبع ثم تفكر فيما بعد بالمعضلات الاخرى.

فالاتحاد السوفييتي السابق ليس فقط ١٥ دولة بل بدأت الحركات القومية في كل بلد تنشط. وفي روسيا اعلنت تأترستان وتشيشينيا استقلالهما. وغالباً ما تأخذ المسألة القومية

شكل صراعات دموية مثلما يجري في ناغورني قرباخ وفي الجمهوريات اليوغسلافية.

ان الميل القومي المتصاعد بدأ ينشط ايضاً في بلدان الرأسمالية كما هو الحال اليوم في كندا وايطاليا واسبانيا.

أما في العالم الثالث فهذه القضية ليست جديدة ولكنها اليوم تشهد نشاطاً متزايداً ووضوحاً اكبر مثلما هو حال القضية القومية الكردية.

هكذا اذن فقد اصبحت قضية الهوية، التي بدأت بالظهور وبوضوح شديد، احد الدوافع في عملية الانبعاث القومي.

سابعاً ـ الميل نحو الوحدة واقامة التكتلات الاقتصادية السياسية

وهذا الامر يأتي بعد الميل القومي وليس قبله، حيث يبدو الامر هنا متناقضاً أو اشبه بالمفارقة، ففي الوقت الذي نشهد فيه تفكك وانهيار دول كما هو الحال في يوغسلافيا والاتحاد السوفييتي نشهد بذات الوقت توحد مجموعات ودول اخرى كما هو الحال في اوربا الغربية التي تتهيأ لاقامة الوحدة الاوربية ابتداءً من كانون الثاني ١٩٩٣. وشهد العام الحالي قيام أو اعادة بعث عدة اشكال اقتصادية منها:

ـ اسيان (رابطة جنوب شرق آسيا) التي عقدت قمتها في اواخر كانون الثاني ١٩٩٢ في سنغافورة. واتفقت دولها الست على التعاون الاقتصادي والامني واقامة منطقة حرة في غضون ١٥ عاماً.

ـ منظمة التعاون الاقتصادي (ايران، تركيا، باكستان) عاودت نشاطها بعد ٢٧ عاماً وعقدت لقاء طهران في اواخر شباط. واعلنت عن اتفاقات اقتصادية. وتتوجه هذه المنظمة الى الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي السابق.

ـ رابطة الدول المستقلة التي تضم (١١) جمهورية سوفييتية سابقة. ورغم ما تعانيه الرابطة من مشاكل اقتصادية وسياسية إلا انها شكل ملموس يمكن تطويره.

ـ مجلس التعاون الذي يضم (٣٥) دولة اعضاء حلفي الناتو الحالي ووارشو السابق. وشكل اجتماع بروكسل في آذار هذا العام البداية الاولى للمجلس.

هذه الامثلة اضافة الى الاشكال السابقة من التكتلات الاقتصادية والسياسية مثل المجموعة الاوربية والدول الصناعية الكبرى السبع وغيرها.

ويبقى هنا السؤال التقليدي عن موقع العالم العربي في هذا الاطار. فقد شهدت البلدان العربية قيام تجمعات منها القديمة (جامعة الدول العربية) ومنها الجديدة مثل مجلس التعاون الخليجي ١٩٨٠، مجلس التعاون العربي ١٩٨٩، اتحاد دول المغرب

العربي ١٩٨٩ . ولكنها ظلت اسيرة المواقف السياسية وخاصة التجمعات الثلاثة واقتصرت غالباً على الشكل اكثر من المضمون لانها افتقدت التعبير عن مصالح الجماهير. كما اغفلت التنمية والتعاون واستعاضت عنه بالجانب الامني السياسي في حين ان البلدان العربية تملك كل مستلزمات التعاون الاقتصادي الاجتماعي. وحتى لا استرسل كثيراً اكتفي بما ذكره رئيس المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي الدكتور حسن ابراهيم حيث يقول: ان قيمة الفائض المالي العربي الذي جرى تهريبه الى الخارج يقدر بـ ٦٧٠ مليار دولار في حين يمكن لفوائض الاموال العربية ان تنهض بكل الاقطار العربية في اقل من عشر سنوات.

واخيراً من المفيد الاشارة الى الاستخلاصات التي توصل اليها سليم الحص في مداخلته «دروس اقتصادية في المتغيرات الدولية» التي القاها في ندوة عقدت بالقاهرة يوم ١٩٩٢/٢/٢٩ وهي:

١ ـ ان تحديد الهوية الاقتصادية لاي مجتمع تبدأ بتحديد هويته السياسية.

٢ ـ ان العصر الاقتصادي المقبل هو عصر التجمعات الاقتصادية العملاقة.

ثامناً ـ انتقال ظاهرة العسكرة من المراكز الى الاطراف

تابعت البشرية باهتمام عمليات الحد من سباق التسلح على ضوء الاتفاقيات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي ونهاية حلف وارشو وزوال خرافة الخطر السوفييتي اصبحت البشرية تتطلع الى عالم خال من السلاح النووي. ولكن الملاحظ ان البلدان النامية بدعم الولايات المتحدة تواصل نزعة العسكرة (استيراد وصنع السلاح) بشكل متسارع اكثر من اهتمامها بالتنمية. ولعل ابرز مظاهرها تجلت اثناء وبعد ازمة الخليج.

وبهذا الصدد يقول اريك لوران في كتابه «عاصفة الصحراء» (بيروت ١٩٩١ ص ٢٣٤) «كانت نتائج الاسلحة الاكثر اتقاناً تشهد تدفق المشترين الكثيرين على ابواب الشركات التي صنعتها، وسجلت هذا الشغف للباتريوت. وخلال السنوات الماضية كان المصنع قد باع بأكثر من ٧ مليارات دولار من هذا الصاروخ وبعد مرور بضعة ايام على بدء الحرب، تقدم السعوديون بطلب جديد لشراء ما قيمته ١,١ مليار دولار من هذا السلاح. كذلك فان ايطاليا وتركيا وبريطانيا هي في عداد المشترين، مما حدا بمدير احدى شركات السلاح هذه الى القول: كان الخليج يسجل فوز حرب النجوم».

وفي تقرير لاذاعة لندن (١٩٩٢/٢/١٥) اشار الى ان مبيعات الاسلحة ما بين الغزو

العراقي للكويت ٢/آب و٣١ كانون الاول ١٩٩١ بلغت ١٩ مليار دولار للشرق الاوسط فقط. وبين الحين والآخر يعلن البنتاغون عبر وسائل الاعلام عن صفقات جديدة للسلاح. ومؤخراً صرح الناطق باسم البنتاغون: لا تزال للولايات المتحدة قوات في المنطقة منها ٢٣ ألف عسكري و١٢ سفينة في البحر المتوسط و١٨ سفينة بما فيها حاملة الطائرات في الخليج وخليج عمان وشمال بحر العرب واربع سفن في البحر الاحمر. أما الطائرات فلم يحدد عددها بل حدد انواعها.

كما اعلن وزير الدفاع الامريكي ان الشرق الاوسط سيبقى منطقة ذات مصالح ستراتيجية للولايات المتحدة خلال القرن القادم.

لا يعني ذلك ان الدول الكبرى، خاصة دول الناتو، قد أوقفت التسلح. فالولايات المتحدة اخذت مؤخراً تروج لمفهوم النظام الدفاعي الجديد للحماية ضد الصواريخ من الفضاء المعروف باسم مبادرة الدفاع الستراتيجي «حرب النجوم» ويكلف هذا البرنامج خمسة مليارات دولار سنوياً.

وقد نشرت صحيفة النيويورك تايمز الامريكية في ١٩٩٢/٣/٨ وثيقة رسمية سربتها وزارة الدفاع الامريكية معنونة «دليل التخطيط الدفاعي للاعوام ١٩٩٢ ـ ١٩٩٤» اعدها خبراء عسكريون وسياسيون عن رؤيتهم لدور امريكا العالمي في مرحلة ما بعد الحرب الباردة وخلاصتها ان الولايات المتحدة اصبحت القوة العظمى الوحيدة في العالم ومن اجل ذلك ستعمل على منع اية قوة اخرى تسعى الى مناوأة هذه الزعامة، مستخدمة شتى الوسائل بما في ذلك القوة العسكرية. ولتنفيذ استراتيجية النظام العالمي هذه، رصدت ميزانية بمبلغ ١٢٠٠ مليار دولار.

ومن خلال كل ما مر ذكره يمكننا تحديد الاستخلاصات التالية عن متغيرات عالمنا المعاصر:

١ ـ بدأنا عصر يخوض فيه البشر تجربة جديدة تتسم بالسرعة والمفاجئة ولكن معالمها لازالت غير مستكملة.

٢ ـ ظاهرة النكسة والتراجع في مسيرة النضالات الثورية، ظاهرة مؤقتة. ولا يمكن ان يكون الخيار الرأسمالي بديلاً لتطور العالم المعاصر، لان هذا البديل في مأزق.

٣ ـ لا يمكن ان يستمر نظام القطب الواحد أو ما يسمى «الحقبة الامريكية». اذ لا بد من حالة للتوازن وربما من المناسب ان لا تكون هذه الحالة تكراراً للسابق القائم على اساس صيغة العدو بل بشكل سلمي.

والسؤال الحيوي: من أين ستأتي حالة التوازن؟ فهناك عدة احتمالات منها اوربا الغربية، المانيا الموحدة، اليابان، الصين وغيرها. إلا ان الجواب الدقيق ستحدده الحياة.

ان ما حدث ويحدث في عالمنا ليس نهاية المطاف، وليس نهاية التاريخ بل جزءاً من تطوره الحلزوني. فالاوضاع حبلى بتغييرات كمية ونوعية، والباب مفتوح على مصراعيه امام المفكرين والمحللين كيما يستطلعوا ابعاد هذا العصر، من حقنا ان نقول انه عصر التحولات والتغيرات العظيمة والتي رغم ما يبدو فيها وما تتحقق فعلاً من تراجعات ومفاجآت وقسوة، إلا انها سترسي اساس مرحلة هامة من تطور البشرية وهي تقترب من القرن الحادي والعشرين، مرحلة يكون مضمونها الاساسي، الانسان وقيمه الحرة والعادلة.

رسالة ماجستير حول النزاع بين العراق والكويت

أنجز في الربيع الماضي الدارس العراقي شاكر رحيم الياس رسالة الماجستير في العلوم السياسية بجامعة سان دييغو بالولايات المتحدة، وكان عنوانها: النزاع بين العراق والكويت: سياسة العراق تجاه الكويت بين ١٩٦١ ـ ١٩٩١.

ومما جاء في مقدمة الرسالة أن هدفها دراسة وتحليل هذا النزاع ومعرفة الأسباب الكامنة وراء سياسة العراق إزاء الكويت واحتلاله له. ودراسة هذا الاحتلال أمر هام لفرادته بعد الحرب العالمية الثانية من حيث احتلال دولة وضمها، وكذلك لتأثير الغزو على السياسة العالمية في مرحلة مابعد الحرب الباردة.

وتدرس الرسالة المسألة في فتراتها الثلاث ٦٠ ـ ٦٨ و٦٨ ـ ٨٩ و٩٠ ـ ٩١. وكرس الدارس أحد فصول رسالته للخلفية التاريخية.

وفي ختام المقدمة تمنى الدارس أن تساعد دراسته على تفسير أزمة الخليج، ومن ثم طبيعة النظام الحالي وسياساته.

اقالة الشورى*

الشيخ خليل عبد الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

مقدمة :

«الشورى» نظام مدني ، لانها وثيقة الصلة بسياسة الحكم ، وهي من امور الدنيا مثل : البيع والايجار والمزارعة والمغارسة والمساقاة وغيرها من المعاملات أو الانظمة المدنية التي قننتها الشريعة الاسلامية أما عن طريق الكتاب أو السنة وراعت أن تكون محدودة بقدر الضرورات التي حتمها واقع المسلمين زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . والحكمة في محدوديتها واضحة وهي فتح الباب امام المخاطبين بالشريعة للاجتهاد للوصول الى حلول لنوازل حياتهم التي تتجدد باستمرار وتتبدل بتطورات مجتمعاتهم ، ولدفع الحرج عنهم ، لانها لو الزمتهم بانظمة مدنية شاملة لكل النواحي لشكلت قيوداً عليهم وغلّت حركتهم وغدت سداً منيعاً يحول دون تقدمهم .

ولذا وجدنا المسلمين منذ عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اخذوا يبتكرون الحلول التي تناسب مشكلاتهم المستحدثة بعد انقطاع الوحي بانتقال الرسول عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الاعلى راضياً مرضياً ، وذلك بشحذ عقولهم وملكاتهم واستثمار

معلوماتهم واستخدام خبراتهم وتجاربهم. وهكذا فعل التابعون وتابعو التابعين ـ طيب الله ثراهم ـ خاصة اولئك الذين انتقلوا أو عاشوا في بيئات تغاير بيئة امة الوحي تمام المغايرة وتختلف عنها في اغلب الوجوه. وبمضي الزمن تعقدت الامور بصورة لم تكن في الحسبان ووجد المسلمون ان مقتضيات عصرهم والمستجدات التي يتوالى أو يتسارع ظهورها ووضعهم في المجتمع الدولي وعلاقاتهم بغيرهم من الامم، كلها، تحتم عليهم إما (إقالة) بعض الانظمة المدنية أو الالتفاف حولها بهذا التبرير أو ذاك، منها على سبيل المثال: «نظام الرقيق»، فالمسلمون اليوم جزء من المجتمع الدولي، وبذلك تحتّم عليهم أن يوقعوا على الاتفاقية الدولية التي حرمته، مع ان هذا النظام ورد في الكتاب والسنة. واذا فتحت أي موسوعة فقهية في أي مذهب نجد ان موضوع الرقيق يشغل حيزاً كبيراً منها، وتفصيلاً دقيقاً لشتى احكامه، «ونظام تقسيم الغنائم». فقد كان كل ذلك ملائماً لان المقاتل أو المحارب أو المجاهد هو الذي يقوم بتسليح نفسه واحضار فرسه. أما الآن فان الظروف تغيرت بعد ان وجدت القوات المسلحة التي تجهزها الدولة، كما ان الغنائم ليس في المقدور قسمتها على الجنود. فلا يُقتَسَم ما يُغنَم من طائرات ودبابات وصواريخ وسيارات مدرعة... الخ، كذلك «تحريم التصوير» الذي غدا مستحيلاً لضرورته لجوازات السفر وبطاقات الهوية وفي الاغراض الامنية والسياسية والاجتماعية والفنية الخ. ايضاً «تحريم سفر المرأة إلا مع ذي رحم محرم» فقد التفّ الفقهاء المحدثون حول هذا الحكم الصريح وافتوا بالجواز بمقولة ان السفر اصبح يستغرق ساعات محدودة وربما دقائق معدودة وان المرأة تكون في رفقة مأمونة في الطائرة أو السيارة أو السفينة. وبالمثل اختفت من حياتنا عدة انظمة مثل «الظهار» و«الملاعنة» أو «اللعان» و«الايلاء» و«شركة الوجوه».. الى غير ذلك من الامثلة.

اذن ليست كل الانظمة المدنية التي جاءت بها الشريعة قابلة للتطبيق على مر العصور ومع توالي التطورات التي لم تكن متوقعة وقت نزول الوحي.. وهنا نسارع الى التأكيد ان هذه التغيرات انما تشمل الفروع، أما الاصول والثوابت وهي العقيدة والعبادات والاخلاق فهذه ليست لبشر ان يغير منها حرفاً واحداً مهما تغيرت الظروف أو استحدثت من مستجدات. فعقيدة التوحيد ازلية ابدية والصلاة والصيام والحج لا سبيل الى التحلل منها أو الزيادة فيها أو النقص منها لاي سبب من الاسباب أو تحت أي مسمى منها. وليس الشأن كذلك بالنسبة للفروع أو «الانظمة المدنية». فهذه هي التي تكون عرضة للتبديل أو التغيير أو التجاوز الى ما هو افضل منها. والشورى ليست اصلاً من اصول الاسلام أو ثوابته، ومن ثم فاذا وجد المسلمون نظاماً جديداً يحقق مصالحهم ولا يتصادم مع الاصول أو الثوابت في شريعتهم فلا بأس من الاخذ به. ولا يقال في هذه الحالة ان هناك مساساً بالاسلام بل

هو في اعتقادنا تأكيد لشريعته التي ما أنزلت إلا لتحقيق مصالح العباد.

ولذلك عندما نادي اليوم انه قد آن الاوان لـ (نظام الشورى) المدني ان يستقيل ويحل محله (نظام الديمقراطية) الذي هو أنسب للظروف الراهنة لمجتمعات العرب والمسلمين اليوم، خاصة وان النظام الاخير لا يصادم أياً من (النصوص المقدسة) بل انه يتفق مع روحها لانه يحقق مصالح العباد التي عليها مدار الشريعة، عندما نادي بذلك فهذا النداء لا يعارض الشريعة وليس بدعة، اذ سبقت (الشورى) الى الاستقالة الانظمةُ التي ذكرناها. وقد يعترض احد فيقول: ولكن الشورى وردت في القرآن الكريم وطبقتها السنة العملية. والرد عليه ان بعضاً من تلك الانظمة التي ألمحنا اليها جاءت به نصوص من الكتاب أو السنة أو أفتي به وفصل احكامه فقهاء الامة الأثبات ومنهم شيوخ المذاهب الاربعة بل ودرجت الامة على العمل به مئات الاعوام.

(٢)

وحتى نقدم الاسانيد القوية لهذا الطلب (طلب اقالة نظام الشورى) فأول ما نبدأ به هو الكشف عن النشأة التاريخية أو الاصل التاريخي لـ (نظام الشورى): الشورى نظام عربي قديم عرفه وعمل به عرب ما قبل البعثة المحمدية في الجزيرة العربية بل واستقروا عليه آماداً طويلة ثم استعاره الاسلام منهم مثل كثير من الانظمة في كافة النواحي العقائدية، والتعبدية، والسياسية والاقتصادية، والعقابية والاجتماعية والحربية.. الخ[1].

كانت القبيلة العربية آنذاك هي الوحدة الاجتماعية والسياسية تتكون من رئيس يطلق عليه «السيد» أو «الشيخ» و«مجلس شورى القبيلة» الذي يضم كل فرد من افرادها الخلَّص أو الصرحاء النسب بلغ الاربعين، وتمتع بعقلية راجحة وعلى شيء أو درجة ملحوظة من اليسر المادي. وفي هذا المجلس يتشاور اعضاؤه في الشؤون التي تهم القبيلة بحرية تامة، وبصراحة مطلقة، ولكن آراءهم استشارية بحت غير ملزمة لـ (شيخ القبيلة)، فله ان يأخذ بها أو يطرحها جانباً. واذا انقسم المجلس على نفسه فمن حق (سيد القبيلة) ان يتبنى رأي الاغلبية أو رأي الاقلية أو يرفض الرأيين معاً ويستقر على ثالث يرى انه الاصوب والاصلح[2]. وللتدليل على ذلك نورد مثلين مما كان يجري لدى عرب قبل الاسلام:

أ ـ «لما اوقع كسرى ببني تميم «يوم الصفقة» اداروا امرهم وقال ذوو الحجا منهم: انكم قد اغضبتم الملك. ثم اجتمعوا الى سبعة منهم وشاوروهم في امرهم: اكثم بن صيفي الاسدي، والاعيمر بن يزيد المازني، وقيس بن عاصم المنقري، وامير بن عصمة التمىمي، والنعمان بن الحسحاس التيمي، وابين بن عمر السعدي والزبرقان بن بدر السعدي، وقالوا لهم ماذا ترون: فقال كل رجل منهم ما رأى. فلما سمع اكثم بن صيفي كلام النعمان قال هذا هو «الرأي»[3]. فهنا نجد ان أكثم بن صيفي اخذ برأي النعمان بن

الحسحاس التيمي وترك آراء الباقية .

ب ـ في يوم «الزوريرة» اخذ رئيس بكر بن وائل ، وهو عمرو بن قيس بن مسعود الشيباني ، برأي ابنه مفروق ، وترك رأي الآخرين وقال لقومه «قد استشرت مفروقاً فرأيته مخالفاً لكم ولست مخالفاً رأيه وما اشار به»[٤] .

وفي الحالتين أو المثلين لم يعقّب واحد من اعضاء مجلس شورى القبيلة على القرار الذي اتخذه «شيخ القبيلة» ، ولم يسأل احدهم أكتم بن صيفي لماذا وافق على رأي النعمان دون الستة الباقية ، ولا اعترض على عمرو الشيباني لانه فضل رأي ابنه مفروق على آرائهم وضرب بها عرض الحائط ، لان هذه هي مكونات نظام الشورى وطبيعته . إنما في جميع الاحوال يتحمل الشيخ مسؤولية القرار الذي ينتهي اليه أو الرأي الذي يتبناه . ولكن في حالة تعريض القبيلة لخطر من جرائه أو ايقاعها في مأزق يصبح هدفاً لاقصائه من قيادة القبيلة . وهذه الخاصية أو البذرة التي حايثت الشورى العربية ونعني بها «اللاالزامية» تساهم في تفسير الآية القرآنية الكريمة «وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله» ١٥٩ ، من سورة آل عمران . كما كان يساعد الشعر العربي ، السابق على ظهور الاسلام ، في تفسير كثير من الآيات ومعرفة العديد من الالفاظ التي جاءت في الكتاب العزيز ، فالخطاب في آخر الآية موجه الى الرسول عليه الصلاة والسلام أي اذا استقر رأيك على امر بعد مشاورة صحابتك ، فتوكل على الله واقضه . وهذا التفسير هو ما انتهى اليه التراثيون من المفسرين ، فقد جاء في تفسير مقاتل ابن سليمان (٨٠ هـ / ١٥٠ هـ) وهو من اقدم التفاسير : «فاذا عزمت يقول اذا فرق الله لك الامر بعد المشاورة فامض لامرك فتوكل على الله أي فثق بالله» .

جـ ـ كذلك ورد في تفسير القرطبي وهو من اشهر كتب التفسير «فاذا عزمت فتوكل على الله ، قال قتادة : امر الله تعالى نبيه عليه السلام اذا عزم على امر ان يمضي فيه ويتوكل على الله لا على مشاورتهم»[٦] .

هذا الفهم القديم لهذه الآية والذي يتفق مع كنه الشورى وجذرها التاريخي ومنشئها طبّقه عملاً كل من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولا عجب في ذلك فقد عاشا شطراً كبيراً من عمريهما في الفترة السابقة على الاسلام . وعرفا حقيقة الشورى . وسوف نورد فيما يأتي اربعة امثلة للتدليل على ذلك :

أ ـ انفذ ابو بكر رضي الله عنه (بعث) أسامة الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد جهزه ولكنه توفي قبل مسيرته . وكانت قبائل كثيرة قد بدأت في الانتفاض على دولة المدينة فور علمها بذلك «فشق ذلك على كبار المهاجرين الاولين ، ودخل على أبي بكر عمر وعثمان وأبو عبيدة وسعيد بن زيد رضي الله عنهم فقالوا : يا خليفة رسول الله ان العرب

قد انتفضت عليك من كل جانب وانك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدة لاهل الردة ترمي بهم في نحورهم، واخرى لا تأمن على اهل المدينة ان يغار عليها وفيها الذراري والنساء، ولو تأخرت لغزو الروم حتى يضرب الاسلام بجرانه، فيعود اهل الردة الى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف ثم تبعث اسامة حينئذ فنحن نأمن الروم أن تزحف الينا، فلما استوعب ابو بكر كلامهم قال: هل منكم احد يريد ان يقول شيئاً؟ قالوا، قد سمعت مقالتنا. فقال والذي نفسي بيده لو ظننت ان السباع تأكلني بالمدينة لانفذت هذا البعث»[7].

هنا نجد ان الخليفة الاول قد امضى رأيه رغم مشورة كبار الصحابة، ورغم خطورة الموقفين السياسي والحربي. انما قد يعترض احد فيقول: ان ابا بكر لم يكن ليسعه مخالفة الرسول محمد في تسيير كتيبة اسامة الى وجهتها خاصة وانه عليه السلام كان يشدد على انفاذ البعث حتى ابان مرضه الذي توفي فيه. ولكن ماذا يقول المعترض دفعاً للامثلة الثلاثة الباقية؟

ب ـ اصر الخليفة ابو بكر على محاربة القبائل الثائرة وعرفت هذه الحرب في كتب التاريخ الاسلامي بـ «حروب الردة» رغم اجماع الصحابة من المهاجرين والانصار (وهم ما يمكن ان نطلق عليهم مجلس الشورى بالنسبة اليه)، على مهادنتهم وقبول الصلاة منهم وترك الزكاة حتى يعز الله المسلمين ويتقووا على التصدي لهم «فجمع أبو بكر رضي الله عند المهاجرين والانصار وقال: ان هذا العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم.. فاشيروا علي، فما انا إلا رجل منكم واني أثقلكم حملاً لهذه البلية. فاطرقوا طويلاً، ثم تكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: أرى والله يا خليفة رسول الله ان تقبل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة فانهم حديثو عهد بالجاهلية لم يعدهم الاسلام، فاما ان يردهم الله الى خير واما ان يعز الله الاسلام فتقوى على قتالهم.. فالتفت الى عثمان رضي الله عنه فقال مثل ذلك. وقال علي رضي الله عنه مثل ذلك، وتابعهم المهاجرون. ثم التفت الى الانصار فتابعوهم فلما رأى ذلك صعد المنبر فحمد الله ثم أثنى عليه وقال:... والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اقبل معهم الشجر والمدر والجن والانس لجاهدتهم حتى تلحق روحي بالله ان الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة»[8].

أبو بكر في هذا الموقف رفض اجماع الصحابة من المهاجرين والانصار وصمم على مواجهة ثورة العرب في الجزيرة بحجة منع الزكاة، ولم يقبل ما عرضه عليه أكابر مستشاريه من ضرورة التريث حتى تتم الاستعدادات اللازمة وكان في مقدمة هؤلاء: الثلاثة الذين تولوا الخلافة من بعده: عمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم.

جـ ـ اشار الصحابة على ثاني الراشدين عمر بن الخطاب ان يقود بنفسه جيوش المسلمين في حربها مع الفرس ما خلا عبد الرحمن بن عوف الذي كان من رأيه بقاؤه في المدينة لان قتله أو هزيمته هو قتل أو هزيمة للمسلمين ودولتهم! «نادى في المهاجرين والانصار وخرج حتى اتى (صرار) وقدّم طلحة بن عبيد الله حتى يأتي (الاعوض) وسمى لميمنته عبد الرحمن بن عوف ولميسرته الزبير بن العوام رضي الله عنهم. واستخلف علياً رضي الله عنه على المدينة، واستشار الناس. فكلهم اشار عليه بالسير الى فارس ولم يكن استشار في الذي كان حتى نزل بـ (صرار). رجع طلحة فاستشار ذوي الرأي فكان طلحة ممن تابع الناس، وكان عبد الرحمن ممن نهاه فقال عبد الرحمن: ما فديت احداً بعد النبي صلى الله عليه وسلم قبل يومئذ ولا بعده فقلت بأبي وأمي اجعل عجزها بي واقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقبل أو يهزم في آنف الامر خشيت ان لا يكبر المسلمون وان لا يشهدوا ان لا اله إلا الله ابداً...»[9]. وانتهى الامر بعدول عمر عن قيادة الجيش أو الكتيبة الذاهبة الى فارس وأمّر سعد ابن مالك عليها. في هذا المثل يتضح ان عمراً اعرض عن اجماع الصحابة واخذ برأي واحد منهم هو عبد الرحمن بن عوف وبقي في المدينة وأوكل قيادة جند المسلمين الى غيره.

د ـ في المسألة المعروفة في كتب الاموال والخراج بـ «تقسيم ارض السواد» التي فُتحت عنوة، منها ما هو في مصر والشام، استشار الخليفة عمر الصحابة في امرها فانقسموا الى فريقين: الاول رأى ان تُجعل غنيمة، يظل الخمس منها ملكاً للدولة (وهو خمس الله ورسوله) وتقسم اربعة الاخماس على جنود الفتح. وضم هذا الفريق كلاً من بلال والزبير بن العوام وآخرين، والآخر، وكان على رأسه علي بن ابي طالب ومعاذ بن جبل، انتهى رأيه الى ان تُجعل فيئاً موقوفاً على المسلمين ما تناسلوا. وبه اخذ الخليفة الثاني مع ان الفريق الاول كانت حجته قوية، فالقرآن في صفهم كما ان الرسول عليه السلام طبق ذلك على ارض (خيبر) اذ انه قسمها فاحتفظ بـ «الخمس» وقسم اربعة الاخماس الباقية على من اشترك في الغزوة[10].

مثل هذه الامثلة الاربعة نجد فيها ان الخليفتين الراشدين ابا بكر وعمر رضي الله عنهما قد استشارا كبار الصحابة من المهاجرين والانصار عملاً بـ «نظام الشورى» العربي ثم الاسلامي. ولكن في المثلين الاولين رأينا ان ابا بكر تمسك برأيه رغم اجماع الصحابة على خلافه وكان على رأسهم عمر وعثمان وعلي. وفي المثال الثالث اخذ عمر برأي واحد من الصحابة (أو مجلس الشورى) هو عبد الرحمن بن عوف وترك اجماع الباقين على بكرة ابيهم. وفي المثل الرابع امضى عمر رأي الفريق الثاني مع ان القرآن والسنة لم يكونا

معه. ان فقه الحديمتين أبي بكر وعمر للشورى هو الفقه الذي اتفق مع التفسير الامثل والاصح للآية ١٥٩ من سورة آل عمران، واتسق تماماً مع الاصل العربي والمنشأ التاريخي لـ «نظام الشورى». ولعل هذا هو ما دفع اثنين من رموز الحركة الاسلامية في مصر الى التأكيد على «لا الزامية الشورى» للمحاكم وهما سيد قطب ومحمد متولي الشعراوي، يرى الاول «ان مهمة الشورى هو تقليب اوجه الرأي أو اختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فاذا انتهى الامر الى هذا الحد، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ»[11]. أما الشيخ الشعراوي فمن وجهة نظره «ان الشورى لا تلزم الحاكم الذي بايعته الامة الاسلامية بيعة ايمانية، لان الحاكم حين ينال بيعة الامة الاسلامية على اساس ديني يكون متحملاً للامر بأكمله مسؤولاً عنه امام الله وامام الرعية»[12].

(٣)

هناك قسم آخر من القبيلة العربية بخلاف القسم الاول الذي ذكرناه آنفاً والذي يتكون من الشيخ ومجلس الشورى (الملأ) أو النخبة. هذا القسم الأخر يسميه بعض الباحثين «القبيل»[13]. وهو ينضوي على باقي افراد القبيلة (الخلص أو الصرحاء) وهم عادة من الفقراء والمعوزين وذوي الفاقة ثم الموالي والمرتبطين بها بحلف أو الملصقين بها ثم الارقاء (العبيد). وهم اما عرب وقعوا في الاسر في احدى الغارات أو عجم جلبوا بالشراء الخ. هؤلاء جميعهم لا يؤبه لهم ولا يستشارون ولا يؤخذ رأيهم جماعات أو فرادى في شؤون القبيلة وينطبق عليهم قول الشاعر:

ويقضى الامر حين تغيب يتم ولا يستأذنون وهم شهود

مع انهم هم الذين يقومون بعملية الانتاج وهم عماد النشاط الاقتصادي ومن عرقهم كانت تتجمع ثروات السادة الغطاريف. وكانوا يعيشون حياة شظف وحرمان. فعندما نقرأ الكتب التي تحدثت عن «ايام العرب» قبل الاسلام نجد ان شيخ القبيلة عندما تتأزم الامور وتوشك ان تدور رحى المعارك أو تستجد أي مشكلة يشاور اعضاء مجلس شورى القبيلة بل ربما اخذ رأي شيخ واعضاء قبيلة اخرى تربطها رابطة نسب أو خلف أو جوار، ولكن بصورة قاطعة هو لا يستشير ولو فرداً واحداً من «القبيل». انه في مداولاته يقتصر على اعضاء المجلس (الملأ أو النخبة) فحسب أما «الارذال» فلا. والملأ كما عرفه الراغب الاصفهاني في «المفردات» هم الوجهاء الذين يملؤون النفس مهابة وجدالاً وهم الذين يتصدرون المجالس.

كذلك في كتب التاريخ التي ارخت لفترة الخلافة الراشدة نقرأ ان الشيخين (ابا بكر وعمر) رضي الله عنهما ـ وذلك على سبيل المثال ـ انما كانا يستشيران متقدمي الصحابة ومتنفذيهم من الانصار والمهاجرين وخاصة القريشيين منهم باعتبار ان «الائمة من قريش»

كما ورد في حديث معروف، على الرغم من وجود عشرات من متوسطي وصغار الصحابة، دعك من باقي افراد جمهور المسلمين الذين اطلقت عليهم كتب التاريخ ألقاباً توصفهم التوصيف الصحيح في مجتمعهم ذلك (مثل العامة أو السواد أو الرعية). فهؤلاء «الضعفاء أو المستضعفين» لم نقرأ ان خليفة راشداً أو غير راشد استشارهم أو حتى التفت اليهم أو شعر بوجودهم. ولا يقدح ذلك في عدالة الشيخين فعدالتهما ليست موضع شك أو جدل. ولكنه «نظام الشورى» في طبيعة تكوينه هو الذي دعاهما ان يفعلا ذلك وان يكتفيا باستشارة «الملأ» أو النخبة أو الصفوة.. الخ. فهذا النظام منذ نشأ وهو لا يحسب أي حساب لـ «القبيل» أو القاعدة الجماهيرية العريضة بالتعبير الحديث فما حدث منها في هذه الخصوصية انما جاء متناسقاً مع آليات نظام عاشا في ظله ردحاً طويلاً من حياتهما. ومن ثم يدركان تماماً ويعيان بعمق مكوناته ودقائق هويته مداخله ومخارجه.

هذا هو في رأينا الفرق الجوهري بين (الشورى) و(الديمقراطية) فالاول يقتصر على اخذ رأي «الملأ» أما «القبيل» فلا حساب له عنده ولا قيمة في حين ان الآخر يرتكز اساساً على رأي القاعدة الشعبية العريضة لا على (الايليت) أو النخبة أو الصفوة أو الملأ أو مجلس الشورى، فهو حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب. أما الشورى فهي «حكومة الملأ» ومن يناقض هذه الحقيقة تقف ضده الاصول التاريخية للشورى وطبيعتها ومكوناتها. وكذلك السوابق التي حفظتها لنا كتب الايام أو موسوعات الادب. هذا بالنسبة للفترة السابقة على ظهور الاسلام، وكتب التاريخ الاسلامي بالنسبة للخلفاء الراشدين ومن اتى من بعدهم.

يتأسس نظام الديمقراطية على الانتخاب من القاعدة الى القمة في حين ان نظام الشورى لا يعرفه ولم يعرفه طوال ماضيه. ولهذا ليس مصادفة اننا لم نقرأ في كتب التاريخ الاسلامي ان خليفة أو والياً تم تنصيبه عن طريق الانتخاب الحر المباشر الذي شاركت فيه جماهير المسلمين «السواد أو العامة أو الرعية».وليست «البيعة» انتخاباً بأي صورة من الصور. حتى «البيعة العامة» لا يمكن بحال من الاحوال ان توصف بذلك. فالبيعة الخاصة تقوم بها النخبة أو مجلس الشورى أو «اهل الحل والعقد» ثم يأتي دور البيعة العامة في المسجد الجامع في حاضرة الدولة وحدها. ويعتبر سكوت من حضرها رضاء، ويستحيل ان يقال ان من شهدها كان اهل العاصمة. وحتى اذا فرضنا ذلك، وهو فرض مستحيل الوقوع، فان جموع المسلمين في باقي المدن والاقاليم والبوادي لم يشهدوها. ومرة اخرى يُعد صمتهم موافقة ضمنية حتى دون عرضها عليهم. ولعله من الشطط البالغ النص على اهل ذلك العصر عدم اخذهم بمبدأ «الانتخاب المباشر»، ذلك ان موجبات ذلك العهد وآلياته ودرجة الوعي والحظ من المسيرة الحضارية، كلها كانت تمنع من الوصول الى

اختيار الحاكم أو الوالي بطريق الانتخاب الحر المباشر واشراك القاعدة الشعبية في تنصيبه.

اذن نظام الشورى كان ولا شك ملائماً لمجتمع معين له قسماته وظروفه التي تختلف اختلافاً كلياً عن مثيلاتها في مجتمعاتنا المعاصرة.

(٤)

وليس صحيحاً ما يدعيه البعض ان الشورى هي «الطبعة العربية أو الاسلامية» لـ «الديمقراطية» ذلك ان الاختلاف الجذري في كنه وطبيعة النظامين يؤكد لنا انه ادعاء فاسد. وكذلك وبنفس الدرجة القول ان «الديمقراطية هي الوسيلة العصرية للشورى»[١٤]، فهذا خلط للاوراق وتمييع للمفاهيم ولحدود التعريفات، ونحن نعاني في عالمنا العربي المعاصر من ذلك كثيراً، ولعله احد الامراض التي تصيب حياتنا الثقافية، مع ان اسلافنا قد افرغوا جهدهم في ضبط المصطلحات وتحديدها بدقة. نذكر على سبيل المثال «كتاب التعريفات» للجرجاني. وأول ما يقال دفعاً لهذه المقولة ان الديمقراطية سبقت الشورى بقرون عديدة. فكيف يقال عنها انها الوسيلة «العصرية» لها؟ هذا من جانب. ومن جانب آخر فان مقومات الشوري كما اوضحنا آنفاً انها لا تأبه للقاعدة الجماهيرية العريضة (أو القبيل عند عرب ما قبل الاسلام) والسواد أو العامة أو الرعية (في الاسلام) وكذلك «لا الزاميتها» للحاكم. فهو مطلق الحرية في الاخذ بها أو رفضها، في حين ان الديمقراطية تقوم على ركيزتين:

١ ـ الاعتماد على رأي الشعب لا النخبة أو الملأ أو مجلس الشورى أو أهل الحل والعقد.

٢ ـ الزام الحاكم بما ينتهي اليه رأي الجماهير أو الشعب أو المواطنين. فكيف تكون احداهما وسيلة للاخرى وهما على طرفي نقيض. يفسر لنا الجرجاني «الوسيلة» بانها «هي ما يُتقرب به الى الغير»[١٥]، فكيف يتقرب بالديمقراطية الى الشورى وهما متنافرتان وطبيعة احداهما تباين الاخرى جملة وتفصيلاً؟

ومقولة ثالثة ترى ان العبرة بالمعاني أو بالالفاظ وانه مادام القصد من النظامين هو تحقيق العدالة السياسية فانه من باب اولى ان نتمسك بـ «الشورى» لانها النظام الاصيل لدينا، وهذا مردود علينا بان الفرق بين الشورى والديمقراطية ليس هو الاختلاف اللفظي أو الشكلي بل هو اختلاف في المضمون والمحتوى والمشمول. وبداهة ان اطلاق اسم احد النظامين على الآخر لا يجعلهما متماثلين. أما التمسك بـ «الشورى» باعتبار انها اصيلة لدينا فهذا فهم سطحي لـ «الاصالة». ومن العجيب ان من سبقونا كانوا اوسع افقاً في فقه الاصالة منا، اذ انهم اخذوا من الثقافات والحضارات المعاصرة لهم كثيراً من الانظمة ولم

يجدوا في ذلك غضاضة ولا قدحاً في عروبتهم أو شرخاً لاسلامهم. ونذكر في مجال الامور السياسية والادارية انهم استعاروا من الفرس ـ وهذا على سبيل المثال ـ انظمة الدواوين والوزارة بنوعيها التنفيذية والتفويضية، ولاية العهد، وتنظيم البريد، وتقسيم الاراضي، وطريقة فرض الخراج، وبعض الضرائب الاخرى... الخ.

(٥)

باطل من كافة الوجوه ما يذهب اليه البعض من ان ما ورد في الآية ٣٨ من سورة الشورى «وأمرهم شورى بينهم» إلزام بالمشاورة التي تصل حتى الى افراد «القبيل» أو القاعدة الجماهيرية العريضة، فهذا الشطر من الآية الكريمة المذكورة جاء وصفاً لفريق من المؤمنين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقهم وهم الانصار. واليه ذهب عدد من المفسرين الاعلام منهم: محمد بن جزي الكلبي[16] وأبو القاسم جار الله الزمخشري[17] وأبو عبد الله القرطبي[18] وأبو البركات عبد الله النسفي، الذي اكد انها «نزلت في الانصار دعاهم الله عز وجل للايمان به وطاعته فاستجابوا له بان آمنوا به واطاعوه واقاموا الصلاة أي اتموها وامرهم شورى بينهم»[19]. هؤلاء الاربعة من اكابر المفسرين من ذوي الاتجاهات المختلفة ـ اقتصرنا عليهم حتى لا يطول البحث ـ اجمعوا على نزول هذه الآية في حق الانصار وانها نعتٌ لهم وثناء من تعالى عليهم. والانصار عندما كانوا يتشاورون فيما بينهم كانوا يجرون على سنة العرب السابقين على ظهور الاسلام.

ونزع جزء أو شطر آية من السياق العام للوصول الى حكم يتمناه المفسر لحاجة في نفس يعقوب، فهذا هو التفسير بالهوى المذموم من السلف والخلف[20]، ومن اهم اعراضه تجاهل «اسباب النزول» لانه من افسد الامور «تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها واسباب نزولها»[21]. ان التغاضي أو الاعراض عن مناسبة أو سبب نزول الآية المذكورة هو الذي انتهى بأصحاب ذلك التفسير المغرض الى حكم فاسد.

وحتى اذا قلنا ـ وذلك نزولاً على قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» التي لنا عليها اعتراضات وتحفظات لا مجال لذكرها هنا ـ ان الآية اشادة بالشورى، فهي الشورى التي عرفت وقت نزول القرآن وفي مجتمع الانصار، وسبق ان قدمنا ادانة الثبوت القاطعة على ان الشورى في مجتمع الجزيرة العربية ومنه مجتمع الانصار (الاوس والخروج) في يثرب (المدينة) ما كانت تطول القبيل أو بالتعبير الحديث: القاعدة الجماهيرية العريضة بل انحصرت في قلة محدودة هي «الملأ».

خلاصة القول اذن ان هذه الآية الكريمة هي وصف لحال الانصار ومدح لهم وهذا ما اكده المفسرون الاثبات. وحتى مع التسليم الجدلي البحت بصحة التفسير المغرض ذلك فانها تحبيذ أو انتداب للمشاورة أي الشورى التي درج عليها عرب الجزيرة وقت نزولها. وفي

كلتا الحالتين فان الاحتجاج بها لا يفيد رافعيها ولا ينال من المذهب الذي نتبناه. ولا يخرج بالشورى عن نظامها القديم الى نظام يريد البعض اسقاطه عليها.

(٦)

سبب اخير يدعم دعوتنا الى «اقالة الشورى» واحلال الديمقراطية محلها وهو الطغيان السياسي من قبل غالبية حكام العرب والمسلمين وبطاناتهم المتعددة الاشكال والذي هو من اخطر الامراض التي تضرب بجذورها لاعماق غائرة في جسد الشعب العربي وفي مقدمة اسباب ترديه في الوهدة التي يرسب في قاعها الآن. وهذا ما يكاد يجمع عليه الباحثون من سائر الاتجاهات والنزعات، وانه عندما يرتفع عن كاهل الشعب العربي «الاستبداد السياسي» بكافة اشكاله، عندها سوف يتلمس طريقه الصحيح الى النهضة والتقدم.

والتمسك بـ «الشورى» بحسبان انها النظام الاصيل، وبالمقابل الهجوم على «الديمقراطية» لانها دخيلة أو زنيمة أو مستوردة، يساعد على تجذير الطغيان السياسي وتكريسه واستشرائه واضفاء سند شرعي عليه، لانه يكفي ان يعين الحاكم بضعة اشخاص أو عشرات منهم يدينون له بالولاء أو الرغبة أو الرهبة لـ «مجلس شورى» لجلالته أو فخامته يستطلع رأيهم في امور الدولة ويستشيرهم فيها، ولا شك انهم يعرفون هواه في كل موضوع يعرض عليهم فيسارعون الى اصدار القرار الذي تقر به عينه، وحتى اذا تم اختيار «مجلس شورى» من رجال ذوي ضمائر حية - علماً بان السبيل الى ذلك مسدود - كما رأينا - فقد يضرب به عرض الحائط ويُمضي رأيه هو ويتوكل على الله. وهو في كلتا الصورتين قد طبق نظام الشورى بحذافيره. وبعد ان كان تحكمه أو طغيانه أو استبداده عارياً عن المشروعية، اذ به يجد السند الذي يخرس به معارضيه بل ويقطع ألسنتهم. ولذا فليس من باب المصادفة ان عدداً من الانظمة الحاكمة حكماً استبدادياً تشجع بعودة «الشورى» وشن الحملات الضارية على «الديمقراطية» ونعتها بأبشع الاوصاف وتُسقط القرارات الشاذة التي قد تكون صدرت في ظلها. وهذا عين ما تفعله وبذات الحماس والهمة الجماعات الفاشية التي ترفع شعارات دينية لاخفاء اهدافها السياسية الدنيوية.

وهكذا وبالادلة الدامغة التي قدمناها يثبت ان الدعوة الى «اقالة الشورى فضلاً عن انها تقوم على اسانيد صحيحة فانها الدعوة التي تتفق وحركة التاريخ الذي يستحيل ان يعود للخلف.

الهوامش :

(١) خليل عبد الكريم «الجذور التاريخية للشريعة الاسلامية» الطبعة الاولى ١٩٩٠ م القاهرة.
(٢) انظر في هذا المعنى على سبيل المثال:
أ ـ د. السيد عبد العزيز سالم «تاريخ العرب قبل الاسلام» الجزء الاول، ص ٣٦٢ الاسكندرية.
ب ـ د. حسن ابراهيم حسن «تاريخ الاسلام» الجزء الاول ـ ص ٥٢ ـ الطبعة السابعة ١٩٦٩ م ـ مكتبة النهضة العصرية ـ وقد نقل هذا الرأي عن ارنولد في كتابه «الدعوة الى الاسلام».
جـ ـ برهان الدين دلو «العرب قبل الاسلام» ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٧٠ الطبعة الاولى، بيروت.
د ـ د. يحيى الشامي «الشرك الجاهلي والهة العرب المعبودة قبل الاسلام» ص ١٦ الطبعة الاولى ١٩٨٦ م ـ دار الفكر اللبناني ـ بيروت.
(٣) محمد احمد جاد المولى بك وآخرون ـ في «ايام في الجاهلية» ص ٧٤ ـ د. ت دار احياء الكتب العربية بمصر.
(٤) المرجع ذاته ص ٢١٢.
(٥) مقاتل بن سليمان البلخي «تفسير مقاتل بن سليمان ـ ٨٠/ ١٥٠ هـ» ـ تحقيق د. عبد الله شحاته ـ الجزء الاول ـ ص ٢٠١ ـ د. ت ـ دار الشروق بمصر.
(٦) ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي «الجامع لاحكام القرآن» المجلد الثالث ص ١٤٩٥ د. ت كتاب الشعب ـ طبعة دار الريان للتراث بمصر.
(٧) اخرجه ابن عساكر (ج/١ ـ ص ١٢٠) نقلاً عن «حياة الصحابة» تأليف محمد يوسف الكاندهاري ـ الجزء الاول ص ٣١٤ ـ د. ت/د. ت.
(٨) اخرجه الطبري ج/٤ ص ٨٤ نقلاً عن المرجع السابق ص ٣٢٦.
(١٠) الامام ابو عبيد القاسم بن سلام «كتاب الاموال» ص ٧٥ تحقيق الشيخ محمد خليل الهراس طبعة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ـ مكتبة الكليات الازهرية بمصر.
(١١) سيد قطب «في ظلال القرآن» المجلد الاول ـ ص ٥١٢ الطبعة الشرعية الحادية عشر.
(١٢) محمد متولي الشعراوي «الشورى والتشريع في الاسلام» ص ١٧ ـ الطبعة الاولى، القاهرة.
(١٣) د. السيد عبد العزيز سالم «تاريخ العرب قبل الاسلام» ص ٣٦٣ مرجع سابق ولعل ابن خلدون هو السابق الى تسمية (القبيل) اذ ان له في «المقدمة» فصل بعنوان «في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصبية»، وفي القرآن الكريم (والملائكة قبيلاً) سورة الاسراء /٩٢ ـ فسرها الراغب في «المفردات بـ (جماعة جماعة).
(١٤) د. محمد سليم العوا ـ المحامي ـ «العرب والشورى بعد ازمة الخليج» مقال بـ «مجلة المستقبل» ص ٥١ ـ العدد /١٤٨ ـ يونيو ١٩٩١ م.
(١٥) علي محمد علي الجرجاني «كتاب التعريفات» حققه وقدم له ابراهيم الابياري ـ ص ٣٢٦ الطبعة الاولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

(١٦) في كتابه «التسهيل لعلوم التنزيل» ـ الجزء الرابع ـ ص ٢٢ ـ الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(١٧) في «الكتاب» ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٧٣ ـ د. ت دار المعرفة ـ بيروت.

(١٨) في «مختصر تفسير القرطبي» ص ٧٣٧ ـ الطبعة الاولى ١٩٧٧ القاهرة.

(١٩) في «تفسير النسفي» ـ المجلد الرابع ـ ص ١٠٩ د. ت ـ دار احياء الكتب العربية.

(٢٠) د. محمد حسن الذهبي «التفسير والمفسرون» ـ الجزء الاول ـ ص ٢٥٤، مصر.

(٢١) ابو الحسن الواحدي النيسابوري ـ ٤٦٨ هـ «أسباب النزول» ص ٤ ـ طبعة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م ـ الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ـ بالقاهرة.

* عن «دراسات اشتراكية» دمشق، شباط ١٩٩٢

بيرى نوى ـ الفكر الجديد

مجلة سياسية ثقافية عامة

تصدرها منظمة اقليم كردستان للحزب الشيوعي العراقي

(عدد ١٧ السنة السابعة حزيران ١٩٩٢)

17

ويحتوي العدد على المواد التالية:

«الفكر الجديد منبر للديمقراطية» .... الافتتاحية

«أي حزب نريد؟» .... هادي محمود

«ملاحظات حول النظام الداخلي في الحزب الشيوعي في كردستان العراق» .... قاسم

«نحو تجديد اقليم كردستان» .... ب. ساوين

«هل افلتت الاشتراكية من أيدينا؟» .... ترجمة: هـ. سيدا

«فصل من كتاب مقدمات نظرية لدراسة عمل الفكر الاشتراكي في الحركة التحررية الوطنية» .... مهدي عامل

ترجمة: مهدي محمود

نينا اندرييفا في حديث خاص لجريدة (نضال الشعب) ... ترجمة: ك. ش

«لينين والقاموس» .... ترجمة: موكريان

«مراجعة سياسية لقانونية المسألة الكردية في العراق» . المحامي آزاد حمد امين

هذا ويحتوي العدد على عدة مواد ابداعية في باب «ادب وفن». وفيه أيضاً وثائق وبيانات عديدة.

شيوعيو روسيا: الهموم والآفاق

الرفيق فكتور انبيلوف عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العمالي الروسي وسكرتير لجنة موسكو للحزب الذي ولد مؤخراً. رفيقنا ابو برافدا بادر الى اجراء مقابلة معه لتعريف قراء مجلتنا بهذا الحزب من حيث الفكر والممارسة. لكن من هو هذا القائد الشيوعي الجديد؟

- ولد عام ١٩٤٦ في محافظة كراسندار لعائلة روسية عمالية - فلاحية كادحة.
- درس في ثانوية مهنية ثم امضى ثلاثة اعوام في الجيش حيث درس الانكليزية والاسبانية.
- بعد تسريحه درس الصحافة في جامعة موسكو، وفيها نال عضوية الحزب الشيوعي عام ١٩٧٢.
- بعد التخرج عمل في كوبا ثم عمل في اذاعة موسكو التي اوفدته الى نيكاراغوا:
- اشتهر برسالته المفتوحة الى غورباتشوف يوم كان قائداً للحزب الشيوعي. وقد ذيل الرسالة برقم بطاقته الحزبية: ١٢٠١٢٠.
- قبل بضعة اعوام استقال من الاذاعة ليتفرغ لتحرير جريدة «البيرق» الناطقة بلسان جماعة «المبادرة الشيوعية».
- ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي العمالي الروسي، وانتخبه المؤتمر التأسيسي عضواً في اللجنة المركزية.

■ في البدء احييك، باسم مجلة الثقافة الجديدة، آملاً ان يكون لقاؤنا هذا مثمراً لتغطية الكثير من الامور المهمة، والمعقدة، وغير الواضحة بخصوص ما حدث ويحدث في الساحة السوفييتية أو الروسية الآن.

لنبدأ بالمحور الاول: كيف تنظرون الى ما جرى في الاتحاد السوفييتي سابقاً؟ وما هي تقييماتكم، واستنتاجاتكم بصدد الاحداث المأساوية التي جرت في بلادكم؟

في البداية، اود ان احيي مجلة الثقافة الجديدة ومحرريها وقراءها. وانا ارى في مثل هذه اللقاءات ولادة علاقات جديدة بين شيوعيي العالم، رغم الظروف الصعبة والمعقدة التي نمر بها علينا واجب اعادة انبعاث الامية الشيوعية الحقيقية. واسمحوا لي، ان احيي نضال الشيوعيين العراقيين، الذين يخوضون نضالاً شجاعاً ضد الدكتاتورية.

أما ما يتعلق بسؤالكم، فمن وجهة نظرنا، بدأ الابتعاد عن المبادىء الاشتراكية منذ مرحلة خرتشوف، في بداية الستينات، حين جرى اغفال مصالح الطبقة العاملة، والفلاحين والشغيلة، وتركزت السياسة الاقتصادية لا على تلبية حاجات الكادحين (بناء المساكن ـ انتاج الملابس ـ بناء المدارس.. الخ) وإنما للحصول على الارباح. والحصول على الارباح من ميزات الرأسمالية. أما الكادحون فلا يحتاجون الى الارباح! الكادح يحتاج الى المسكن الجيد، والى تأهيل اطفاله. يحتاج الى عمل، والى رعاية صحية. هذا ما يحتاجه الانسان الطبيعي. ان الابتعاد عن المبادىء الاقتصادية الاشتراكية ادى الى تحول فكري جعل نخبة من المثقفين المحليين هنا في الاتحاد السوفييتي اولاً، بمن فيهم العناصر القيادية للحزب الشيوعي السوفييتي، كذلك قسم من الدبلوماسيين، والناس اصحاب الاجور العالية، تسيطر على زمام الامور في داخل الحزب.

بعد وصول غورباتشوف الى قيادة الحزب عام ١٩٨٥، اخذت الرجعية الداخلية، تلتقي ـ في مرحلة معينة ـ بالرجعية الاجنبية، وبالذات الامبريالية الامريكية التي كان هدفها القضاء على الاتحاد السوفييتي وتقسيمه الى عدة دويلات، وتأجيج الصراع القومي. اليوم نرى ان الامبريالية العالمية ـ وبفضل خيانة غورباتشوف وياكوفليف وشفرنادزة بدأت تحقق سياستها ـ فرق تسد ـ في الاتحاد السوفييتي ،أو سابقاً كما يسمونه حالياً. البلاد مهددة بالتحول الى مستعمرة، وليست الى رأسمالية فقط. كما انه لم تجر أية اصلاحات تقدمية لصالح المجتمع كما يقال. الآن بدأت العودة الى الاقطاعية في آسيا الوسطى عندما لم تكن المرأة تمتلك أي حق. وهناك حالات النزاع القومي الوحشي في القفقاس، وكذلك الصراع بين الشعبين الشقيقين الروسي والاوكراني. بمعنى آخر تدفع شعوبنا اليوم ثمن

العـودة من الاشتـراكية الى الـرأسمالية، وهذا الثمن لا يمكن ان يكون بدون دماء. ان شعـوبنـا، وانـاسنـا البسطاء مضطرون اليوم لدفع مثل هذا الثمن نتيجة هذه السياسات الخيانية. بالمقابل هناك قلة من الناس اخذوا يغتنون، ويعملون ويساهمون في الشركات الاجنبية برأسمال غربي أو ثروات طبيعية سوفييتية.

■ اذن ما هي حقيقة الاحداث التي جرت في آب الماضي. والتي سميت بالانقلاب؟

ماذا حدث في آب الماضي؟ المتتبع لتطور الاحداث في الاتحاد السوفييتي يعرف انـه مع بداية تحـطيم المبـادىء والقيم الاشتـراكية للمجتمـع السـوفييتي، ومع الحملة المسعـورة المعـادية للشيوعية في وكـالات الاعـلام، والصحف والتلفزيون، بدأت في الظهور حقيقة اخرى، هي السعي لتمريغ سمعة الجيش السوفييتي في الوحل، ومحاولة تحطيمه. على سبيل المثال ظهرت وثيقة الآن تؤكد ان غورباتشوف، قبل وقت قليل من الاحـداث كان قد وقع اتفاقية لتحطيم اقوى مجموعة صواريخ سوفييتية (آكا) وهي اكثر تطوراً من الصـواريخ عابـرة القـارات، وتتميز بالـدقـة العالية، والكلفة الواطئة، وتفوق الصواريخ الامريكية تكنولوجياً، ومن حيث الدقة ايضاً ان ذلك يعتبر خيانة عسكرية للوطن والشعب، حيث كانت تتم عملية نزع السلاح من الجيش السوفييتي باملاء من الحلف الاطلسي، وامريكا. لقد ارادوا توسيخ صورة ووجه الجيش السوفييتي، وخاصة في احداث البلطيق. اخـذوا يصـورون الجندي السوفييتي، كالجندي الالماني المحتل ايام الحرب العالمية الثـانية. جيشنا كان محـرراً لا غازياً، وان وضـع علامـة المساواة بين الجندي الفاشي والجنـدي السوفييتي، كانت من ابشع الاكاذيب التي فرضتها الدعاية، ووسائل الاعلام المحلية على الشعب اثنـاء البـريسترويكا. وبعد نشر هذه الدعاية تم اختبار تأثير وجود الجيش على الشعب في ليتوانيا، عندما نفى الكرملين اصداره قراراً باخراج الدبابات الى الشـوارع. السكـان استقبلوا الـدبـابـات باستياء شديد، والجنود انفسهم لم يعرفوا ماذا يفعلون؟ وقبـل خمسـة اشهر من آب ١٩٩١) أي في آذار، عندما ظهرت الدبابات في موسكو اثناء اجتماع مجلس سوفييت روسيا. كانت كل الدلائل تشير الى ان المواطنين لم يقبلوا بوجود الجيش في الشوارع والجنود انفسهم لم يريدوا الحرب مع الشعب.

وبـالـرغم من ان القيادة الجـديدة اصدرت في آب الماضي بيانـاً صائباً وصحيحاً لمحاولة انقاذ الوطن والشعب السوفييتي، إلا انها ـ أي القيادة الجديدة ـ كانت على صلة باوسـاط قيادية اخـرى ـ فمن هو الـذي سمـح باعـلان حالة الطوارىء ودخول الجيش والدبابات الى الشوارع وكأن الحرب قد اعلنت؟ لقد كان هذا القرار جريمة. كانت هناك اوساط يهمها اسالة الدماء في شوارع موسكو، وعلى اساس ذلك حققوا اهدافهم القذرة.

وليس من باب الصدفة انه قبل سنة بالضبط من آب ١٩٩١ انتشرت شائعات مفادها ان الدبابات تسحق الناس بجنازيرها عند البيت الابيض الروسي، وحقيقة الامر هي مقتل ثلاثة اشخاص في الممر تحت شارع «كالينسكي» عندما نصب «الديمقراطيون» كميناً ـ وحاول سائق الدبابة الخروج من هذا الكمين، وفي اثناء حركة الآلية اصطدمت بهؤلاء الثلاثة مما ادى الى مصرعهم. ولدينا معلومات مؤكدة بان «الديمقراطيين» اطلقوا النار من الخلف وقتلوا عدة اشخاص ثم نقلوهم الى مكان مجهول، ولم يتحدث احد عنهم بشيء.

أنا اريد ان اقول ان قرار نزول الجيش الى الشوارع هو فقط من اجل ان يمتعض الشعب، فمن هو المستفيد من هذه العملية؟ هذا السؤال يطرح الآن من قبل حزبنا ونطالب بمحاكمة علنية بحضور الهيئات الدولية ووكالات الانباء والصحف والدبلوماسيين. هناك حقيقة واضحة هي ان غورباتشوف هو الذي اصدر هذا القرار، ويلتسن على علم بذلك. أما ما صرح به غورباتشوف عن قطع الاتصالات السلكية واللاسلكية معه فهذا غير صحيح، لان كل رئيس يمتلك منظومة اتصالية فضائية، هذا اولاً، وثانياً لدينا الآن وثيقة تؤكد ان غورباتشوف كان يستطيع الاتصال من بيت الراحة الذي كان فيه بأي تلفون داخل موسكو، خلال فترة الاحداث. أما بقية السيناريو فهو كالتالي: اذا تم اسقاط يلتسن فسوف يقول غورباتشوف: انا شيوعي! أما اذا لم يسقط ـ وهذا ما حدث ـ فسيمكنه ذلك من القول ـ أنا ضد الشيوعيين لانهم عرقلوا خطي السياسي. وبالفعل عانق غورباتشوف يلتسن واصدر امراً باعتقال الجنرال فوينكوف وهو من ابطال الحرب العالمية الثانية وحمل راية النصر من برلين الى موسكو بتكليف شخصي من المارشال جوكوف. كما انه كان مسؤولاً عن عملية سحب القوات السوفييتية من افغانستان. نحن نرى ان وجود مثل هؤلاء الناس في السجن جريمة، كذلك وجود رئيس اتحاد الفلاحين فاسيلي سترودوبسوف في السجن جريمة ايضاً. ونحن لا نطالب بمحاكمة علنية فقط، بل وبالافراج عنهم ايضاً.

ان ماحدث في آب ١٩٩١ كان مجرد مسرحية رخيصة، وبدأ الشعب الآن يدرك هذه الحقيقة. معذرة للاجابة الطويلة على هذا السؤال وسأكتفي بايراد مثل آخر لكي تكون الصورة واضحة لقرائكم. فقد اشتركنا منذ عدة ايام في تشييع جنازة احد القوزاق. فقد استشهد في مدينة (دوباسارة) في ملدافيا، حيث كان يقاتل الغزاة الرومان والمولدافيين! كان سابقاً في صفوف «الديمقراطيين» عندما دافعوا عن البيت الابيض في آب ١٩٩١ ثم استشهد مقاتلاً في صفوف الشيوعيين الروس في ملدافيا. نحن نعتبر الدفاع عن هذه المدن، انما هو دفاع عن السلطة السوفييتية ووحدة البلاد، ووحدة الشعوب، ومثل هذه الامثلة تزداد يومياً. ان كل ما حدث في آب الماضي ما هو إلا نتيجة لمؤامرة امبريالية، ولنشاط المخابرات الاجنبية المعادية!!

■ لا يسعني الاتفاق معكم بان نعزو كل ما حدث في الاتحاد السوفييتي سابقاً الى المؤامرة الامبريالية الامريكية، والى نشاط المخابرات الاجنبية المعادية. ما هي برأيكم الاخطاء التي ارتكبها الحزب، وخاصة قيادته، وما هو دور غورباتشوف بالذات؟ وهل هناك نظرة نقدية لمراجعة كل هذه الامور؟

ان الخطأ الاول الذي ارتكبه الحزب، هو انه اخذ بالابتعاد عن قاعدته الاجتماعية، فقد بدأ بالسير على طريق حزب لكل الشعب، وليس كما قال لينين حزب الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين. كما تم فتح باب الدخول للحزب على مصراعيه، فولجته العناصر الوصولية التي حلمت بالعيش السعيد من خلال الحزب، وليس الناس الذين يعملون من اجل مصالح الشعب.

من الاخطاء المهمة ايضاً اغفال المسألة القومية، فقد كان يجري الحديث وبشكل طبيعي في تلك المرحلة عن مصالح الشعوب الاخرى كالاذربيجانيين، واللاتفيين، والجورجيين، بينما يكون الحديث عن مصالح الشعب الروسي بشيء من الاستهانة، ولهذا يمكن القول ان الشعب الروسي كان مضطهداً اكثر من غيره ويمكن الاستشهاد باحصائية قدمها غورباتشوف نفسه، حيث اشار الى ان نسبة اليهود الى مجموع سكان أ. س ٦٩, ٠٪، ولكن ٢٠٪ منهم يعملون في مجال الثقافة والاعلام، و٣٠٪ في مجال الطب، وفي جهاز الدولة. وهذا يعني ان الاهتمام بالقوميات الصغيرة جرى على حساب مصالح القوميات الكبيرة.

أما الخطأ الكبير والرئيسي الذي وقع فيه الحزب، هو في الجانب الاقتصادي والذي يكمن في الابتعاد عن المبادىء الاشتراكية في الاقتصاد والتخطيط التي تؤكد على ضرورة توفير متطلبات الانسان، وعندما بدأنا نبحث عن الارباح اخذ اقتصادنا يتمزق.

ان سياسة المغامرة بالاقتصاد الوطني التي طبقها خروتشوف، تلقفها غورباتشوف نفسه، وطبقها في الحياة السياسية كذلك، مدعوماً بتأييد كامل من اصدقائه، اصحاب مدرسة (اقتصاد السوق)، وفي هذه اللحظة بالذات تبدأ جريمة غورباتشوف المتمثلة في العودة الى العلاقات الرأسمالية. في البداية كان يكثر من تصريحاته، حول تطوير الاشتراكية، بل ان بعض هذه التصريحات كانت ترتدي طابع المغامرة، مثل مضاعفة القدرة الانتاجية مرتين خلال (١٥) سنة، واللحاق باليابان، وسبقها في انتاج السيارات.

اذن خطأ الحزب الكبير يكمن في ان الحزب صبر على قيادة غورباتشوف حتى آخر لحظة. في اجتماع ابريل ١٩٩١ طرحت قضية سحب الثقة عنه. وعندما بدأت عملية التصويت لادخالها في جدول اعمال الاجتماع، لم يوافق عليها سوى (١٦) عضواً من اعضاء اللجنة المركزية الثلاثمائة. هذا يعني ان الحزب خان نفسه كما قال ماركس. ومن

اجل عدم تكرار هذا الخطأ الجسيم في المستقبل نرى من الضروري وضع القيادة الحزبية تحت رقابة الجماهير الحزبية. هذا اولاً، وثانياً من الضروري كذلك تبديل القيادات بشكل مستمر، وان يعيش القادة حياة متواضعة ثالثاً.

■ متى بدأ الاتجاه المضاد داخل الحزب لقيادة وسياسة غورباتشوف؟

ازداد التوتر داخل الحزب عقب وفاة ستالين، الذي كان على خطأ حينما قال ان الاشتراكية انتصرت في بلادنا بشكل نهائي، وان العودة الى الرأسمالية مستحيلة. صحيح اننا ارتكبنا اخطاء كثيرة في زمن ستالين، لكنها كانت مرتبطة بالظروف الصعبة التي مرت بها البلاد، وفي عهد غورباتشوف أعيد الاعتبار لجميع اعداء السلطة السوفييتية، وتمت ادانة جميع الذين ساهموا في بناء الاشتراكية. ومن ادانة ستالين انتقلوا الى ادانة لينين الامر الذي ادى الى تقوية مواقع الاعداء. نحن نقول ان الماضي لا يمكن الشطب عليه كلياً، بل من الضروري استخلاص العبر والدروس منه.

في اواخر شتاء ١٩٩٠ ظهرت حركة معارضة شديدة ضد الخط السياسي لغورباتشوف. وتمثلت في تكوين حركة المبادرة الشيوعية التي استقطبت الكادر الوسطي، وحتى الهيئات الحزبية الدنيا. عقد المؤتمر الاول للمبادرة في تشرين الثاني عام ١٩٩٠، ثم تلاه المؤتمر الثاني في حزيران واخيراً تحولت هذه الحركة الى حزب هو الحزب الشيوعي العمالي الروسي.

■ كيف تفكرون بصدد الاخطاء الجسيمة التي ارتكبت؟ وهل هي في النظرية، أم في التطبيق؟ أم في كليهما؟

الحقيقة ان الاخطاء كانت في النظرية والتطبيق معاً، ومن هذه الاخطاء ان الاجهزة الحزبية حلّت محل الاجهزة الادارية في الاقتصاد والزراعة. كذلك سيطرة الحزب وقيادته لجميع المنظمات الديمقراطية: النسائية، والشبابية... الخ، فلم تكن منظمات مستقلة، وهذا كان لمصلحة البيروقراطيين داخل الحزب الذين تحولوا اليوم الى اصحاب المؤسسات التجارية. ان الملكية يجب ان تكون دائماً للشعب ولمصلحته، والانحراف عن هذا المبدأ سبب نشوب النزاعات القومية، مثلما حدث، ويحدث الآن.

■ كيف تفسرون سكوت الناس لحد الآن، رغم الارتفاع الجنوني للاسعار، وتدهور المستوى المعاشي للجماهير الى ابعد الحدود، وانتشار المافيات المتنوعة، وخاصة الاقتصادية منها، وزيادة نسبة الجريمة حسب الاحصائيات الروسية الرسمية؟

انتشار المضاربة في بلادنا يخدم النظام الحاكم الذي يحاول ايجاد القوة الداخلية المساندة له، بالاضافة الى الدعم الخارجي المعروف. ان الطبقة الطفيلية ـ التي هي في طور التكوين ـ يريد النظام ان يعتمد عليها كقاعدة اجتماعية. لماذا الشعب ساكت؟ انا اقول انه غير ساكت كلياً، فعلى سبيل المثال ما يجري في مدينة كالينين (سابقاً) فهناك اضراب الفلاحين. وفي لنينغراد اضرابات المعلمين والاطباء وفي موسكو كذلك.

نواجه صعوبة في نشر افكارنا في المصانع الكبيرة، لان يلتسن اصدر قراراً بمنع كافة انواع النشاط السياسي فيها، كذلك احتكار وسائل الاعلام من قبل القوى التي وصلت الى السلطة في بلادنا.

ان الاعلام مكرس للسلطة، وليست هناك أية ديمقراطية فيه، حيث يجري تشويه الافكار الشيوعية والاشتراكية، والقاء تبعة كل ما يجري في البلاد حالياً على النظام الشيوعي، الامر الذي يساعد على تضليل عدد كبير من الناس البسطاء.

ثمة سبب آخر لسكوت شعبنا. وهو جزء من طبيعته وتكوينه التاريخي. هو صبره واستعداده للتحمل فترة طويلة، ولكن عندما يبلغ السيل الزبى، كما يقول المثل، سوف ينهض شعبنا، ومن وجهة نظرنا، نحن الآن قريبون من هذه الحالة. واذا اعتمدنا المقارنة في التصويت والاستفتاءات الشعبية، نرى ان الاغلبية صوتت سابقاً الى جانب يلتسن. أما الآن فالوضع تغير كثيراً، واكثر ما يلاحظ ذلك عند العمال والمثقفين.

■ يلاحظ ان القوى الشيوعية مشتتة في مواقعها السياسية، وفي عملها لمجابهة ما يحدث، فهل هناك امكانية لتوحيد وتنظيم حزب شيوعي روسي موحد؟ واذا لم تتوفر مثل هذه الامكانية، فما هي اسباب ذلك؟ وما هو برأيكم الحل المناسب لتوحيد هذه القوى؟

في البداية اريد التأكيد على وجوب تحديد من هو الشيوعي. التوحيد من اجل التوحيد سيحولنا الى نادٍ للثرثرة من جديد. نحن نحدد هوية الشيوعي بمسألتين مهمتين هما ١ ـ موقفه من الملكية. ٢ ـ موقفه من السلطة. فنحن مثلاً لا نعترف بالملكية الخاصة، ولا باستغلال الانسان للانسان مهما كان شكل هذا الاستغلال. كما نرى ان السلطة يجب ان تكون بيد مجالس جماعات الشغيلة التي تضم العمال والفلاحين والمثقفين بنسب معقولة من وجهتي النظر الاجتماعية والقومية، والمحافظة عليها رغم صعوبة ذلك، لكنه يجب السعي اليها لان مخالفة هذا المبدأ تؤدي الى التوتر في المجتمع. وبعد تحديد من هو الشيوعي، نحن مستعدون للوحدة. ان الشيوعي الحقيقي يجب ان يقرن اقواله بأفعاله. وبالمناسبة اليوم عدت من لينينغراد، حيث عقدنا اجتماع

اللجنة المركزية الذي نوقشت فيه هذه المسألة بالذات. كما اريد ان اقول لكم انه تجري وبالترافق مع مضايقات وزارة العدل لحزبنا محاولات اعادة تشكيل الحزب الشيوعي السوفييتي من وراء ظهورنا، وتبذل مساعٍ محموحة لاعادة تشكيل ل.م للحزب الشيوعي السوفييتي، وعقد المؤتمر بمعزل عن حزبنا. في اجتماع البارحة خرجنا باستنتاجات تؤكد على ضرورة صياغة بيان لجميع الشيوعيين الروس، والذي سندعو فيه الى وحدة جميع الشيوعيين تحت راية الحزب الشيوعي العمالي الروسي! نحن نرى ان هناك عدة تيارات تنادي بالشيوعية، ولكننا نعتقد انه يوجد حزبان اساسيان هما حزبنا (وهو الاكثر عدداً) والحزب البلشفي الروسي. وفي رأيي توجد نزاعات شخصية تعرقل عملية توحيد الحزبين، رغم انه لا توجد بيننا خلافات جوهرية! وسوف نستطيع التوحيد عندما نجسد اقوالنا بأفعال ملموسة.

■ **ما هي وجهة نظركم حول النظام العالمي الجديد، وسيطرة القطب الواحد في ميدان العلاقات الدولية؟ اعني سيطرة القطب الامريكي.**

عندما اعلن غورباتشوف البدء في اعادة بناء الاشتراكية عندنا وبتوجيه من ريغن كان يتكلم كثيراً عن تعدد انماط التطور العالمي بما فيها النمط الاشتراكي. ولكن الحقيقة اظهرت ان الطريق الذي سلكه هو طريق امريكا. وستؤدي هذه السياسة الى نهب ثروات الاتحاد السوفييتي، وكذلك ثروات اصدقائنا في العالم الثالث، وسيعود العالم الى النظام الكولنيالي، تحت الاشراف الامريكي. ولكني اعتقد ان هذه الحالة سوف لن تستمر طويلاً. فالشعوب لا يمكن ان تعود الى الوراء، الى عهود العبودية، وهي تطمح في نضالها للتخلص من كل اشكال العسف والاستغلال.

مسألة اخرى اريد التأكيد عليها، هي التدهور الكبير الذي حصل في المستوى الثقافي الروسي. وتجري عملية ابادة لثقافتنا وحضارتنا الروسية. والملاحظ انه في بداية ما سمي باعادة البناء، ايد الفنانون والمثقفون هذه السياسة، لكنهم الآن لا يستطيعون الوصول الى شاشات السينما والتلفزيون التي امتلأت بالافكار الامريكية الرخيصة.

الحزب الجديد

■ **ها قد انتقلنا الى المحور الثاني الذي يتعلق بحزبكم.. كيف تجري عمليات التجديد داخل الحزب في الشكل والممارسة، الديمقراطية الحزبية؟**

يمكن انقاذ الحزب عن طريق الديمقراطية الحقيقية وليس الديمقراطية الثرثارة. ان الحزب بحاجة الى الديمقراطية مثل حاجة الانسان للهواء. وان قضية الديمقراطية الحزبية

وممارستها تثبت في النظام الداخلي للحزب الذي اقر في المؤتمر التأسيسي لحزبنا في العام الماضي. يؤكد النظام الداخلي على رقابة العمال لنشاط قيادة الحزب وعناصره القيادية. كما نرى من الضروري تطبيق مبدأ لينين القائل بضرورة ان يكون لكل عامل وفلاح ومثقف غير حزبي امكانية لمراقبة نشاط الحزب واجهزته القيادية، وبكلمة اخرى اعني ان الشيوعيين يجب ان يكونوا تحت رقابة الجماهير اللاحزبية. ولو كانت لدينا ديمقراطية ورقابة مثل هذه لما حدثت مأساة في حزبنا الشيوعي السوفييتي.

من خلال ممارستنا للديمقراطية الحزبية نستطيع غربلة الحزب من كثير من العناصر الوصولية، نحن الآن لا ننظر الى الكمية، لا نحتاج الى حزب كثير العدد بل الى نوعية الحزب واعضائه، اننا كأحزاب شيوعية نحتاج الى قاعدة جماهيرية واسعة. فمثلاً لدينا الآن في مدينة موسكو خمسة آلاف عضو شيوعي لكننا جمعنا في مظاهراتنا من (٢٠٠ - ٣٠٠) ألف شخص. حتى في المظاهرة الاخيرة بمناسبة عيد النصر على النازية، رغم كونها سياسية بحتة جمعنا (١٠٠) ألف متظاهر.

■ وبالمناسبة كم هو عدد اعضاء الحزب، ان امكن التصريح بذلك؟

مائة وعشرون ألف عضو. أقول مرة اخرى لا نريد ان يكون حزبنا حزب الملايين كالسابق. نريد قاعدة جماهيرية واسعة لا حزبية، وهذا يتحقق عبر تبنينا لمصالح الجماهير الشعبية الكادحة الواسعة، وبالسياسة الصائبة والسليمة التي ينتهجها الحزب على كافة الاصعدة.

■ حدثنا باختصار عن مؤتمر الحزب في العام الماضي. وكيف تم انتخاب اللجنة المركزية؟ ولماذا لم يتم انتخاب السكرتير العام للحزب؟

عقد مؤتمرنا في العام الماضي في مدينة سفردلوف بحضور (٥٢٥) مندوب أصلي و(٢٢٨) مندوب مراقب ـ وكان المؤتمر اكبر تظاهرة شيوعية بعد احداث آب ١٩٩١. لقد كان مؤتمرنا ناجحاً حيث اقر فيه البرنامج والنظام الداخلي للحزب كما تمّ انتخاب ل.م من داخل المؤتمر. ويشكل العمال والفلاحون والمثقفون الكادحون ٥١٪ من قوام اللجنة. أما عدم انتخابنا للسكرتير الاول للحزب فهو خطأ. وسوف نصحح خطأنا في هذا العام حيث يعقد المؤتمر الثاني للحزب. وتم الاتفاق في ل.م على انتخاب سكرتير اول للحزب وسكرتير ثاني، وبكل الاحوال القضية تطرح للمؤتمر.

■ سمعت بان المدعي العام لروسيا وجه لحزبكم تحذيراً، ما هي حقيقة هذا التحذير ولماذا؟

استلمنا تحذيراً من قبل المدعي العام لروسيا، ونشرناه في جريدة البيرق. في.احد

اجتماعات ل.م رسمنا برنامجاً للعمل،ونشر قسم منه في الصحافة والاعلام ، نطالب فيه السلطة بايقاف التطور الرأسمالي في البلاد، كما دعونا الى تأسيس مجالس العمال والفلاحين، ووجهنا نداء لقواتنا المسلحة، كما قمنا بعدة فعاليات جماهيرية تندد بسياسة السلطة. بعد هذا جاء التحذير وكأن حزبنا يعدّ لانقلاب. كما قامت السلطة بتحذير القوات المسلحة من العمل داخل هذا الحزب. نحن نرى ان المواطن العسكري حاله حال أي مواطن سوفييتي سواء كان عاملاً أو مثقفاً أو فلاحاً. السلطة ترى في وجود حزبنا ونشاطه خطراً حقيقياً

■ كيف يعمل حزبكم داخل البرلمان الروسي؟ ومن هو الذي يمثلكم داخل البرلمان؟

عملنا حالياً في البرلمان ضعيف ويوجد من يمثلنا هناك وخاصة الرفيق سلبوتكين الذي قدم مشروع دستور جديد لجمهورية روسيا والذي عرضناه على البرلمان وكذلك الرأي العام العالمي لكي يعرف موقف الشيوعيين الروس ومقترحاتهم حول تنظيم الدولة. في الوقت الراهن استلمنا كثيراً من الدعوات لحضور اعمال البرلمان الروسي. لكني شخصياً اذهب الى هناك بدون رغبة، لانني ارى ان هذا البرلمان وخاصة مؤتمره الاخير اقر عدة قرارات هي بالاساس ضد الشعب ومنها توزيع الملكية العامة على الافراد وكذلك قانون حرية التجارة التي ساهمت في ظهور جماعة من المضاربين بالاسعار. المؤتمر الاخير لنواب شعوب روسيا لم يجد الجرأة والشجاعة في نفسه لسحب الثقة من يلتسن وحكومته، لهذا السبب نحن نتعامل مع البرلمان حالياً بحذر. بينما بعض الاحزاب الاشتراكية وعلى رأسها حزب الكادحين الاشتراكي يتعامل مع هذه الحكومة وله مقر في نفس بناية البرلمان. أما نحن فلا نريد ان يقول احد عنا اننا نتعامل مع مثل هذه الحكومة المعادية لمصالح الشعب. ونفضل ان تكون مقراتنا بين الجماهير في الشوارع.

■ ما هي الاجراءات القريبة اللاحقة لحزبكم على الساحة السياسية الروسية؟

بعد يومين من لقاءنا هذا سوف تنظر المحكمة الروسية بقرار يلتسن الذي حرّم نشاط الحزب الشيوعي السوفييتي وبهذه المناسبة سوف نقوم بفعالية من اجل احباط هذا القرار السيء الصيت.

وفي ١٩ حزيران نعد لتظاهرة كبيرة بمناسبة مرور عام على تنصيب يلتسن رئيساً لروسيا وسوف يشارك في التظاهرة (٢٠٠) ألف متظاهر. وخطتنا هي محاصرة التلفزيون واجبار السلطات على اعطائنا حق التكلم عبر التلفزيون.

أما في الذكرى الخامسة والسبعين لثورة اكتوبر فسوف تكون لدينا فعالية كبيرة،

سوف نرفع العلم الاحمر فوق الكرملين! كيف؟ هذه قضيتنا! المهم سوف نرفعه بالشكل المناسب!

على صعيد الحزب فاننا نناضل حالياً من اجل تأسيس جريدة مركزية للحزب تصدر على الاقل ثلاث مرات اسبوعياً. وهنا تواجهنا الصعوبات المالية وكل ما كان للحزب من مكاتب ومطابع تمت سرقته من قبل السلطة. استغل هذا اللقاء لاقول لرفاقي في الحزب الشيوعي العراقي ان يمدوا لنا الدعم بكل ما يمكن في الجانب الاعلامي المهم من حياة الحزب. نصدر حالياً جريدتين: البيرق وارادة الشعب. لكنهما ليستا مركزيتين.

كما اننا نهيء لمؤتمر حزبنا الثاني القادم في هذا العام.

■ وسؤالي الاخير شخصي اذا تفضلتم بالاجابة عليه، سمعت بانكم تعرضتم لمحاولة اغتيال. كما انكم وعائلتكم تستلمون مكالمات تلفونية عديدة فيها تهديد وتحذير. ما هي حقيقة هذه الاخبار؟

عندما قمنا بتظاهرة تضامنية مع الرفيق هونيكر وطالبنا باطلاق سراحه ـ كنت في وقتها قائد المظاهرة ـ وطالبت السلطات بان تخرج لاستلام مطالبينا. وكالعادة لم يخرج ممثلوها. . وبعد تفرق المظاهرات تم اعتقالي في احدى الباصات من قبل مجموعة تضم الشرطة ـ وفي الباص تم ضربي بشكل وحشي ادى الى كسر بعض ضلوعي ـ ثم اطلق سراحي. اقمت دعوة رسمية بهذا الصدد ولكن لم استلم أي رد حتى الآن.

أما بالنسبة للمكالمات التلفونية فهي مستمرة دوماً انا لا اخاف على حياتي، ولكني احذر. في الحقيقة اخاف على زوجتي وخاصة اطفالي لانني لا اريد ان يصيبهم مكروه بدلاً عني. لذلك فكرت باخراجهم من العاصمة حالياً.

الحذر على العموم مطلوب، رغم ان قسماً من رفاقي اخذوا يقيمون الحماية علي وخاصة اثناء التظاهرات.

■ شكراً جزيلاً للرفيق فيكتور انبيلوف. اتمنى لكم النجاح في عملكم.

١٩٩٢/٥/٢٩

سادة الصحافة السعوديون الجدد

لارا مارلو

منذ وقت ليس ببعيد كان الأمير السعودي الذي يطلب ود الصحافة يدس ساعة ذهبية أو مغلفاً محشواً بالنقود في جيب أي صحفي.. إلا أن الأمر تغير الآن.. فلم يعد السعوديون يكتفون مؤخراً بشراء الصحفيين وإنما الصحف، وهم يمضون، أمام ذعر كثيرين في المنطقة، في ترسيخ أسس امبراطورية صحافة عربية تمتد عبر العالم..

وتشمل ممتلكاتهم خارج المملكة ١٤ دورية موزعة في الشرق الأوسط، وأميركا، وأوربا، بالإضافة إلى محطتي إذاعة في الولايات المتحدة وفرنسا، وشبكتي تلفزة مرتبطة بالأقمار الصناعية تسكب الأخبار وبرامج التسلية والرياضة والأحاديث الاستعراضية من كاليفورنيا إلى الخليج الفارسي.

ويملك اثنان من كبار أعضاء العائلة المالكة السعودية (هما الأمير سلمان والأمير خالد) اليد الطولى في أربعة من أكثر المطبوعات الإخبارية العربية الدولية شهرة، بينما يملك الشيخ وليد إبراهيم معظم أسهم مركز (إذاعة الشرق الأوسط) في لندن، إضافة إلى كونه مدير المركز ويبث مركز إذاعة الشرق الأوسط إرساله بالأقمار الصناعية عبر أوربا والشمال الأفريقي والشرق الأوسط، ويخطط للتوسع باتجاه الولايات المتحدة والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي سابقاً وآسيا. وقد قدم المركز تغطية حية لبعض الأحداث (المهمة) مثل مؤتمر سلام الشرق الأوسط في مدريد، والقمة الإسلامية في داكار- بالإضافة إلى نقل الصلاة من مكة والمدينة أثناء شهر رمضان..

إلا أن كثيراً من القراء والمشاهدين يشتكون من أن مركز إذاعة الشرق الأوسط وسواه

من الصحافة التي تملكها السعودية تنمق مواداً تطرحها كبدائل لمناقشة مواضيع مهمة وخطيرة، مثل غياب الديموقراطية في الشرق الأوسط، وقضية المرأة، وغضب الأصوليين من الولايات المتحدة وإسرائيل. يقول غسان تويني محرر النهار البيروتية، وهي من أقدم صحف العالم العربي: «إن الصحافة التي تدعمها السعودية تمدك بكثير من المعلومات، ولكن إذا أصبحت هي المصدر الوحيد للأخبار فإن ذلك يحرم الجمهور من توازن وجهات النظر»..

أمضى السعوديون زهاء عقد أو أكثر في بناء ممتلكاتهم الصحفية، إلا أن حرب الخليج، التي ترافقها تغطية بالأقمار الصناعية على مدى ٢٤ ساعة، أثارت شهيتهم لامتلاك شركة (سي. إن. إن) خاصة بهم. والحرب التي أخرجت العراق عملياً من موقعه كأحد ممولي الصحافة العربية، أوجدت فراغاً كانت السعودية سعيدة بأن تملأه. والآن تستقطب المطبوعات ومحطات الإذاعة والتلفزة التي تملكها السعودية خيرة الصحفيين العرب في المنطقة، حيث تصل رواتبهم إلى ١٠ أضعاف الرواتب التي تقدمها الصحافة العربية المنافسة.

والصحفيون الذين يحجمون عن الانضمام إلى قائمة الرواتب السعودية يخشون أن تطردهم الصحف والبرامج التي لاتعكس سوى أولويات السعودية والولايات المتحدة في الشرق الأوسط وتفقدهم قنوات التعبير عن آرائهم.. يقول طلال سلمان مؤسس ومحرر صحيفة (السفير) اللبنانية: «إنهم يخططون لاستبدال الصحافة العربية بصحافة سعودية. ويصعب أن نجد مثقفاً واحداً أو كاتباً عربياً جيداً، من المغرب إلى الخليج، لايعمل لصالحهم»..

أحد الباحثين الرياديين عن المواهب ـ وهو موضع استياء شديد ـ هو الملياردير السعودي اللبناني المولد رفيق الحريري، صديق الملك فهد والذي ربما أصبح رئيس وزراء لبنان في المستقبل، ينفق الحريري ١٠ ملايين دولار في العام على إذاعة الشرق التي تبث من باريس إلى أوربا ولبنان وسورية والأراضي المحتلة، وبواسطة الهاتف إلى الولايات المتحدة. وقد اشترى مؤخراً امتياز أربع صحف لبنانية.. كما أن الشركة المهيمنة (ويف) التابعة له تخطط لبناء محطتي تلفزيون. يقول أحد العاملين لدى الحريري: «إذا استمر الحريري على هذا النهج فإنه سيصبح هيرست العالم العربي»..

كما تعكس سيطرة السعودية على الصحافة الاهتمام القديم بالصحافة لدى الأمير سلمان شقيق الملك فهد وحاكم الرياض في السنوات الثلاثين الماضية. ولدى الأمير خالد بن سلطان ابن أخت أخ الملك وقائد القوات المسلمة في حرب الخليج. وبالرغم من أن سلمان لايملك أية حصص في شركة الأبحاث والتسويق السعودية التي تعمل من

لندن، فإنه هو القوة المحركة وراء المجموعة التي تملك جريدة (الشرق الأوسط)، شبه الرسمية التي تصدر من لندن، ومجلة (المجلة) الأسبوعية، وبالرغم من هذا الارتباط غير الرسمي بالصحيفتين يقال أن سلمان هو الذي يقرر المضمون وخط التحرير. ويملك خالد حق استئجار الصحيفة اللبنانية الذائعة الصيت «الحياة» لمدة عشرين سنة. وقد بدأت هذا العام بإصدار مجلة أسبوعية صقيلة هي (الوسط). وتخسر (الحياة) التي تطبع في وقت واحد في لندن وفرانكفورت والقاهرة وبيروت والبحرين ومرسيليا ونيويورك، مليون دولار في العام. ويقول رئيس تحريرها جهاد الخازن أن كون الصحيفة قد مُنعت عدة مرات من التوزيع في السعودية هو دليل على استقلالها. إلا أنه يعترف بأن كُتّابها مدربون على تفادي المواضيع الحساسة، خاصة أي انتقاد للعائلة المالكة السعودية أو الأنظمة العربية المتحالفة مع المملكة.

دليل آخر على نزوع السعودية للهيمنة نراه في تزايد قوة مركز (إذاعة الشرق الأوسط). فقد دشنت محطة تلفزة الأقمار الصناعية من لندن في أيلول برأس مال عامل يقدر بـ ٣٠٠ مليون دولار وميزانية سنوية تقدر بـ ٦٠ مليون دولار. يقول إداريو مركز إذاعة الشرق الأوسط أن القدر الأكبر من المبلغ يأتي من الشيخ وليد، مدير الشركة. إلا أن أحد المحررين السعوديين في لندن يقول أن مركز إذاعة الشرق الأوسط هو المشروع المدلل لدى الملك فهد. ويضيف: «إن الملك معجب بالسي. إن. إن. ويعتقد أن الصحافة هي الأداة الأكثر أهمية لنشر معتقداته وسياساته». يقول النقاد أن الملك فهد يعبر عن آرائه بالنشرات اليومية من خلال صهره وليد. وإن التغطية الأثيرة والمتكررة للملك تربط مركز إذاعة الشرق الأوسط ربطاً وثيقاً بالسعودية. ويؤكد عرفان نظام الدين، وهو المدير الإداري: «إننا لم نلتزم بخط سياسي دقيق ـ وإنما نحن نغطي الأحداث كما هي، ولكن يقول أحد الموظفين في مركز إذاعة الشرق الأوسط، سراً، إن انتقاد العائلة المالكة السعودية من المحظورات. إن المنظور السعودي للأمور يعني أن هناك ثغرات في تغطية مركز إذاعة الشرق الأوسط لأخبار الشرق الأوسط حيث رفض المسؤولون الليبيون إجراء مقابلة مع المحطة، ويقول نظام الدين أنه لن يرسل صحفيين إلى العراق لأن ذلك يعرضهم للخطر..

ينوي مركز إذاعة الشرق التوسع باتجاه الولايات المتحدة هذا العام، حيث سينافس محطة أخرى تمولها السعودية هي الشبكة العربية في أميركا (أي. إن. اي) التي استهلت في كانون الأول الماضي برامج إخبارية وبرامج منوعات وبرامج دينية من الشاطىء الغربي إلى الشاطىء الشرقي للولايات المتحدة، ويقال أن لها ٧٥٠ ألف مستمع و٥٠٠ ألف مشاهد تلفزيوني مشترك ـ وهذه نسبة كبيرة من المليون أمريكي الذين يتحدثون العربية،

والمبعدين الذين يعيشون في أمريكا. المدير العام للشبكة العربية هو محمد بدراوي، وهو ضابط سابق في البحرية السعودية ومقرب من السفير السعودي لدى واشنطن الأمير بندر بن سلطان.

هذا التركيز للصحافة العربية في أيدي سعودية يعكس، فيما يبدو، إيمان الملك بقيمة الصحافة كوسيلة لنقل رسالته. وهنا مكمن الخطر بالنسبة للآخرين، يقول كاتب لبناني انضم مضطراً، إلى (الحياة) صحيفة الأمير خالد، بعد سنة من البطالة: «إنها تعطي انطباعاً كاذباً عما تعتقده الانتلجنسيا العربية. فكثير من الصحفيين العرب لايوافقون على التعتيم على العراق ويعارضون مؤتمر سلام الشرق الأوسط. إلا أنهم لايجرؤون على كتابة مايعتقدونه. وهكذا يموت النقاش، هل يستطيع أي صحفي أن يكتب عن حقيقة نتائج حرب الخليج في صحيفة يملكها شوارزكوف؟

هذه الملاحظة تقول الكثير عن النظام العربي الجديد الذي أعقب حرب الخليج. ففي الصحافة كما في السياسة، تقوم الثروة الهائلة للمملكة العربية السعودية وتحالفها مع الولايات المتحدة بإعادة تشكيل وجه الشرق الأوسط. وتقوم صحافة متزايدة التسعود بنقل تلك الصورة للعالم العربي.

عن مجلة (تايم) ٢٢/٦

أعلن مؤخراً أن ممولين سعوديين اشتروا الوكالة (يونايتد بريس) الأميركية وهي من أشهر وأوسع وكالات الأنباء العالمية..

المحرر

* * *

حالة حقوق الانسان في العراق

لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان

إن لجنة حقوق الإنسان إذ تسترشد بالمبادىء المجسدة في ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهدين الدوليين الخاصين بحقوق الإنسان.

وإذ تكرر التأكيد أن على جميع الدول الأعضاء التزاماً بتعزيز حقوق الإنسان وحرياته الأساسية وحمايتها، وبالوفاء بالالتزامات التي أخذتها على عاتقها بمقتضى الصكوك الدولية المتعددة في هذا المجال.

وإذ تضع في اعتبارها أن العراق طرف في العهدين الدوليين الخاصين بحقوق الإنسان وفي صكوك أخرى لحقوق الإنسان.

وإذ تشير إلى قرار مجلس الأمن ٦٦٨ (١٩٩١) المؤرخ في ٥ نيسان/ أبريل ١٩٩١ الذي طلب فيه المجلس وقف قمع السكان المدنيين العراقيين وأصر على أن يتعاون العراق مع المنظمات الإنسانية لكفالة احترام حقوق الإنسان والحقوق السياسية لجميع المواطنين العراقيين.

وإذ تشير أيضاً إلى قراري مجلس الأمن ٧٠٦ (١٩٩١) المؤرخ في ١٥ آب/ أغسطس ١٩٩١ و٧١٣ (١٩٩١) المؤرخ في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.

وإذ تشير كذلك إلى قرارها ١٩٩١/٧٤ المؤرخ في ٦ آذار/ مارس ١٩٩١ الذي طلبت فيه من رئيسها أن يعين مقرراً خاصاً لإجراء دراسة دقيقة ومتعمقة لانتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبتها حكومة العراق، بالاستناد إلى جميع المعلومات التي يرى المقرر الخاص أنها ذات صلة، بما في ذلك المعلومات المقدمة من المنظمات الحكومية الدولية والمنظمات غير الحكومية، وأي تعليقات أو مواد تقدمها حكومة العراق، وأن يقدم عن ذلك

تقريراً مؤقتاً إلى الجمعية العامة في دورتها السادسة والأربعين، وتقريراً إلى اللجنة في دورتها الثامنة والأربعين.

وإذ تشير أخيراً إلى قرار الجمعية العامة ٤٦/١٣٤ المؤرخ في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ والذي أعربت فيه عن قلقها العميق إزاء الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان من قبل حكومة العراق، وقررت أن تواصل النظر خلال دورتها السابعة والأربعين في حالة حقوق الإنسان في العراق على ضوء العناصر الإضافية التي تقدمها لجنة حقوق الإنسان والمجلس الاقتصادي والاجتماعي.

وإذ يساورها بالغ القلق إزاء الانتهاكات الواسعة والجسيمة لحقوق الإنسان من قبل حكومة العراق، مثل حالات الإعدام بإجراءات موجزة أو الإعدام التعسفي، والتعذيب وغيره من ضروب المعاملة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة، وحالات الاختفاء القسري أو غير الطوعي، وعمليات الاعتقال والاحتجاز التعسفية، والافتقار إلى المحاكمة المشروعة وحكم القانون، وإلى حرية الفكر والتعبير وتكوين الجمعيات والحصول على الغذاء والرعاية الصحية، وأخذ الرهائن واستخدام الأشخاص «دروعاً بشرية».

وإذ تشعر ببالغ القلق أيضاً إزاء حقيقة أن الأسلحة الكيميائية قد استخدمت بالفعل ضد السكان المدنيين العراقيين، وإزاء التشريد الذي فرض على مئات الآلاف من الأكراد، وتدمير المدن والقرى العراقية، واضطرار عشرات الآلاف من المشردين الأكراد للجوء إلى مخيمات ومآوي في شمال العراق، وإزاء إبعاد الآلاف من الأسر الكردية من ديارها.

وإذ تشعر ببالغ القلق أيضاً إزاء التدابير القمعية التي اتخذتها حكومة العراق ضد الطائفة الشيعية في العراق، ولاسيما في أهوار الجنوب.

وإذ تلاحظ أنه بالرغم من التعاون الرسمي لحكومة العراق مع المقرر الخاص، فإن هذا التعاون بحاجة إلى التحسين ولاسيما من خلال تقديم ردود كاملة على استفسارات المقرر الخاص حول الأفعال التي ترتكبها حكومة العراق والتي تتعارض مع الصكوك الدولية لحقوق الإنسان الملزمة لهذا البلد.

١ ـ تحيط علماً مع التقدير بالتقرير الذي قدمه المقرر الخاص عن حالة حقوق الإنسان في العراق (B/CN. 4/1992/ 31) وبالاستنتاجات والتوصيات الواردة فيه.

٢ ـ تعرب عن إدانتها القوية للانتهاكات الواسعة لحقوق الإنسان التي تتسع بطابع بالغ الخطورة والتي تتحمل حكومة العراق المسؤولية عنها، ولاسيما:

(أ) الإعدامات بإجراءات موجزة والإعدامات التعسفية، وعمليات الإعدام والدفن الجماعية المنظمة، وحالات القتل بدون إجراءات قضائية بما في ذلك القتل السياسي،

وخصوصاً في المنطقة الشمالية للعراق وفي مراكز الشيعة في الجنوب وفي أهوار الجنوب.

(ب) ممارسة التعذيب على نحو واسع الانتشار وبصورة منتظمة وبأكثر أشكاله وحشية، بما في ذلك تعذيب الأطفال.

(ج) حالات الاختفاء القسري أو غير الطوعي وعمليات الاعتقال والاحتجاز التعسفيين التي تمارس بصورة روتينية، بما في ذلك اعتقال واحتجاز النساء والأطفال، والممارسة الثابتة والروتينية المتمثلة في عدم احترام أصول الإجراءات القضائية وحكم القانون.

(د) أخذ الرهائن واستخدام الأشخاص دروعاً بشرية، مما يمثل انتهاكاً صارخاً وبالغ الخطورة للالتزامات المترتبة على العراق بموجب القانون الدولي.

(هـ) قمع حرية الفكر والتعبير وتكوين الجمعيات، والانتهاكات لحقوق الملكية.

٣ ـ تتأسف لأن حكومة العراق لم تمتثل لأحكام قراري مجلس الأمن ٧٠٦ (١٩٩١) و٧١٢ (١٩٩١) وبالتالي فإنها لم تمكن السكان العراقيين من الحصول على الغذاء والرعاية الصحية.

٤ ـ تطلب إلى حكومة العراق أن تفرج فوراً عن جميع الأشخاص المعتقلين والمحتجزين بصورة تعسفية، بمن فيهم الكويتيون والرعايا من دول أخرى.

٥ ـ تعرب عن قلقها بصفة عامة لأن المقرر الخاص لم يتمكن من الحصول على أي دليل موثوق يبين أن حكومة العراق قد اتخذت خطوات لضمان عدم حدوث المزيد من الانتهاكات لحقوق الإنسان، ولأنه نستنتج علاوة على ذلك بأن أي تحسن معقول في حالة حقوق الإنسان في العراق يتطلب حصول تغييرات هائلة في سلوك الحكومة.

٦ ـ تطلب مرة أخرى إلى حكومة العراق، بوصفه دولة طرفاً في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك في العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، الامتثال للالتزامات التي تعهدت بها بحرية بموجب هذين العهدين وغيرهما من الصكوك الدولية، المتعلقة بحقوق الإنسان، ولاسيما فيما يتصل باحترام وكفالة هذه الحقوق لجميع الأفراد، بصرف النظر عن أصولهم، المتواجدين داخل إقليمه والخاضعين لولايته.

٧ ـ تعرب عن جزعها بصفة خاصة إزاء السياسات والممارسات القمعية الموجهة ضد الأكراد والتي أدت إلى إبادة جزء من هؤلاء السكان ولاتزال تؤثر على حياة الشعب العراقي ككل.

٨ ـ تعرب عن قلقها البالغ إزاء التدابير القمعية المتخذة من قبل حكومة العراق ضد الطائفة الشيعية، ولاسيما قمع الحقوق الدينية والثقافية للشيعة.

٩ ـ تشجب بقوة الانتهاكات الجسيمة بصورة استثنائية لحقوق الإنسان من قبل حكومة العراق في السنوات الأخيرة، وهي انتهاكات تتطلب في رأي المقرر الخاص رداً استثنائياً في شكل إيفاد فريق من مراقبي حقوق الإنسان إلى العراق.

١٠ ـ ترجو لذلك من المقرر الخاص أن يقوم بالتشاور مع الأمين العام، ببلورة توصيته الداعية إلى اعتماد رد استثنائي، وأن يقدم تقريراً في هذا الشأن إلى الجمعية العامة في دورتها السابعة والأربعين.

١١ ـ تحث حكومة العراق على إنشاء لجنة تحقيق مستقلة لمعرفة مصير عشرات الآلاف من الأشخاص المختفين.

١٢ ـ تأسف لعدم قيام حكومة العراق بتقديم ردود مرضية فيما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان التي تم استرعاء اهتمام المقرر الخاص إليها، . وتطلب إلى الحكومة أن ترد دون إبطاء وبطريقة شاملة ومفصلة بحيث يتسنى للمقرر الخاص صياغة التوصيات المناسبة لتحسين حالة حقوق الإنسان في العراق.

١٣ ـ تقرر أن تمدد لفترة سنة أخرى ولاية المقرر الخاص كما ترد في قرار اللجنة ١٩٩١/٧٤، وترجو من المقرر الخاص أن يقوم مرة أخرى، في أداء ولايته، بزيارة المنطقة الشمالية للعراق بصفة خاصة.

١٤ ـ تحث لذلك حكومة العراق على التعاون التام مع المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان، ولاسيما خلال زيارته التالية إلى العراق.

١٥ ـ ترجو من المقرر الخاص أن يقدم تقريراً مؤقتاً إلى الجمعية العامة في دورتها السابعة والأربعين بشأن حالة حقوق الإنسان في العراق، وتقريراً نهائياً إلى اللجنة في دورتها التاسعة والأربعين.

١٦ ـ ترجو أيضاً من الأمين العام تقديم كل المساعدة اللازمة للمقرر الخاص للجنة.

١٧ ـ تقرر مواصلة نظرها في حالة حقوق الإنسان في العراق في دورتها التاسعة والأربعين في إطار هذا البند من جدول الأعمال. .

[اعتمد بأغلبية ٣٥ صوتاً مقابل صوت واحد وامتناع ١٦ عضواً عن التصويت، وذلك في الجلسة ٥٥ ٥ آذار/ مارس ١٩٩٢].

رسالة إلى د. حنا بطاطو

تحية طيبة: .

حصلت على كتابكم الثاني «العراق» الحزب الشيوعي العراقي، وقرأت الكتاب القيم بإمعان لأني عشت تلك المرحلة بانتصاراتها وانتكاساتها بحلوها ومرها. فقد كنت صديقاً للحزب الشيوعي العراقي منذ أواخر الثلاثينات. وحصلت على عضوية الحزب سنة ١٩٤٣ تحت قيادة الرفيق الخالد فهد. عشت الانقسامات والوحدة واشتركت في فعاليات الحزب من إضرابات ومظاهرات وقدمت للمحاكمات ١٢ مرة. نفذت بحقي خمسة أحكام من أشهر إلى سنة ثم إلى سجن مدى الحياة، عشت في سجن بغداد والكوت ويعقوبة وقضيت في ناحية (شفاثه) عين التمر، في الصحراء الغربية، سنة تحت مراقبة الشرطة، وكذلك في مدينة سامراء، اشتركت في تنظيم الخلايا السرية وفي النشاط السياسي الديمقراطي العلني، حيث كنت سكرتيراً (لعصبة مكافحة الصهيونية) المجازة آنذاك. اشتركت في تأسيس النقابات في سنة ١٩٤٦، عشت مذبحة سجن الكوت سنة ١٩٥٣. بقيت في العراق حتى سنة ١٩٦٧، ثم عشت لاجئاً سياسياً خمس سنوات في مدينة (أوش) في قرغيزيا السوفييتية، ومنذ أوائل سنة ١٩٧٣ أعيش في براغ محرراً في القسم العربي من إذاعتها وأعيش متقاعداً منذ سنة ١٩٨٢. أذكر ذلك لتعلم بأن ملاحظاتي عن كتابكم الذي أثار سروري وشجوني نابعة من اطلاعي، وإني إذ أقيم تقييماً كبيراً جهودكم المفيدة لأجيال العراق المقبلة، وللإخلاص في بحثكم القيم أرجو أن تدرسوا الملاحظات المدونة أدناه وهي فنية وليست أساسية لكي تؤخذ في الطبعة الثانية، وفي الختام أرجو لكم الصحة التامة والنجاح في مجال اختصاصكم مع أطيب تمنياتي . .

١ ـ ص ٤٣٠ جريدة (الصحيفة) وليس الصحافة لجماعة حسين الرحال سنة ٩٢٤ ـ ٩٢٥.

٢ ـ (عصبة مكافحة الصهيونية) وليس رابطة مناهضة الصهيونية، حيث لم يوجد في العراق رابطة بهذا الاسم.

٣ ـ ص. ١٠٤ جدول ٦ حسين طه وليس حسن طه لأني أعرف المقصود. فقد كنت سجينا معه سنة ٩٤٦.

٤ ـ ص. ٥٥ لواء المنتفك وليس المنتفق، كما هو معروف في العراق.

٥ ـ حول مخطوطة شيوعية (الجيش العراقي). . ويبدو من دلائل داخلية أن زكي خيري أعدها عام ٩٥٣ لتدريب الكادر في سجن الكوت وللتاريخ أقول ان زكي خيري كان سنة ٩٥٣ في سجن نقرة السلمان وليس في سجن الكوت وإني كنت سنة ٩٥٣ في سجن الكوت حتى المذبحة ولم يكن الرفيق زكي خيري هناك.

٦ ـ ص.١٤٢ في الهامش ورد سالم عبد النعمان والصحيح هو سالم عبيد النعمان.

٧ ـ ص ١٤٥ السطر العاشر حول انتقال فهد إلى المنتفك لمساعدة شقيقه في تشغيل طاحون في بلدة الناصرية والصحيح إلى الناصرية وليس إلى المنتفك.

٨ ـ ص ١٤٦ السطر ١٨ في العراق وليس في موسكو كما ورد.

٩ ـ ص ١٤٨ سطر ١٧ المؤتمرية وليس التآمرية.

١٠ ـ ص ١٨٨ حزب التحرر الوطني وليس التحرير الوطني كما جاء في الهامش ٣٤.

١١ ـ ص ١٩١ سطر ١٠ الشعبية وليس شعيب. وفي نفس السطر صادق البصام وليس صادق البسام.

١٢ ـ ص ١٩٥ سطر ٥ مديرية التحقيقات الجنائية آنذاك وليس الاستخبارات، إذ أن الاستخبارات في العراق تخص الجيش علماً أن اسم التحقيقات الجنائية أبدل أيام حلف بغداد على ماأتذكر إلى اسم الأمن العامة وقد تكرر ذلك في الكتاب فمن الضروري تصحيح ذلك.

١٣ ـ ص ١٩٩ هامش ١١ رشاد حاتم وليس رشيد حاتم.

١٤ ـ ص ٢٢٨ ساسون دلال المقصود وليس شلومو دلال الذي هو اسم أبيه.

١٥ ـ ص ٢٣٠ جدول ١٣ـ١ أن يعقوب قوجمان لم يسجن في العراق إذ تمكن من الهروب سنة ١٩٤٩ عندما داهمت الشرطة دارهم وأن الذي حكم بالسجن المؤبد هو أخوه حسقيل وليس يعقوب كما ورد في الجدول.

١٦ ـ ص ٢٥١ سطر ٥ للحقيقة والتاريخ أن ساسون دلال كان عضواً في حزب الشعب وسجن في مظاهرة قام بها حزب التحرر الوطني أواخر سنة ٩٤٧ ونقل إلى سجن الكوت وهناك ترك حزب الشعب وانضم للحزب الشيوعي العراقي قبل إعدام الرفيق فهد علما أن حزب الشعب لم يكن يحمل عداء لليهود بدليل أن عزيز شريف دافع عن المعادين للصهيونية آنذاك.

١٧ ـ ص ٢٦٦ هامش ٩ النشر العلني لم يكن في جريدة العصبة، لأنها أغلقت في حزيران سنة ١٩٤٦ وربما كان المقصود جريدة الأساس آنذاك.

١٨ ـ ص ٢٧٠ سطر ٢٠ عين كاوة وليس عين قاوة.

١٩ ـ ص ٢٧٢ سطر ٢١، ١٩٤٨ وليس ١٩٤٩ الوثبة.

٢٠ ـ ص ٢٧٤ ساحة السباع المعروفة في بغداد وليس ميدان الأسود الذي لاوجود له في بغداد.

٢١ ـ ص ٢٨٠ السطر الأول الصحيح لجان العمل وليس لجنة العمال.

٢٢ ـ ص ٢٨٢ حكمان فارس الربيعي وليس حكمت فارس إذ أنني أعرف حكمان المقصود شخصياً حيث درسنا في صف واحد في مدرسة مندلي الابتدائية.

٢٣ ـ ص ٣٣٢ هامش ٩ العبخانة وليس الصباخانة كما ورد. وفي سطر ٢٠ عاصم الحيدري هو أخو جمال الحيدري والأخوان كانا في سجن واحد في نقرة السلمان وبغداد أما الوزير فهو داود الحيدري.

٢٤ ـ ص ٣٥٧ سطر ١٠ الإضراب عن الطعام استمر (٢٣) يوماً وليس عشرة أيام حيث كنت مضرباً معهم آنذاك.

٢٥ ـ ص ٣٥٨ السطر الأول إطلاق سراح الأقل تصلباً والحقيقة هي أنه كانت تقوم دوائر الأمن بإجبار السجناء على نبذ مبادئهم بمختلف الوسائل الإرهاب والإغراء، أرى أن يجري ذكر هذه الحقيقة لأنها شملت آلافاً من الوطنيين من مختلف الاتجاهات وخاصة الشيوعيين منهم.

٢٦ ـ ص ٣٦٩ أرجو أن يسمح لي المترجم بأن يجري تبديل عبارة أكثر وضاعة بأكثر فقراً أو كدحاً لأن الوضاعة كلمة نابية لاضرورة لاستعمالها في المجال المذكور.

٢٧ ـ ص ٣٧١ السطر الثالث من أسفل الصفحة: ناصرعبود وليس نصير عبود.

٢٨ ـ ص ٣٤٢ السطر ٧ حسين أحمد الرضي وليس الراضي. كما أرى أن يصحح الفهرست ويؤخذ بالطريقة العربية لا الغربية عند ذكر الأسماء مثل عبد الفتاح إبراهيم وليس إبراهيم عبد الفتاح منعاً للالتباس الذي قد يحصل للقارىء العربي.

هذا وأرجو أن يسمح لي الدكتور المؤلف بأن أشير إلى كتاب صدر في دمشق بعنوان «عصبة مكافحة الصهيونية في العراق» لأن هذا الكتاب الوثائقي يغني مؤلفكم عن الحزب الشيوعي العراقي لأنه جزء من تاريخه مع أطيب تمنياتي لكم بالتوفيق والنجاح في عملكم المثمر..

براغ في ٣١/ ٦/ ١٩٩٢

عادل المصري


أدب وفن

حدث هذا في مملكة الضبع الأخضر
أو
من أسرار المملكة

شمران الياسري

(أبو گاطع)

وصلنا من السيد (أحمد الجاري) نص قصصي غير منشور لفقيد الأدب العراقي الكاتب شمران الياسري (أبو گاطع)، عمل (الجاري) مشكوراً، على تفريغه من شريط كاسيت سجلت عليه وقائع الأمسية القصصية التي قدمها الفقيد في (براغ) في ٢٩/١١/ ١٩٨٠، وقرأ خلالها ثلاث حكايات طلب من جمهور مستمعيه، حينها، ترشيح واحدة منها للنشر، وقد نشرت القصة المرشحة مع وقائع الأمسية، تحت عنوان (حكاية اسمها.. الكاتب وجمهوره) في مجلة (البديل).

وصلتنا رسالة (الجاري) التي تضمنت حكاية (حدث هذا في مملكة الضبع الأخضر.. أو من أسرار المملكة) وهي إحدى الحكايتين غير المنشورتين.. وصلتنا في ٢٥/ ١/ ١٩٩٢ يعبر فيها عن أسفه لمرور الذكرى العاشرة لرحيل (أبو گاطع) في ١٧/٨/ ١٩٩١ دون أية إشارة إليها في الصحف العراقية على اختلافها، الأمر الذي جعلنا نرجىء نشرها للذكرى الحادية عشرة التي تحل هذا الشهر.

جاء في رسالة السيد (أحمد الجاري) أن الفقيد قدم لحكايته هذه بقوله:

«كان مقرراً لهذه الحكاية أن تنشر قبل الحرب العراقية ـ الإيرانية (قادسية صدام)، ولكن لأسباب لاأذكرها الآن، حتى لاأوثر على أحكامكم تأجل النشر، والآن يبدو لي أن جديداً استجدّ، جعلها بنظري غير ملائمة بشكلها الحالي، أقصد بعد الحرب العراقية ـ الإيرانية، فما الذي نضيفه أو نحذفه؟».

يعقب (الجاري) على هذا بقوله: «إننا نعتقد أنها، رغم كونها مسوّدة لحكاية لم يسمح له رحيله المفاجيء بإكمالها أو تعديلها «..كذا..» فإنها لاتزال تحمل في طيات جملها ومفرداتها الكثير من الشهادات حول همجية الدكتاتورية، وللأسف لم تتوفر لديّ مخطوطة المادة، وإنما قمت بتدوينها استناداً إلى توثيق الأمسية على شريط كاسيت لم يكن تسجيله بكل الوضوح والتمام»...

إننا، إذ نكرر شكرنا وبعمق، للأخ (أحمد الجاري) على هذه المبادرة الطيبة، يسرنا أن نقدم هذه الحكاية لقرائنا، تذكيراً بواحد من أهم كتابنا الذين يليق بهم التذكر الدائم.

(أدب وفن)

نص الحكاية

سكون يبعث التوتر لايخفف من حدته طرق حوافر الدوريات في ممرات الغابة، ولا خفق أجنحة الأسراب المستكشفة. تتراءى الأشجار مرغمة على كتم أنفاسها. والنهر صاف بالقسر والقوة، فمن غير المعقول أن أعماقه خالية من الشبوط الذي يعاكس التيار عادة. ويمتلىء المشاهد يقيناً بأن الغابة بانتظار نجم يلوح في عزّ الظهيرة مثل كل المعجزات.

إذا أطلق المرء لظنونه العنان، أو إذا أطلق ظنونه من العقال، فقد يرتكب خطيئة إصدار الأحكام المنطلقة من الذات وحدها، لاشريك لها والعياذ بالله. إنما، وهذا هو الموضوعي التام، الذي لايتناطح فيه، ولاحوله، كبشان سمينان، بأن الوضع في غاية التعقيد والأمور تجري بأعجوبة حد السماح بالقول: معجزة ألاّ (تتچقلب) أمور الغابة. أهي بالسحر مجراها؟ إذاً فأين مرساها؟

لقد قال دعاة التعقيد المبالغون الذين يولون الصغائر اهتماماً أكبر من حجمها، أن الطافي على السطح والظاهر لكل عين لايشكل من الحقيقة إلا نسبة ضئيلة، تعادل أذن الحمار بالقياس إلى كل جثته. إن دولة الضبع الأخضر تحتضر، وها أنتم ترون الذئاب

تتهيأ، و«المايشوف بالمنخل عمى العماه». وقال أحد المبالغين المتحذلقين الذين يقرؤون جريدة العائلة كل صباح: «انظروا ماذا وراء هذا الذي يجري، إنه توتير مقصود يراد منه بلوغ الأمور ذروتها. وحينذاك تستطيع أن تقطع بالغصن الرطيب». كلام جميل. وقال أكثرهم تطيراً وهو يشير إلى مقالة موقعة بتوقيع (حمار) منشورة في جريدة العائلة صباح هذا اليوم: «ياأهل الغابة لاتتطامنوا إلى تفسيرات هذا الحمار وكل الحمير، لأن هذه المقالة أريد بها دغدغة عواطف الماعز قبل البقر. إن هذه ياأهل الغابة ذروة نعامية في السياسة، وهو، بالتالي، لعب زمايل على حساب الحقيقة التاريخية المنزهة عن كل إخلال متعمد». وقال دعاة التبسيط لاتدحموا أنفسكم نبشاً عن جذور لم تنبت بعد في تربة الواقع ولا تعقدوا السهل الذي يسره الله، ابتغاء جعل السياسة حكراً على القرود والثعالب وبنات آوى بطانة الضبع الأخضر»..

لقد كانت البداية لهذه الأزمة عفطة غراب. أما ملتزم الموضوعية، مثلي، فهو المؤهل لكتابة تاريخ المملكة..

في حقبة الازدهار التي رافقت تولي الضبع الأخضر لسدة الحكم، وبقلم نظيف جداً يقول الموضوعي الذي لابد أن ندعوه لشدة تمسكه بالموضوعية بـ (أبو موضوعية) على طريقة العراقيين: أبو علي، أبو حسين، أبو زهرة وأبو كَاطع... يقول أبو موضوعية أن الأمر لايخلو من ذاك الذي بلغنا ومن هذا الذي نسمعه.. والحقيقة هي أن الغراب بالغ يوماً في أداء واجبه، مد عنقه لأقصى حد ثم دفع جسمه نحو الأسفل بعد أن أحكم مخلبيه في الغصن، وذلك من أجل التنصت الجيد وسماع همس المستمعين تحت الشجرة، على نحو يمكنه من كتابة تقرير مضبوط. وحين فاتته عبارة من متحدث، عدّل وضعه وراح يزحزح مخالبه بحذر كما تمشي أم أربعة وأربعين، في محاولة لبلوغ طرف الغصن. في تلك الأثناء انكسر الغصن وسقط الغراب بين الفروع فأحدث خفق جناحيه وتماسهما بالأوراق صوتاً أفزع الغزلان المجتمعين. وعندما اكتشفوا أمر الجاسوس العريق، أو لنقل الجاسوس ابن الجاسوس، أخذوا يضحكون شماتة. وقال الغراب مجاراة لخجله: «عفوكم أيها الاخوة، لقد غفوت على الغصن والآن اكتشفت أني أسير في نومي، ولابد أنني سرت إلى نهاية الغصن فوقعت».. فبالغ أحد الغزلان الأغرار في شماتته ورد على الغراب: «نعم، ياأخ الـ...» ثم أردف شتيمه ـ فشورة يعني. مثلاً قال: «ياأخ كذا وكذا».. فسمعها الغراب. وأصرها في صدره ضغينة وحقداً على كل جنس الغزلان، وكتب تقريراً بلا وجدان، ضد المساكين الغزلان..

قال في تقريره للضبع الأخضر..

وهنا أتوقف لأشرح لكم كيفية أن يحدث أن جاسوساً حقيراً مثل الغراب يكتب مباشرة

للضبع الأخضر. شيء يثير الانتباه. لن أطيل عليكم، فالقصة طويلة، ولكن يمكن إجمالها بالآتي: كان الضبع الأضخم حريصاً على تدوير شؤون المملكة وتوفير الأمن والاستقرار للرعية بطريقة نموذجية. فقرر أن ترتبط بمقره مباشرة مديرية الأمن العامة، وفيما بعد أغرته تلاوة التقارير واستمرأ هذا النوع من الاطلاع المباشر على كل أحوال سكان الغابة، فقرر أيضاً ربط مديريات أمن المحافظات بمكتبه. ثم، فيما بعد، الأقضية والنواحي. لاأطيلها عليكم، قرر أن يطّلع على كل تقرير حتى لو كتبه جاسوس نفر مثل هذا الغراب.

كتب الغراب في تقريره للضبع الأخضر: «سيدي ملك الأجلاف، وسليل الجياف، الذي تخسأ عن الإحاطة بدونيته كل الأوصاف. سيدي، لقد كان مشروع قانون الرواتب والمكافآت، الذي أصدره فخامة جلالتكم، هو محور الجلسة السرية المريبة التي عقدها الغزلان. وسوف أروي ماسمعته بالحرف. قال رئيس الجلسة: في هذا القانون نزعات عنصرية بمقدار مايحوي ماء البحر من الملوحة. ولن أكثر عليكم بالأمثلة، فأقربها حادث الأمس، أعني به قصيدة الثعلب، التي مدح فيها الضبع الأكبر فقال أعطوه غزالين. تصوروا غزالين للثعلب، قندرة غزال واحد تشرف مئة ثعلب، تصوروا غزالين مقابل تلك القصيدة الجائفة كما يقول الآدميون، وكما يقصدون المعنى حرفياً. والثعلب الحقير ماارتفعت أحلامه يوماً عن أرنب مريض أو بليد...»..

للتوضيح استطراداً، كان مطلع القصيدة:

تضوعت الآفاق جيفةَ ضبعنا

وأفعمت الأجواء من فوحه النتنِ...

في عالمنا، نحن الآدميين، قد نعتبر شعراً كهذا من أنواع الهجاء، ولكن عالم الغابة له لغته ومقاييسه الجمالية ومواصفاته للمدح والذم. فمثلاً، بعد استيلاء الضبع الأخضر على السلطة، صار تشميت العاطس، مثلاً، «جيّف الله فمكم» بدلاً من «يرحمكم الله». وصار يقال شعراً ونثراً «الجيفة من شيمنا». وقد نشرت إحدى أسبوعيات الغابة، الطريفة التالية: «حين أصدر الضبع الأخضر قانون عودة ذوي الكفاءات، قال أحد الثعالب المهاجرين إلى غابة أخرى: «والله ماارجع لو يصفوليها فطايس منا للغابة»...وإذا كان البشر يقول الواحد منهم للآخر في المحاورة: «طيب.. طيب، وبعدين؟»، ففي الغابة يقولون: «جايف.. جايف، وبعدين؟». هذا يعني بصريح العبارة أن الضباع طبعت أخلاقها على الغابة عموماً، وكلما تعززت سلطة الضبع الأخضر سادت الأخلاق الضبعية، حتى أصبحت اليوم عادة التسلي بالعظام مثلما يسبح الآدميون بمسبحة اليسر أو الكهرب. فالحيوانات كلها تتسلى بشَدّةِ عظام، تطكطك بيها حتى بحضرة الضبع الأضخم..

نعود إلى تقرير الغراب الذي ورد فيه: «قال أطول الغزلان قروناً: «لا تضيعوا الوقت، ادخلوا في صلب الموضوع مباشرة». وأشار إلى غزال صغير رقيق، اقرأ ياولد! فقرأ الغزال الصغير الرقيق: «المادة الرابعة كانت تنص على أن الراتب الشهري للضبع من الدرجة الرابعة خمسة عشر أرنب، بما فيها غلاء المعيشة، فإذا رقي للمرتبة الثالثة صار راتبه عشرون أرنب مع غلاء المعيشة كذلك، والآن يقضي التعديل المقترح للقانون بأن يصبح راتب الضبع من المرتبة الثالثة خمسة وعشرون أرنب، وأربعة غزلان شهرياً، فماذا يعني هذا؟» ويمضي الغزال في تلاوة مشروع القانون، ويستفسر بعض الحاضرين عن تعابير فنية. ثم طلبت أكبر الغزالات جسماً حق الكلام فقالت: «أولادي، أخواتي، إخواني، لقد صدرت قوانين كثيرة مجحفة شملت معظم سكان الغابة، ولكنها لاتعد شيئاً على المدى الأبعد بالنسبة لهذا القانون العنصري. فقانون السباحة والغسيل [1]، مثلاً، ضايق الذين شملهم، ولكنه لم يعرض تلك الأصناف ولا يعرضها للفناء. وكذلك قانون السباق[2] وقانون الإعلام[3]».

على العموم تسبب تقرير غراب البين الحقير في هياج الضبع الأكبر حتى فقدان

---

(١) نص قانون السباحة والغسيل في مادته الأولى على أن كل من غسل ثيابه وأراد تجفيفها أن يرتديها ثم يعلق معها على حبل الغسيل حتى تجف تماماً . . ونصت المادة الثانية أن لايجوز لمستحم من الطيور أن يجفف ريشه على الأرض أو طائراً في الفضاء بل يجب تعليقه كذلك على حبل الغسيل. وقد اعتبر المراقبون يومها أن هذه العرقلات في طريق النوافع عمداً وقصداً يراد بها إشاعة الجيفة في المملكة. أما صحف النظام فقد بررت هذا الإجراء بقولها: هكذا تكون المساواة وإلا فلا. فما معنى أن تسبح الجاموسة عشر مرات في اليوم ولا يسبح الجمل مرة في العام الواحد؟..

(٢) نص قانون السباق أن تجري الخيل إلى الوراء وبجانبها الحمير تركض إلى الأمام حتى تكون النتيجة دائماً لصالح الحمير ولصالح المراهنين على الحمير. ويذكر بهذا الصدد أن بطاقات المراهنة والـ Win place على الحمير تباع من شباك خاص ولايحق لأحد أن يصل إليه ما لم يكن من عائلة الضبع الأكبر..

(٣) نص قانون الإعلام والإنصات على الآتي: «جميع تعديلات القوانين يجب أن يصغي إليها سكان الغابة وأرجلهم إلى فوق». . وقد تسبب ذلك في جملة مشاكل بعضها مشاكل فاجعة. فالسلحفاة، مثلاً، إذا أذيع قانون من القوانين تنادي على الجيران لكي يقلبوها على ظهرها، فإذا تم سماع القانون، على خير وبركة، يعود الجيران حتى يقلبوها بالعدل. وكنا نقول في القرية «اسويك ركة شلب» إذ أن الركَّة في الشلب وهو لايزال صغيراً، تأكله وكذلك خلال مشيها تركسه في الطين، فيقوم الفلاحون بقلبها على ظهرها وإذاك لاتعدل نفسها حتى الموت. وتعرض البعير لعقوبات مشددة جراء تطبيق هذا القانون. فإنه حين ينقلب على ظهره تؤلمه حدبته فيروح يرغي، الأمر الذي يجلب انتباه رجال الأمن، وبالتالي، يعتقدون أن البعير يحتج على قوانين مملكة الضبع الأخضر. . ومعروف لكم أن ا لبعير سخي برغائه . .

توازنه واتخاذ قرارات خطيرة ماسبق لضبع من ضباع العالم أن اتخذ مثلها. منها، على سبيل المثال لا الحصر: تطلق النار فوراً على كل ثلاثة غزلان فأكثر يمشون سوية، قرار بتقييد الخيل يداً مع رِجْل بالخلاف، قرار بأن تسلم الطيور ريشها نهاراً إلى دوائر الأمن وتتسلمه بعد مغرب الشمس. وقرارات عقابية لاحصر لها. (هنا سطران ناقصان لم يلتقطهما التسجيل. . أ. ج.).

بادر وزير الإعلام وذهب بنفسه إلى دار الإذاعة ليشرف على إذاعة أغنية يعرف موقعها في قلب عظمة الضبع الأخضر، عل وعسى تنفرج أساريره قليلاً ويتخفف من حالة الكآبة والهيستيريا، تلك الأغنية التي ألقاها الحمار مرة في جلسة عائلية خاصة، ويومها أبدع وأجاد، إذ كان في مزاج حماري رائق لانظير له، بسبب أنه كان قد تجاوز، منذ عهد قريب، مرحلة الجحوشية، أي أنه مايزال في عنفوان الحمرنة، وكان الربيع سخياً فصلذاك. ويتذكر وزير الإعلام أن فخامة الضبع الأعظم قال عن الأغنية «تويه نادهرني» (بالتشيكية تعني لطيف جداً. . أ. ج.) وكلمات الأغنية تقول:

«أجلبنك ياليلي والدمع بعرور
اجمعنه واحطه شجار للتنور
أسد زاغور يطلعلي الف زاغور
وكل زاغور مفتوحة نبانيبه». .

. . . ومع ذلك لم تنفرج أسارير الضبع الأخضر وهو يسمع أغنيته المحبذة. وظل الحال على هذا المنوال والتوتر يتصاعد بصمت، حتى أعلن ذات صباح من شبكات الإذاعة والتلفزيون وأبرزت الصحف المسائية ذلك الخبر المثير على صفحاتها الأولى، ومفاده: إن الضبع قرر تأجيل القيام برحلة الصيد الفولكلورية إلى أجل يعلن في حينه. ورغم كل التعتيم الإعلامي فقد نشرت بعض وسائل الإعلام في الغابة المجاورة، أن التأجيل قد حصل بسبب اضطراب حبل الأمن. .

ماذا تعني رحلة الصيد الفولكلورية؟ من أجل أن نفهم أهميتها. طبعاً من نتائج الرخاء المفاجيء الذي عم المملكة، صار، عظمته، يتعرض لنوبات من الملل، نتيجة الرخاء ـ خير واجد وشغل ماكو ـ ففطن أحد المستشارين إلى هذه الحالة ونصحه أصغر مستشاريه، القرد الشمبانزي، بالتالي: نصحه بالعودة إلى الحياة البدائية نوعاً ما. فأمر عظمته، حسب توجيهات المستشار، ببناء قرية مثل اية قرية بشرية وفيها كلاب كثيرة تحرس البيوت، مثل قرى الرعاة والفلاحين. ثم أمر عظمته بوضع فطيسة حمار نافق عند مشرف القرية تتعارك حولها الكلاب بشراسة، وفي أثناء ذلك يسطو، مثل ماكان يفعل في الأيام الخوالي، ثم يهجم فجأة يطقطق بأسنانه ويخطف أكبر عظم من الفطيسة بخفة ثم يولي

الأدبار تطارده الكلاب على البعد وهي لاتعرف أنه هو صاحب العظمة الذي قام بهذه الفعلة.
وقد وجد الضبع الأكبر في هذه المغامرة أكبر تسلية، فصار يكررها بعد أن تتخذ الإجراءات الكافية لتمثيلها بنجاح بحيث تخبأ كاميرات التلفزيون في كل منعطف من طريق الضبع، وتنصب قرب الفطيسة في حفر مستورة ثلاث كاميرات تلفزيونية، لتصوير لحظة اختطافه للعظم. وصارت تذاع الوقائع في التلفزيون صبيحة اليوم التالي على القناتين: أبيض وأسود، وملون. وكانت وسائل الإعلام تصف رحلة الصيد هذه بأنها إحياء لأمجاد الآباء والأجداد. لكن أحد المحررين النابغين، في صحيفة العائلة المركزية، قال عن رحلة الصيد هذه بأنها تعني، فيما تعني من معان سامية لاحصر ولا عد لها، بأنها تعني الحفاظ على الفولكلور. وقد وقعت تلك التسمية في قلب عظمته موقع القبول والرضا، فأمر بأن تسمى تلك العملية «رحلة الصيد الفولكلورية السنوية». والآن، لأول مرة بعد عمر مديد ونضال مجيد يقرر عظمته تأجيل القيام برحلة الصيد الفولكلورية. فماذا يعني هذا؟

السكين

مؤيد عبد الستار

لم أكن أعلم كم يحتاج البيت من السكاكين، ولكنني كنت أعرف أن عليّ أن أحمل سكيناً للدفاع عن نفسي عند الضرورة، فطرقاتنا مظلمة ولاتكلف البلدية نفسها عناء إنارة الأزقة الموحلة أو حراستها من اللصوص المتربصين بالمارة والعائدين إلى بيوتهم ليلاً.

كان ذلك قبل سنوات، يومها ذهبت رفقة (أبو خضير) لنختار سكيناً، فهو أكثر أفراد شلتنا خبرة واهتماماً بالسكاكين وغالباً مايحمل معه أكثر من واحدة، وهو من المغرمين بالسكاكين ذات المقابض العاجية، يقلبها بين يديه متغزلاً بالمقبض العاجي المنحوت على شكل رأس غزالة أو سمكة.

وحين وقفنا أمام دكان بائع السكاكين (حميد ابن العورة) قال لي (أبو خضير) وهو يشير إلى سكين كبيرة معلقة على الجدار:

ـ انظر لتلك السكين البراقة، إنها تذبح البعير.

ـ ومافائدتها لي يا (أبو خضير)، لست قصاباً للإبل.. دعها، فهي كبيرة جداً ويصعب حملها.

ـ حسناً، خذ تلك السكين المعقوفة كمنقار الصقر. فألقاها (ابن العورة) أمامنا ودمدم وهو يدفع الكلمات من بين نواجذه التي عضت على سيجارة ملتوية:

ـ إنها غالية الثمن، يوم أمس بعت أختها بثلاثين ديناراً.

قلب أبو خضير شفتيه ولمسها برقة، فما كان مني إلا أن تدخلت بسرعة طالباً من (أبو

خضير) تركها لأني لاأستطيع دفع ثمنها الباهض.
ـ حسناً ناولنا تلك السكين ذات المقبض المرمري.
ـ تفضل، إنها سكين ثمينة، خسرها (ابن جاموسة) في القمار، لقد خسر الجمعة الماضية كل مايملك مع (حاتم أبو الثلج)، خذها بعشرين ديناراً فقط،
ـ لا . . لا . . أنا أبحث عن واحدة أصغر منها، أريدها أرخص . . مالهذا الغلاء، إن سكاكينك غالية جداً، لو كنا ذهبنا إلى سوق الهرج لحصلنا على سكاكين أرخص من هذه بكثير.

تناول (أبو خضير) السكين ورفعها عالياً وهزها يميناً وشمالاً وقال:
ـ لا . . ليست كبيرة، إنها جيدة للدفاع . . انظر ـ وخبط السكين في الهواء كمن يضرب شخصاً ماثلاً أمامه ـ فارتد (ابن العورة) إلى الوراء وهو يقول: أخي على كيفك، أنا أبيع السكاكين لاأتبارز بها.
ـ ولِمَ أنت خائف هكذا؟ أنا أحاول تجربة السكين.
ـ جرِّبها في معركة حقيقية، لاتجربها معي (ودفعاً لهذا الجدال، طلبت من ابن العورة أن يعرض لي سكيناً أصغر منها).
ـ تقصد أرخص منها . . حسناً، خذ هذه، إن ثمنها ثمانية دنانير فقط.

تناولها (أبو خضير) ونظر إليها باستخفاف وأعادها إليه:
ـ إنهالاتذبح فأرة، ولاتساوي قرشاً أحمر . . أعطنا تلك التي هناك . . فهي تبدو جيدة . .
ـ خذ، سكين جيدة بخمسة دنانير فقط. إنها تفتح آلياً، تضغط على هذا الزر فتنفتح لوحدها.
ـ آ . . إنها أم الياي، قال (أبو خضير)، وحين استفسرت منه عن معنى أم الياي، تطوع (ابن العورة) وشرح لي ذلك: بسبب هذا الزر يسمونها أم الياي، أي ذات الزر، مثل ذات الصواري، هل سمعت بمعركة ذات الصواري، يقولون إنها معركة قديمة ولكني لاأدري متى حدثت.
ـ زمان الإنجليز ـ قال (أبو خضير) واثقاً.
ـ وهل انتهى زمن الإنجليز، إنهم مازالوا يحكمون العالم. قال أحد الواقفين قرب الدكان، فردّ عليه (ابن العورة) قائلاً:
ـ لاأخي . . اليوم زمن الأمريكان، لقد مضى زمن الإنجليز.
ـ خوجة علي، ملا علي . . . لافرق، الإنجليز هم الأمريكان. علق (أبو خضير) بإيجاز. ثم تناول النقود من جيب قميصي وناول البائع الثمن، فأخذت السكين وأنا أردد مع نفسي أنها سكين خفيفة سهلة الحمل، سأضعها في جيب البنطلون الخلفي. فقال (أبو خضير):

ـ لكنها صغيرة لاتخيف أحداً.
ـ وهل أنا ذاهب بها إلى معركة العلمين؟
ـ لا . . إلى معركة الأرنبين، لماذا اشتريتها إذن؟
ـ ليطمئن قلبي.

كانت تلك السكين الوحيدة التي اشتريتها ولم أدخل بها أية معركة، واليوم وأنا أجد نفسي أعيش في مدينة كبيرة سماها الوالي مدينة (الضب) يتعين عليّ أن أعيش في حجرة صغيرة فيها بساط قديم وطباخ صغير وطاولة خشبية وعليّ أن أطهو طعامي بنفسي، فاضطررت للبحث عن سكين من جديد ولكن دون (أبو خضير) هذه المرة لأنه قتل منذ سنوات في معركة خاسرة مع الإنجليز أو غيرهم، فلا أعرف بالضبط، لأن الحكومة لم تخبر أمه الوحيدة أين وكيف قتل، فقد وجدوا جثته ملقاة أمام باب الدار صباح يوم مطير وطعنات السكاكين مزقتها تمزيقاً.

ذهبت إلى السوق وفتشت عن سكين جيدة فعثرت على بائع لاأعرف اسمه ووجدت لديه نوعاً واحداً من السكاكين. اشتريت واحدة وعدت إلى غرفتي كي أقطع الدجاجة المثلجة التي تركتها على الطاولة البائسة ليذوب ثلجها. . . وما أن مضى أسبوع على شرائي لتلك السكين حتى أصبحت كليلة، فذهبت أبحث عن واحدة أجود منها، بحثت في السوق والأزقة فلم أعثر على سكين أحسن، فعدت إلى البائع الأول مخذولاً أسأله عن الأمر وعن الحل، فأجابني:

ـ كما ترى، ليس أمامك إلا أن تشتري واحدة أخرى منها.
ـ ولكن، ألا نصرخ صباح مساء ومنذ سنين، بأننا سنحارب؟
ـ نحارب من؟ سألني باندهاش.
ـ عدونا.
ـ ومن هو عدونا؟ آه. . . تذكرت. وهل سنحارب عدونا بالسكاكين؟
ـ بماذا إذن؟
ـ بالطائرات والصواريخ والمدافع.
ـ وهل نصنع هذه الأشياء؟
ـ نشتريها.
ـ وإن لم نستطع؟
ـ لاغالب إلا الله.

فانحنيت على الأرض ورفعت حجراً. . ابتعدت بضع خطوات عن دكانه ورميته في الفضاء بقوة.

البغل المنعل

دزوار

وقعت أحداث هذه القصة صيف عام ١٩٧٤ بين مدينتي سميل ودهوك، وقائع عام ١٩٧٤ شبيهة بنيسان ١٩٩١ فقد ترك سكان المدن والقرى بيوتهم والتجؤوا إلى الجبال خوفاً من بطش نظام البعث في بغداد. فأصبحت المدن شبه خالية والدكاكين والمحلات مهجورة وقام جلاوزة صدام بأعمال النهب والسلب، ولم يبق في المدن إلا نفر قليل ممن تعذر عليهم الهرب.

كان برو أحد المواطنين الذين عز عليه ترك داره ومواشيه وبقي في داره مع نفر قليل من المواطنين في قضاء (سيميل).

أراد (برو) أن يتوجه إلى دهوك وكان بغله يحتاج إلى حذاء جديد، ففي صباح أحد الأيام غادر البيت مبكراً قاصداً دهوك وكان الطريق خالياً وموحشاً، فالسيارات قليلة وقلما تجد مارة، والشارع الطويل لايؤنس العم (برو) وكانت هنالك ربايا للجيش على جانبي الشارع العام والجنود مختبئين في ملاجئهم من حر الصيف. . والعم (برو) يتخيل مدينة دهوك، مطاعمها وأسواقها، كان برو بين حين وآخر يخرج كيس التتن من خاصرته ويلف سيكارة وهو على ظهر البغل يتهزهز. السيكارة كانت تؤنسه وتذهب عنه عناء التفكير والهموم ووحشة الطريق. وصل العم إلى المدينة واتجه مباشرة إلى صاحبه (سمو) وكم كانت فرحته كبيرة عند مشاهدته المنعل ينتظر الزبائن.

رحب المنعل بالصديق القديم، نهض واستقبله بحرارة ودار بينهما حديث قصير. .

ترك البغل عند المنعل وقام بجولة في أسواق دهوك شبه الخالية وتناول غداءه. عاد النشاط إلى جسمه وجلس في أحد المقاهي الصغيرة وتناول الشاي.

قصد (برو) المنعل ووجد بغله مربوطاً يتباهى بحذائه الجديد. شكره (برو) على عمله وأكرمه.

ركب (برو) بغله قاصداً سيميل ثانية وعند مدخل المدينة كانت هناك نقطة سيطرة للأمن والجيش وكان لابد من المرور في هذه النقطة لوجود ربايا الجيش على جانبي الطريق. . توقف (برو) وسأله أحد رجال الأمن:

- وين رايح؟

- إلى سيميل.

- وين هويتك؟

قدم له (برو) الهوية.

- وهذا البغل؟

- البغل؟!

- نعم البغل لمن ووين ورقة عدم التعرض للبغل؟

استغرب (برو) من هذا الطلب الغريب واستطرد قائلاً:

- ولكن شاهدتني في الصباح وأنا أمر أمامك ولم تسألني مثل هذا السؤال.

- لاتطول الكلام. ارجع واجلب ورقة عبور البغل من المحافظة.

اضطر (برو) للعودة وكان الوقت مساء، فلم تعد هناك دوائر حكومية واضطر للتوجه إلى بيت صاحبه المنعل (سمو) وقضى ليلته هناك.

وفي صباح اليوم التالي توجه إلى دائرة المحافظة. . ونزل من على ظهر البغل وربطه بعمود الكهرباء. صعد الدرج وتوجه إلى شعبة الاستعلامات وبين للموظف قضيته أرشده الموظف إلى الطريق. قدم (برو) عريضة، فاندهش بعض الموظفين من هذا الطلب الغريب، تدرج الطلب إلى أن وصل المحافظ، وكتب عليه (يكتب استفسار لقائمقامية (سيميل) حول عائدية البغل للمومى إليه).

عريضة (برو)تنتقل من موظف إلى آخر ومن غرفة إلى أخرى والموظفون ينظرون إليه نظرتهم إلى ممثل كوميدي بطلبه هذا، ومنذ الصباح الباكر و(عمو برو) يشتم ويلعن البغل ونفسه وقرر بيع البغل، وكانت الأسئلة تنهال عليه من الموظفين (ها عمو برو سويت باسبورت للبغل - عمو وين تسافر لأوروبا؟ عمي جيبنا وياك هدية. . . و. .) ونار الغضب تشتعل في نفسه.

استلم (برو) كتاب الاستفسار إلى (سيميل) وتوجه إلى البغل وانهال عليه بالسب والشتم والضرب وتركه مربوطاً في مكانه. قصد (برو) سيميل ووصل البيت في وقت متأخر وكانت العائلة في انتظاره وقد طال غيابه، وكان منظره كئيباً وعيناه محمرتين وظهرت السواقي على جبينه من شدة الغضب وفي صباح اليوم الثالث قصد بناية القائمقامية وقدم لهم كتاب الاستفسار، طلبوا منه شاهدين لإثبات صحة عائدية البغل وكان هذا أمراً سهلاً فهو بين مواطنيه. وقبل نهاية الدوام استلم من القائمقامية كتاب الاعتراف بالعائدية.

وفي صباح اليوم التالي توجه إلى دهوك والبغل مازال مربوطاً هناك وكان يحمل له وجبة إفطار.

ثم توجه بسرعة إلى الواردة وقدم لهم الطلب. وانهالت عليه الأسئلة المثيرة من قبل الموظفين مرة أخرى. ولكن (عمو برو) كان قد هدأ بعض الشيء ووافق المحافظ على طلبه. وصدر به كتاباً كما يلي: (لامانع لدينا من مرور البغل المنعل العائد إلى المدعو برو إلى سيميل).

استلم (برو) كتابه وقد رسمت الفرحة صورتها على وجهه، هنأه الموظفون على هذا الإنجاز الثوري العظيم. حقاً إنها مفخرة أن يحصل البغل على جواز سفر.

ودع الموظفون العم (برو) وطلبوا منه أن لاينسى الهدايا من تركيا أو أوروبا. . امتطى العم بغله وهو يبتسم ويودعهم. . (وكم كان بودي أن أحصل على نسخة من هذا الكتاب ولكن لم أفلح). . .

١٩٩١/١١/٢٥

نوارس بلا بر

عبد جعفر

الصراخ يدوي من الدار، بركاناً لايعرف الهدوء، لم أستطع أن أراه جيداً، بين السيل الأسود من النساء. . ابتسم لي وضغط على يدي كعادته، وتهيأت لسخريته المعتادة، ظل يبتسم فانتهزت الفرصة وقلت له مازحاً. .

ـ كان الخازوق كبيراً بحجم. . . . !!

ظل يبتسم، ولكن عينيه التمعتا بالغضب، وسرعان ماانهالت عليّ كلماته كالسياط، مهما كان الخازوق كبيراً، فإني لم ولن أقدم أي شيء لهم. . أخاف أنا من الجبناء والصعاليك، أنا. . أنا. . وأختتم سلسلة الأنا بضحكة قوية، توقفت عن سؤالي الراجم له. .

ـ إذا لم تخوزق. . ولم تضرب. . فكيف تركوك؟

عادت ضحكته ثانية تجلجل، وابتسامته العذبة التي أكرهها اليوم كعذاب في المواربة والخديعة.

ـ قلت لك. . لم ولن. . وأطلقوني هكذا. . فأنا كما تعرف لست جباناً ولست ماتظن. .

ابتسم لي، صراخ النساء يزداد، وجه مصفر وذابل. . اللعنة على هذه الابتسامة الخبيثة، انهارت كل سماوات الثقة، والطمأنينة أصبحت زجاجاً متناثراً، تركت مساحات الغفوة.

هجت في البيت كالثور، مزقت صوره، وسفحت تاريخاً طويلاً من الحب والصداقة والذكريات، هنا في المدرسة، وهنالك احتمينا في الأهوار، وهذا هو يرقص في إحدى المناسبات، ها هو يبتسم، وضعت حذائي على وجهه لأقتل هذه الابتسامة الخبيثة، ثلاثون عاماً وهو يخدعني، أطفالي وزوجتي يرتجفون من الخوف.. قالت زوجتي:

ـ فعلتها.. أتشرب في النهار هذا السم؟

ـ اخرسي!

ـ ألا تخجل من شيبك؟!

هممت أن أضربها، فكسرت صورة أخرى، تناثر زجاجها، جرحني فحطمت آخر ابتساماته بدمي. النساء يدوين بالصراخ. وهو بوجهه الأصفر الذابل يبدو محايداً تماماً، هيكله العظمي أصبح صغيراً وضئيلاً جداً.. منذ خروجه وهو ينحل ويضعف، ولكنه يبتسم، يااللعنة!! حتى وأنا أنقل زوجتي وأطفالي إلى بيت آخر، أحس بأن ابتسامته اللعينة هذه تطاردني.

ـ كنت أحسبك رجلاً؟

ـ صدقني.. لم أتعاون معهم..

ـ كم دفعوا لك.. بعتني برخص!

ـ كنت أحسبك متوازناً؟

بصق على الأرض وحمل أوراقه ومضى، عن أي توازن يتحدث، كل شيء يميد من تحتنا، السنوات الثلاثون تتحول إلى شرك رهيب، سيأتون ليأخذوني.. ليكن مايكون.. أطفالي وزوجتي في أمان، وعلي الآن أن أدفع ثمن خيانة بطل، صرح كبير تداعى كبناء حزب، انفرط كمسبحة خيطها لم يقو على حمل الحبات.. لم أعد أرى وجهه.. السيل الأسود تكاثر. تكاثر كغمامة لاتمطر. مضى يوم،، يومان.. أسبوع، أسبوعان.. ولم يأتوا. ربما هم يوهمونني بالحرية، يوهمونني أنه لم يخن، ولم يكبلوني بعد خروجه مباشرة.. أين الهروب؟ خلفك ست عيون وزوجة، وأمامك حصار لايُعرَف مداه.. كنت أدخن في لياليّ القلقات هذه، ومااكثرهن، لاأعرف من أين يأتي العدو الذي يختبر بأنيابه، التوازن في نفسي، سيأتي، وأنا لاأحمل مايحميني منه.. دجنتني المدينة ووظيفتها اللعينة..

ـ لماذا لاتنام؟ قالت زوجتي متثائبة.

ـ إني أنتظرهم.. لاأريدهم يرعبون الأطفال.

ـ لو عرفوك لما تأخروا عن سحلك من الشارع..!!

ـ لكنه اعترف.. باعني هذا الكلب!

ـ ربما يكون صادقاً في كلامه . . إنه مريض جداً، على وشك الموت!
ـ من أخبرك؟
ـ زوجته .

عاد شريط السنين يلتحم، ويتحـد، ويشعل نار الوجدان لصداقة عركتها السنون والمواقف، كم مرة حملني جريحاً؟ وكم مرة أوقفني من السقوط؟ أمعقولة . . لماذا . . لماذا ستمـوت كحصـان أعجف، مسوِّداً كل صفحاتك البيضاء؟ انهمرت دموعي . . أفكاري السوداء التي تلدغني كحشرة من كل الجهات، هرشت بقوة شعري، قفزت، لبست ثيابي بسرعة، ونزلت للشارع، كان بيته مضاء في هذه الساعة المتأخرة من الليل، هل مات؟ تقدمت نحو الضياء، غير مبال بالكشاف القلق على وجهي، وحرقة الذكريات العميقة التي تلبستني وأنا أدخل إليه .

ـ ها . . . جئت أخيراً .

ابتسم . . حتى في هذا الـوضع يبتسم، إنه يبتسم أم يسخر؟ الأحرف تموت في قلقي، وأنا أرى عيونه الغائرة، وشعره المتساقط، ووجهه الذابل . .

ـ ماذا فعلوا بك . . لماذا تكذب؟
ـ لاشيء . . .
ـ لاشيء . . لاشيء؟!

ارتفع صوتي . . نظرت لي زوجته عاتبة، وهي تراقب أطفالها الممددين الذين لم يفهموا أن رجلاً بكامل صحته، جاء لينتقم من ضعيف بين الموت والحياة .

رخمت صوتي قليلاً :

ـ عمَّ سألوك؟
ـ سألوني . . عن كل شيء . .

أخـذ يلهث، كمن جرى مسـافـات طويلة، هل أتعبوك لهذا الحد أيها الحصان العجوز؟! . . تنفسه يسرع، أخذ يرتجف بقوة . . وعلا سعاله .

صرخت زوجته :

ـ اتركه ياأخي . . ألا توجد في قلبك رحمة؟!

أشار إليها باصبعه أن تهدأ . . وجاء كلامه متناثراً يخلخل البكاء والحرج والعيون المتسائلة .

ـ لم أجب عن كل شيء . . ثم قالـوا لي أذهب إلى البيت . . بعـد أن قدمـوا لي كأس عصير . . هذا كل شيء . .
ـ كأس عصير!

أومأ برأسه . . فتكومت منتحباً، مشكلاً الهرموني المتناسق مع زوجته، باكياً صداقة شوهتها بالظنون ووفاء لم تلطخه المخاوف، ضحكة صافية كان، طائر نورس يدلنا إلى الشاطىء الأمان.

- إنه الثاليوم!!

الصراخ يدوي . . يرتفع نورس البحر الأبيض المرفرف فوق الأذرع، والسيل الأسود من النساء، إنه يعيد لي توازن الأشياء التي كدت أفقدها في اللجة الكاذبة، سفن القلق والخوف تنأى، لتبقى العيون الدامعة تتابع طيران النوارس البيضاء التي أبعدتها المدينة المخنوقة بالثاليوم كثيراً عن الشواطىء الآمنة!

عدن

١٩٨٩/٢/١٧

ليلة في اذار

عدنان السعدون

وقف ورفيقه أمام غابة نخيل كانت يوماً غابة كثيفة تؤطّر الضفة الغربية لشط العرب من البصرة حتى الفاو. . . بدت له عبادان عبر النهر مجموعة من خرسانات البناء وخزانات النفط. . حاول أن يجد أصغر ممر عبر النهر وبعيداً عن نقاط الحراسة المنتشرة بكثافة في (السيبة)، نظر إلى رفيقه ووجهه المتعب ليتبين آثار عشر سنوات من الأسر في إيران، وها هو يهرب من وطنه إلى آسريه من جديد. .

كانت خيوط أشعة الشمس تميل إلى اللون الذهبي، وجنود الحراسة يتجمعون حول إناء من القصدير ليتناولوا عشاءهم مع زملائهم الباقين.

اختارا بقعة جافة بين أعشاب ضفة النهر واختفيا عن عيون الحراس بانتظار حلول الظلام. . لحظات الانتظار تمر ببطء. . حثّ زميله أن يكون هادئاً ويمتنع عن الكلام عندما يعبران النهر. . بدأ ضوء القمر يسطع على سطح المياه رغم الغيوم السوداء المتناثرة. . . وإذ أخذ الظلام يلف المكان وينشر غيومه السوداء ـ هو أيضاً ـ على الأرض والمياه. . ولجا الماء بحذر. . ارتجف وأحس ببرودة الماء تسري في دمه وكأنها تريد تنظيفه من درن ماتبقى من أيام الاعتقال.

ارتعش وأحسّ بتجمد أطرافه والماء يلطم وجهه بأمواجه الصغيرة المتتالية. . حاول وسط الظلام المترامي تحديد مكانه والمسافة التي عليهما قطعها للوصول إلى الضفة الأخرى. . لم يستطع رؤية رفيقه الذي أحس بتعب مهلك وبدأ يطالبه بالعودة. . حاول تهدئته وحثّه على التقدم. . إلا أنه شعر بشيء ثقيل يشدّه إلى الأسفل. . التفت إلى الوراء. . لم ير شيئاً. . لكنه سمع بضع همهمات مختنقة صادرة من جهة رفيقه. . رجع

إليه ويبدأ يبحث عنه. . ارتطمت يده برأسه. . كبح نفسه عن الصراخ أو أن يصيح بصوت عال يلفت انتباه الحراس الذين كانوا يراقبون النهر بعيون وحشية. . رأى جسماً ينتفض أمامه ويغطس في الماء مرة بعد أخرى، حاول إمساكه من يده أو أي جزء من جسمه ففشل. .

غطس خلفه في الماء. لم ير شيئاً في ذلك المجهول الدامس. . قبضت يده على بعض الأعشاب. . تصورها أحد أعضاء جسم زميله. . تركها وترك معها الحيرة والذهول يسيطران عليه كما يسيطر هذا الليل الأبدي على أطراف (السيبة). صعد إلى سطح الماء، والمرارة والخيبة والبرد تجعله كعصفور أثقله المطر. . لايدري كيف تخيّل نهاراً منذّى بضحكات أطفال أفزعهم صوت المجنزرات، تذكّر أصوات رجال الاستخبارات وماسمعه منهم من كلمات السخرية والازدراء والشتائم القبيحة، وضربات العصا الكهربائية والماء البارد في الشتاء وصراخ الرفاق في الزنزانات المجاورة وأنين نهارات تموز وأغاني من ماتوا ولم يموتوا بعد.

شعر بثقل جسمه وحاول العوم بجهد أكبر للعودة مرة أخرى إلى الشاطىء الذي غادره ثاني اثنين ليعود إليه وحيداً كسيراً. . تراءت له الأمتار التي تفصله عن الأرض كأنها سور الصين العظيم بامتداده على الأرض. . إحساسه بالخدر يشمل كل جسمه. . أغمض عينيه قليلاً وبدأت يداه كدفّتي قارب تشقّان طريقهما في الماء.

شعر ـ وهو يخوض وسط الماء ـ بقدميه تلامسان الطين اللزج في قاع النهر البارد. . وقف وسط نباتات الماء، وحرقة مشوبة بعطش أسفل بلعومه بالرغم من عدم إحساسه بالعطش ووجوده في الماء طوال الليل. . تمدّد على بقعة من الأرض يعلوها حشيش متناثر والرغبة بالموت والعدم والخواء ساكن إحساسه. . . نظر إلى النجوم والقمر الذي يطل بين آونة وأخرى من بين الغيوم السوداء التي بدأت تتكاثف في السماء ومعها ذكريات الليالي السابقة، والأيام التي مضت. . الريح بدأت تئز وتخز جسمه بلسعات باردة، شعر بالنعاس على صوت أحد الحراس الذي يغني أغنية حزينة. . التعب أثقل جفنيه وأغلقهما رغم جميع الآلام. .

هبّ من النوم على أثر ضربة قوية على رأسه وارتطام وجهه بالأرض. . رفع رأسه مفزوعاً محدّقاً حوله، فرأى بنادق مصوّبة نحوه ومجموعة من الجنود يقودهم ضابط كالح الوجه، يشكلون دائرة حوله. . . كانت أشعة الشمس تشع على نخلات متناثرة. . أحس بالإرهاق وأغفى من جديد. .

الارطاوية

٣-٤ تموز ١٩٩١

خيمة النشيج الرطبة(*)

أديب نادر

ريحُ الحبِّ كانت تغدو راعياً
وتقودهم إلى المدينه
. . . .
. . . .
كل الحبور سكن خارج الجسد
كل الأشياء خارج الوطن لها مذاق الردى
كل الأشياء خارج الحبِّ عبث
كل الأشياء في الحبِّ ضاجةٌ بالضنى والقلق
. . . .
. . . .
من أين تأتي؟!!
وكأنك تحملُ مجمرةَ عراء الأزقة
في مآقيك وخطاك

(*) النص مترجم عن الكردية.

وترى احتراق بلاستيك سطوح البيوت
وتلك الأغصانُ مياه الطفولة
أدوات عصر الحجر البدائية
تجرجرها سنابككَ المغبرة
أصابعك تجعلها الآن طحيناً أبلق
وتغدو فضاءات
ما من قطار يمضي بتخوم ديارك المعتقلة
كي يسرقك الوعث
ويمنحكَ حلماً مهدياً
- إلى أين تمضي
ما بين الغسق وصحوة المساء
تتضرج بألوان الأفول الناعسة
مثل صدىً جامح
تضيعُ في عربدة فراغات الأخيلة
مثلَ رجع صوت كبا
تتخذُ التفاتةَ الرجوع
كي تموتَ في حشودٍ عارية

* * *

أبداً يسألون
لا أحد يقول أين سيكون ملاذ استقرارك
لا أحد يفكربحياة الغد
حتى تلك السمكة القزحية في الحوض
تريد ان تقضم أناملي
- أناملي آخذة بالجفاف
حتى تلك - عندما لايكون بمقدورها -
تبتعد وتهجرني في محيط الصداقة اللانهائي
أراك!!
وعيناك أيضاً، شجرة الشؤم الخبيرة

تضرج باكورة أوراقها في دمي
تلك النظرات المجترة ما بين جفوني
تلتصق بتلك الجغرافيا الممسوسة المتناثرة

* * *

المحاربون!
يطلقون أصابعهم وعيونهم الجائعة
صوب صدور القرويات
القرى مكدودة
والارجل المهاجرة تضجر من القيام
كالمرايا المعلقة تنسى مابها
وعلى الجدران الترابية
تعتلي صهوة الجواد المحتضر في الغبار
ترتمي في سلة الهاربين الأبديين
من يلمح تلك اللبنة والتراب
من لم يشمّ
عفونة احتضار هذا الوطن
وفي عصف ذلك الرمل الأبدي
في غابة دخان الأحراش المضيئة بالأوار
لم يستقر
الاحتراق يمنح حرقته لكل الأشياء
النشيج يوشح بخيمته الرطبة
عيوناً محرومة من المدى
هذه الرحى الجوفاء
دوماً تدوي على رفاتنا
أجسادنا دوارق مرآتية
ينبعث منها دخان الكيمياء الأصفر

قصائد ـ رصيف

فراس سليمان محمد

رصيف

الرصيف عارٍ
جاء شاعر مخنوق بالمسافات..
والتشرد
أسدل الستار على النهار
وبكل أُبّهةٍ وغُنْج
تمدّد الليل
وفي الصباح
عندما مرت الاقنعة
كان الرصيف يزرر قميصه
وكان الشاعر عارياً

من أجلنا نحن

من أجل الذين يكون في الشارع

مودّعين حمامة
الذين يُهيّجون الجدران
ويرمون تفاحة الكلام المترهلة
تحت مدحلة الليل
من أجلنا نحن الذين نفقد أضلاعنا
وننسى جلَّ قلوبنا على مقاعد التعب
ستأتي قيثارات القصائد
حيث الايام واسعة والاصابع فضفاضة

الحارس يضحك

الحارس يقذف حبة البندق في الهواء
ثم يلتقطها بفمه
الحارس يقذف حبة البندق في الهواء
ثم يُطلق عليها رصاصةً . . ويضحك
الحارس لم يعد لديه بندق
الحارس يطلق عليَّ رصاصة . . ويضحك
الحارس . . يضحك

أنشوطة

حين تصير البلاد
أنشوطةً حول عنقك
فاعلم أنك
محارب مهزوم
وعاشق منتصر!

في آخر الشارع

نبحث عن أغنية مشردة
عن حبٍ لا يخجل من الجلوس
على الرصيف
انظر . . الشمس عربة تجرّها الكلاب
انظر . . كواكب الحزن
تتدحرج على الاسطحة
وجدران الابنية
انظر . . في آخر الشارع
بندقية واقفة
ورجل نائم!

دعوة

أنت امرأة فقيرة . . وشاهقة
أنتِ امرأة تمتلكين أدغالاً من جوع
ومشاهدَ لا تُرى
أنا رجل غبيّ
أقدّم لكِ إضمامة من الجنون
وأدعوكَ للمنفى
كي لا يغادرني الوطن

١٩٨٨ - ١٩٨٧

من مجموعة «رصيف» المعدة للطبع

لقاء مع الشاعر المكسيكي (اوكتافيو باث)

اوكتافيو باث شاعر للجميع

أجراه في باريس د. جواد بشارة

أوكتافيو باث هو بلا شك واحد من آخر المبدعين الذين يستحقون فعلاً صفة العالمية، فجائزة نوبل جاءت لتتوجه شاعراً عالمياً اجتاز وتعايش وجسد مختلف الثقافات وضمنها ثقافات الشرق الأقصى. وإذا كان الشاعر يكتب شعره بلغته الأم بصورة رائعة فهو متمكن كذلك بالتعبير عن نفسه شعرياً باللغة الإنجليزية والفرنسية. ولد (أوكتافيو باث) في المكسيك سنة ١٩١٤ واكتشف (جان جاك روسو، وميشلية، وفيكتور هيغو) في مكتبة جده الكاتب المكسيكي الأصيل، وكذلك عبر قراءات والده محامي الفلاحين الفقراء، ورفيق الثائر المكسيكي المعروف امليانوا زاباتا.

إن حياة الشاعر (أوكتافيو باث)، خليط من العمل والتأمل والتفكير والخلق والإبداع والمغامرات واللحظات المتفجرة. فقد كان سفيراً للمكسيك في الهند سنة ١٩٦٨، إلا أنه استقال من منصبه احتجاجاً على إطلاق الحكومة المكسيكية النار على الطلاب. وهو مؤلف الأثر الأدبي الكلاسيكي للأدب المعاصر (تيه الوجدة) وهو دراسة بلد بكل تناقضاته، أي بلده، وهي تناقضات كان يراها هو أيضاً باعتبارها نقاط تلاقٍ. وهذه التلاقيات كانت عنواناً لأحد كتبه اللاحقة. والشاعر بذاته عنوان لهذا التناقض والتوافق الحياتي، فعندما كان شاباً التحق بصفوف الجمهوريين الإسبانيين، وكان من أوائل من دان الأنظمة الكليانية الدكتاتورية، وكان ديبلوماسياً ومدرساً جامعياً في الولايات المتحدة الأمريكية، ومدير (مجلة

مكسيكو) وكاتب افتتاحية كتالوجات الكثير من المعارض الكبرى التي أقيمت في باريس لصديقه أندريه بريتون ولدوشومب ولعالم اللغويات والألسنيات رومان جاكوبسون وللشاعر الأمريكي روبيرت فروست وبحث عن الياباني ماتسيو باشو. كان يقول (إن أبناء جيلي سمعوا وشاهدوا رجال الكنيسة يتحمسون ويدافعون عن فرانكو)، وهو في هذا اللقاء يتذكر الماضي ويتفحص الحاضر ويتساءل عن المستقبل.

■ هل تتذكر مجيئك إلى أوروبا؟

● كان ذلك عام ١٩٣٧ في شهر حزيران. وصلت إلى أوروبا محملاً بكثير من المشاعر والانفعالات، وقد جئت بالباخرة كما كانت تقتضي ظروف ذلك الوقت. هبطت في (شيربورغ) ثم استقليت القطار للذهاب إلى باريس، وكانت أولى المناظر الطبيعية الريفية التي تلقتها عيناي هي حقول النورماندي وياربي في اورفيلي. ووصلت بحقائبي إلى محطة (سانت لازار) وعلى رصيف المحطة كان هناك رجل ينادي «اوكتافيو باث. . . اوكتافيو باث» حيث كان صوته يختلط بصوت الحمالين الشيوخ الذين كانوا يملؤون المحطة في تلك الأيام، ويدفعون أمامهم عرباتهم القديمة عارضين خدماتهم على المسافرين. وكان ذلك الشخص الذي ينتظرني وينادي على هو (بابلو نيرودا). لم أكن أعرفه بعد حينذاك لكني كنت معجباً جداً بكتاباته، وكان يرافقه رجل آخر أنيق يرتدي بدلة قاتمة قدمه لي قائلاً: «أقدم لك الشاعر لوي اراغون».

في تلك الأيام لم يكن هناك مايدهش عند تقديم شخص إلى شخص آخر، البدء بصفته بأن يقال أقدم لك الشاعر أو الرسام أو الكاتب قبل نطق اسمه. كان ذلك عشية انعقاد المؤتمر المعادي للفاشية في (فالانس) حيث كنت مدعواً. أمضيت أول يوم من أيامي الباريسية مع (بابلو نيرودا) وأستعيدها بذاكرتي كسلسلة متعاقبة من الصور الرائعة. كنت هائماً في عظمة باريس في الصيف بكل مآثرها وشوارعها وصرحها ونصبها ومتاحفها. كثيراً ماأشارت إليها الكتب ووصفتها عند قراءتي لها في طفولتي ومراهقتي. وها هي أصبحت في ذلك اليوم أمام ناظري كانت غيوم اندلاع حرب عالمية تحوم في السماء والعلامات تلوح في الأفق وتنذر بالشر والحرب الإسبانية وصلت إلى ماوصلت إليه من مأزق. لم يكن اسم (أراغون) غريباً علي أو مجهولاً عندي، فقد كنت قد قرأت له بعض القصائد ونصاً سريالياً أدهشني. وفي اليوم التالي ذهبنا للقنصلية الإسبانية لطلب تأشيرة دخول، وهناك برز لي شخص آخر هو (لوي بونويل). وهكذا تعرفت خلال ثمان وأربعين ساعة على أراغون ونيرودا وبونويل. فكيف يمكن أن أنسى شهر حزيران من عام ١٩٣٧ الرائع هذا؟

■ كان دخولاً لباريس، ولكن أيضاً دخولاً للشعر من أوسع أبوابه، حين كان الشعر يلعب دوراً أساسياً في الحياة الثقافية آنذاك. .

● كانت فرنسا في ذلك الوقت المركز الأساسي للأدب بالنسبة لأمريكا اللاتينية، وللشاب المكسيكي القادم من الأقاليم الذي كنته في تلك الأيام. كانت هناك شخصيات وأسماء كبيرة مشهورة ولامعة، ليس فقط بالنسبة لجيلي فحسب، بل وحتى بالنسبة للجيل الذي سبقنا، ومن هذه الأسماء كان (بول فاليري)، كان الشاعر والمفكر في نفس الوقت، وتقربنا أيضاً من (جان كوكتو) وبالطبع كان هناك (أندريه جيد) أيضاً الذي كان نبي الثقافة والأدب، والفنار المشتعل لتلك الحقبة الزمنية. هذا ماكنا نراه نحن من المكسيك. اكتشف الشباب المثقف في بلدي السريالية، وكان أندريه بريتون قد زار مكسيكو بعد ذلك بعام. كنا نقرأ (أندريه مالرو) كثيراً أيضاً. كان كتاب (الشرط الإنساني) اكتشافاً مهماً في حياتي. لأن ذلك العالم الذي كان يناقشه ويتحمس له ويخلقه مرتبطاً بالثورة، وبفكرة الحرب، وبوسواس صعود الفاشية وهتلر إلخ. . وكان (مؤتمر الكتاب) قد عقد قبل عام في باريس حيث شارك فيه بنشاط كل من أندريه جيد وأندريه مالرو ولوي أراغون، وكانوا مؤثرين فيه.

■ هل كان (مالرو) مؤثراً فيكم، ومهماً عندكم إلى هذه الدرجة؟

● نعم كان مهماً جداً. فهو أولاً مقاتل الحرب الإسبانية، أي الجندي والفنان، وهذين عنوانين فخريين يمتزجان في شخص واحد، وكما تعرف فإن للشعر في العالم كله مكانته الكبيرة.

■ لقد استمر الإعجاب والتقدير للشاعر ـ الأمر الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر ـ حتى في تلك الأيام؟

● أعتقد أن الجديد والأساسي في العالم المعاصر هو اختفاء أو احتجاب الوجه الشعبي والجماهيري للشاعر. لو فكرت بفرنسا القرن العشرين، يوجد فيها كثيرون ـ من مالرو إلى سيلين ـ من كتاب النثر الشاعري من الطراز الأول، ولكن لم يعد الشاعر شخصية أدبية مركزية في الحياة الثقافية الفرنسية، فالفرنسيون بطبيعتهم ربما يقل حبهم للشعراء عن حب الأنجلو ساكسون للشعراء.

■ وإلى أي شيء يمكن أن تعزي ذلك؟

● الثورة اللغوية الكبرى تعود إلى فترة «الرمزية» وكانت بتأثير الشعراء، لكن هذه الثورة أبعدت الشعر عن العامة أو عن الجمهور. ولاستعادة الصلة بين الشعر والجمهور، علينا أن نسترجع الجانب الصوتي من المعادلة، وأقصد به الإلقاء. فالأشكال الشعرية الحديثة كتابية، وفي الوقت الحاضر، ليس الشعر وحده، بل الأدب بصفة عامة، يجتاز فترة صعبة بسبب هيمنة ثقافة الصورة ـ وأقصد بذلك السينما والتلفزيون بشكل خاص.

■ ألا تعتقد أن الأغنية لم تعد بالنسبة للجمهور، سوى البديل الباهت أو الوريث الشاحب للشعر؟

● أعتقد آن الأغنية كانت دائماً نوعاً من البديل الخافت، ولكن ليس للشعر بل للشعر الشعبي، فقصائد القرون الوسطى وعصر النهضة قد غنيت على لسان الجميع، ولم يحصل الطلاق بين المحكي والمكتوب إلا إبان القرن الثامن عشر، وبهذا المعنى يصبح التلفزيون عموماً، التقليد المنطوق أو المحكي ـ الذي يمكن أن يؤثر على الرواية بصورة ما، كونها فن الكتابة ـ لكنه لايؤثر على الشعر، لأنه بطبيعته فن منطوق يأخذ تألقه الكامل عند إلقائه. أحد الظواهر الإيجابية للحالة الاجتماعية للشعر في نهاية هذا القرن، هي الأهمية الكبيرة المعطاة مؤخراً، في أمريكا خاصة وفي روسيا، للأمسيات الشعرية المنظمة ولحفلات الإلقاء الشعري، وهو ليس إرثاً من الماضي، بل شيئاً جديداً ظهر مع جيل من الفنانين، مثل الين وغانسبورغ، فما هو هدف الشعر المعاصر اليوم وقضيته الكبرى؟ إنها استعادة أرضية المواضيع المعاشة، التي هجرها الشعر لصالح النثر، ولهذا ربما يتوجب عليه كذلك عثوره على الإيقاع وربما اللغة الشعبية، وقد يحتاج الأمر لجيل بأكمله لتحقيق هذه المهمة. كان بودلير أول من أدخل اللغة النقدية ـ التي يمكن أن نقول عنها لغة المدينة ـ في القصيدة. فالروائي هو تزاوج أو تحالف بين ملكتين وموهبتين مختلفتين جداً. فمن جهة، التحليل، وإمكانية دراسة دواخل الشخصيات والولوج إلى أعماقها والتأمل فيها، ومن جهة ثانية التكييف والجمع بين المتناقضات. وهذا تجميع صعب. بينما الشاعر هو تأليفي وتركيبي بطبيعته، فقد كتب الشعراء في الماضي قصائد طويلة ملحمية كانت عبارة عن روايات. تاس واريوست كتبوا روايات بلغة شعرية موزونة، وسيرفانتيس أعاد كتابة مؤلفات اريوست نثراً وكانت النتيجة (دون كيشوتة) ولنعد إلى موضوع اللغة المنطوقة أو المحكية، وعدم اليأس من تزويجها بالشعر، لايجب أن نفقد السوابق ـ في اسبانيا لوركا وفي فرنسا حالة بريفير أمر ملفت للنظر ـ وكان هنري ميشو يحبهما كثيراً.

■ لقد سبق أن قلت أن (هنري ميشو) أحد أكثر الذين أدهشوك وجذبوك؟

● تعرفت عليه بفضل (فيكتور سيرج)، كان عمري آنذاك اثنان أو ثلاثة وعشرين عاماً. كنا نتحدث كثيراً عن الثورة، وكنت أكره الشعر السياسي. والسرياليون يدافعون عن النظرية التي تقول أن النشاط الشعري مرتبط بالنشاط الثوري، ولكن ليس بالضرورة النشاط السياسي فالثورة ليست بالضرورة ثورة سياسية، فقال لي سيرج: «أقدم لك شاعراً لم يمارس السياسة أبداً، ولكنه في الواقع أكثر ثورية من الجميع» إنه (هنري ميشو)، فتولدت عندي رغبة في قراءته وقرأت كل ماتوفر لي عنه، ووجدت أنه على حق، لأنه لم يلفظ كلمة الثورة أبداً، لأن القرن العشرين قد شوه وأهان هذه الكلمة وأفضل القول (التخريب أو

التهديم والتمرد) لأن كلمة التمرد تبدو لي أوضح وأنسب لوصف ماأعنيه.

■ **تقول أن القرن العشرين قد شوه وشان لفظ الثورة فماذا تعني بالضبط؟**

● لقد كتب بيريه ـ الذي أراد أن يكون مترجم أعمالي ـ (عار الشاعر) حيث ذكر كيف غرق الشعراء الفرنسيون في الوطنية والقومية، وأن كلمة الثورة، في القرن العشرين، مرتبطة بمآثر ستالين، وإنجازاته، وإنجازات ومآثر ماوتسي تونغ، وفيديل كاسترو، وفي نفس الوقت بذلك النوع من الافتتان والانجذاب للأنظمة الاستبدادية الكليانة التي أخليت لها الساحة في أماكن كثيرة من العالم، خصوصاً من قبل المثقفين الفرنسيين الذين كانوا تقليدياً معلمي المثقفين في أمريكا اللاتينية..

■ **كنت أول من فضح وأدان هذا النوع من الأنظمة.**

● لقد سبب ذلك لي الكثير من المتاعب. لحد الآن مازال الكثير لايسامحني على ماكنت أراه بوضوح حين كان الكثير لايرى بوضوح حقيقة تلك الأنظمة. أول شكوكي برزت عندما عشت تجربة الثورة الإسبانية سنة ١٩٣٧ عندما رأيت المصير الذي حل بالفوضويين وحزب البوم ـ حزب العمال للتوحيد الماركسي ـ. ومن ثم التجربة اليومية مع المثقفين الشيوعيين التي أثارت خيبتي. وعندما عدت إلى فرنسا بعد الحرب سنة ١٩٤٥ دهشت من رؤيتي الشباب المثقف قد اختار (جان بول سارتر) كمرشد ومعلم. أحد الأشياء التي قربتني من السورياليين هو موقفهم المستقل تجاه الستالينيين.

■ **وفي تلك الفترة تعرفت على (ألبير كامو)؟**

● دعيت للمشاركة في حفل تكريم للشاعر (أنطونيو ماشادو) في عام ١٩٤٦ في السوربون، فتحدثت في ذلك الحفل وقرأت (ماريا كازاريس) إحدى قصائدي، فانتبهت إلى شخص بمعطف مضاد للمطر بين الحضور فقلت لنفسي «هذه شخصية سبق لي أن شاهدتها في أفلام هوليود يمكن أن يكون بوجارد لكنه كان ألبير كامو الذي قال لي: «إنني أتفق معك تماماً» وأصبحنا أصدقاء.. كنت قد شاهدت قبل فترة وجيزة مسرحية «الشيطان والإله الطيب» لسارتر، وكان هو قد نشر من فترة قريبة كتاب «الرجل المتمرد» فقلت لكامو (انتبه سوف يهاجمك سارتر وينتقدك، لأن هذه المسرحية هي التبرير لما يعرف بالمصلحة العليا للدولة وللدولة الثورية خاصة. إنها تأليه وتعظيم للتاريخ، نفس التفكير التيولوجي الذي نجده في المسرح الإسباني في القرن السابع عشر حيث من المستحيل تخمين أو التكهن بمخططات الله، وتوقع ماقرره من مصير وكذلك مخططات التاريخ وعندما تعتقد أنك تقف إلى جانب الرب تكتشف أنك مخطىء، أو مرتكب للخطيئة، وعندما تعتقد أنك تقف إلى جانب الثورة فأنت في الواقع معادٍ للثورة، ولا أحد يعرف حل اللغز حتى النهاية عندما تتقرر، إما إرادة الله أو إرادة التاريخ، أي باختصار النزعة الجبرية وتسييرها للإنسان

المسير أو مسلوب الإرادة. وقد بدا كامو مرتاباً ومتشككاً وقال لي: «أنت على حق إذا نظرت للأمر من هذه الزاوية، لكن سارتر ثقافياً صديقي الكبير، ولن يتهجم علي أبداً»، وجاء الهجوم الأول في مجلة (الأزمنة الحديثة) ولم يتأخر الرد، فاتصلت هاتفياً بماريا كازاريس لأسألها عن حال ألبير كامو؟ أجابتني - سيئة جداً فهو يتجول في البيت كالثور الهائج . . .

■ **وبريتون؟**

● أحبه جداً ومعجب به جداً وأقدره أكبر تقدير. يمتلك طاقة تأثير وإفتان شيطانية، فقد كان في آن واحد، شاعراً ورجل فكر، ومثل هذه المواهب مجتمعة في شخص واحد أمر نادر. وهو نقطة تقاطع وتلاقي عدد من التيارات. أراه شخصياً وريثاً للرومانتيكيين، فهو يواصل طموحهم في إعادة خلق العالم وتحويل الشعر إلى فعل يومي، اختلف مع (بريتون) في نقطة واحدة، وهي ضرورة معرفة اختيار الأثر الإبداعي وليس الحياة في لحظة ما. إن خطأ (سارتر) الكبير هو اعتقاده أن الحياة تشرح وتفسر الأثر الإبداعي، وينسى أن الأهم عند بودلير موجود في (أزهار الشر) وليس في الرسائل التي كان يطالب فيها أمه بتزويده ببعض المال.

■ **فكرة نقطة التلاقي التي أوحتها شخصية ومكانة (بريتون) تبدو لي مهمة وأساسية في تفكيرك الثقافي؟**

● على كل إنسان أن يحاول إيجاد صلات بين مختلف الاختصاصات، وإلا فمن الصعب العيش في العالم الحالي المقسم والمجزأ. فكيف يمكن التحرك والعمل؟ لاتوجد عندي وصفة جاهزة، ولكن لدي قناعة هي أننا يجب أن نقوم بذلك. لاأدري كيف يمكن أن ننظر للفن الحديث دون أن نحسب التأثير الهائل الذي مارسه عليه العلم الحديث. عندما كان ذلك التأثير خليطاً من الشعوذة والغموض.

■ **لقد أدخل السرياليون (فرويد) إلى فرنسا، وكل مايترتب على ذلك من تبعات**

● لكني أعتقد أن السرياليين - وعلى رأسهم بريتون - قد أساؤوا فهم فرويد كما أساء التكعيبيون فهم (الفيزياء الجديدة). في الورشات الباريسية سنة ١٩١٠ لم يكن يدور حديث إلا حول الفيزياء الجديدة، وعن البعد الرابع ولا أقل من ذلك. أحد أهم اللوحات في عصرنا الحالي هي (الزوجة التي عراها عزابها) لمارسيل دوشومب متشبعة بنظرية البعد الرابع. ومن مفهوم رياضي بحت خلقوا مفهوماً ميتافيزيقياً.

■ **ألا تعتبر هذا الانفتاح على الجميع من الميزات الخاصة بفناني أمريكا اللاتينية؟**

● إنها جزء من مصير أمريكا اللاتينية. فهي تقبل كل ما يرد إليها مما وراء البحار حيث انطلق المكتشفون الأوائل. نحن جزء هامشي من الغرب الأمريكيون الشماليون أيضاً، إلا أنهم منعزلون وهامشيون منذ البداية لأن أغلبهم جاء من بلد متميز هو انكلترا. الأمر

يختلف معنا . مازلت أتذكر (نيرودا) عندما كنا أصدقاء، يقول لي : «هل تعلم أن الاكتشاف الكبير في فترة مراهقتي كان قراءتي مختارات من الشعر الفرنسي».

■ **انتماء الأمريكيين اللاتينيين المزدوج لأوروبا وللعالم الجديد . . ألا يجعل منهم نموذجاً للمستقبل؟**

● إذا كان القصد نموذج مثالي فلا يمكنني تأكيد ذلك إلا أن تلك هي بالفعل صورة عن مجتمعنا المبعد. فأوروبا ترى فينا نوعاً من الصورة أو الانعكاس لها من خلال الماضي، أي ماضيها هي - في وقت كانت الأشياء فيه بسيطة - فأمريكا اللاتينية الحالية تمس مشاعر الأوربيين وتحرك فيهم الشجن والانفعال لأنها تذكرهم بأوروبا القرن الثامن عشر.

■ **هل يعني هذا الحنين للماضي، كما نوهت في كتاباتك الأخيرة، إننا نعيش نهاية الحداثة أو العصرنة؟**

● أعتقد أننا نعيش نهاية حقبة من التاريخ. نهاية الدولة القومية مثلاً أو نهاية فكرة الثورة التي كانت الفكرة القائدة والمحركة عالمياً منذ عام ١٧٨٩، كانت فكرة الثورة خرافة مست مثقفي القرن التاسع عشر، سواء أكانوا معها أو ضدها، الرومانسيين الألمان، (بلزاك) أو (فيكتور هيغو). (فلوبير) كان يمقت فكرة الثورة - لقد أحسسنا بذلك جيداً إبان فترة الكومونة - ونفس هذه الفكرة، كان (بودلير) قد أحبها وكرهها على التوالي، ولكن الجميع تأثر بها سلباً أو إيجاباً. وكفكرة التقدم، والعودة إلى الأرض، والاهتمام بحماية البيئة، والقلق العام فيما يخص موضوع المحافظة على كوكب الأرض وإنقاذه من المخاطر، كل ذلك يشير إلى أن مفهوم المستقبل يمر في أزمة. فالمجتمع يتغير إذا تغيرت رؤيته للزمن.

■ **ماذا تقصد بفكرة الزمن؟ هل هو العامل الحاسم في تطور المجتمع البشري؟**

● بالضبط. لنأخذ أو لنراجع تأريخ الغرب منذ العصور الوسطى، الفكرة التي كونها الناس عن الزمن قد تغيرت مرات عديدة. كانت هناك فترة، كان للماضي فيها قيمة جوهرية، واعتبر نموذجاً للحاضر والمستقبل. ومن ثم فرضت فكرة نموذج الخلود نفسها وظهرت مدينة الله الخالدة التي تخيلها القديس أوغستين، مقابل العالم الناقص أو غير المتكامل. فبالنسبة لمسيحي حقيقي، ليست الأرض مكان تقدم وتطور، حيث تكتسب الحرية والسعادة اكتساباً بشق الأنفس، بل هي مكان للاختبار والمحنة التي نعثر فيها، إما عن خلاصنا أو ضياعنا. وبعد ذلك حولت هذه المفاهيم من دينية إلى دنيوية، علمانية، وابتدعت مفاهيم معادلة لها، كالعمل والمستقبل وبتنا نعيش في مرحلة انحطاط الزمن التدريجي.

■ **أنت تعتقد، إذن، أو لديك انطباع أننا نرى هذا المصير يرتسم أمام أعيننا؟**

● لاأرى بوضوح ماذا يرتسم، لكنني أحس بشيء ما يتشكل. نعيش في الحاضر وليس

لدينا سوى تصور طوباوي للمستقبل. وعلينا ابتكار أو اختلاق هذا الشيء الذي نريده.

■ **هناك نفحة روحية في كلامك، لكنك لم تلفظ كلمة «مقدس». ولكن عند حديثنا عن اللحظة والوقت والخلود، ألا يعني ذلك أننا نتحدث عن «المقدس»؟.**

● فيما يخصني لقد التقيت بالمقدس خارج الكنيسة، ولست الوحيد، فالماركسية كانت بطريقتها الخاصة نوعاً من الكنيسة المادية. وقد عادت للظهور الأشكال القديمة للإيمان الكنسي.

■ **يبدو لي أن ليس لديك أي تعاطف مع هذا الانبعاث للنزعات الدينية أو لبعض أشكالها المتطرفة؟**

● كلا على الإطلاق. أعتقد أن انهيار النظم الماركسية قد وضعنا أمام أشباح الماضي، أشباح الدين القمعي الاضطهادي المسيطر على حياة البشر، فالتطرف والتعصب مفاهيم رهيبة صارت تتسع في كل مكان بسبب انهيار النموذج المادي.

إن إقامتي في الهند، كسفير للمكسيك، زادت من تعاطفي لحالة التسامح الديني التي كانت سائدة آنذاك، ففيها تتعايش جميع الأديان التوحيدية وغير التوحيدية.

■ **وهل لديك تعاطف مع القوميين؟**

● كلا فهم خطرون بنفس خطورة أي تيار متطرف أو محافظ.

■ **هل تعتقد أن انهيار الأممية يدفعنا إلى التسليم بانبعاث التيارات القومية؟**

● الحل ليس هنا إنه في موضع آخر. الدولة القومية كانت أحد أكبر ظواهر القرن التاسع عشر وشطر قليل من القرن العشرين في الغرب وللشرق الأوربي على السواء، وعبرت عن بعض طموحات واحتياجات الشعوب، أو كانت تلبية لما نادت به تلك الشعوب، لكنها في نفس الوقت قمعت تلك الشعوب وسحقتها، فالدولة الإسبانية قمعت سكان (الباسك) و(الكتلان). و(فرنسا) مرت بفترة مثل هذه مع القوميات المتعايشة فيها. ولكن حذار من عودة النزعات القومية والإقليمية، لأنها يمكن أن تجر أوروبا إلى الفوضى والخراب. فالدولة القومية صغيرة وغير قادرة على معالجة مشاكل جدية وكونية لايمكن حلها إلا على الصعيد العالمي.

■ **والحل؟**

● تشكيل مجموعات وكتل كالمجموعة الأوروبية، ووحدة البلدان العربية، والوحدة الأفريقية.. إلخ، ولكن مازال هناك تناقض، فإذا كانت الدولة القومية صغيرة على حل المشاكل الدولية فهي كبيرة جداً حيال المشاكل الداخلية، أي المشاكل التي تطرحها الأقليات القومية داخل الدولة القومية الكبيرة، كالمشاكل التي يطرحها الباسك في إسبانيا، والكورسيكيون في فرنسا والايرلنديون في بريطانيا والأكراد في العراق وتركيا وإيران، ولهذا

أميل إلى فكرة تحقيق الفيدرالية.

■ **أنت متمسك بفكرة التعايش والتواجد المشترك بين الطموح نحو العالمية والعودة للنزعة الخصوصية، فهل إن هذا التناقض قابل للاستمرار؟**

● يجب العمل على إيجاد حل لهذا التناقض، ففرنسا التي عرفتها عام ١٩٣٧ كانت فرنسا القومية العنصرية جداً، حيث اعتُبرنا نحن الأجانب فيها من الدخلاء. واليوم، وبتأثير الشعور بالانتماء الأوربي، تطورت هذه الذهنية، ولكن ليس بالضرورة نحو الأحسن، بل اتخذت شكلاً آخر.

■ **هل لليبرالية دور في ذلك؟**

● للكلمة عدة معان، بالمعنى الإيجابي منها الذي قصده (توكفيل) و (بينجامان كونستان)، كانت الليبرالية أمراً جوهرياً في هذا التطور، ونحن ورثة هذه الليبرالية، فقد ضمنت انتصار الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والتسامح على كل الأصعدة الدينية والسياسية والعرقية والجنسية، ولكن لليبرالية جانبها السلبي، فهي لاتشحن أو تعبيء المشاعر، ولا تقترح أن تحل محل الدين، وهي بهذا المعنى صحراء أيديولوجية، لذا لايمكننا أن نكون ليبراليين. يمكن أن نتصرف كأننا ليبراليون، ولكن لايمكن فرض فكرة الليبرالية ولا حتى فرض أية فكرة أخرى.

■ **ماذا يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك؟**

● لاشيء أكثر من ذلك لحفظ وصيانة كرامة الإنسان، ولكن بالنسبة للجماهير، لاأدري ربما نحتاج إلى أكثر من الليبرالية. من الصعب العيش وحيداً، وإجراء حوار مع العدم، أو مع الله، أو مع الموت، انما مع هذا النوع من الحوار للإنسان الوحيد في مواجهة ذاته ومواجهة الآخر. وعدم وجود العلاج لمحاربة الخوف والشفاء منه، وهذه هي نقطة ضعف الليبرالية، وهي في نفس الوقت عنوان فخرها.

■ **يمكن لليبرالية أن تمارس أيضاً الرقابة.**

● يجب عدم الخلط بين الليبرالية والثناء على السوق. قيل أن متطلبات السوق هي الدواء لكل الأمراض. كلا يجب إيجاد السبل لتنظيم النتائج، لأنه ليس للسوق ضمير، وهو أعمى كبقية الآليات، والنتيجة كارثية على الفن والثقافة عموماً، حيث لم يعد للأشياء قيمة، لها ثمن ولكن ليس لها قيمة، مثلما قرأت قبل أيام خبر عن انخفاض سعر (بيكاسو). بيكاسو هو دائماً بيكاسو فهو نفس الفنان ولوحة (آنسات افنيون) لم تزد أو تنقص، ولكن سعر بيكاسو هو الذي انخفض. إنه لشيء مؤلم أن تتحول القيمة الفنية إلى مجرد سعر في السوق، ونفس الشيء في مجال الأدب، فمنطق السوق ليس منطق الأدب لأن الأدب الجيد كان دائماً يخلق ضد متطلبات السوق وشروطه، ويوجه دائماً إلى أقلية، فيجب

المطالبة دائماً بحق هذه الأقلية، والتأكيد عليه.

■ **هل تقصد أن الأدب لايخص سوى عدد صغير من الناس؟**

● ربما أقلية منشقة - هرطقية - غير ممثلة للنظام العام، أو نخبة مختارة من الكم السائد، فهل هذا أمر جديد؟ كلا هناك دائماً أقليات وسيظل هناك دائماً أقليات. (كونغورا) شاعر إسباني من القرن السابع عشر، لم ينشر كتاباً واحداً، وتنتقل قصائده من يد ليد، ورسائل (مدام سيفينيه) كذلك. مجتمعنا مازال يقرأ ولكنه يقرأ قليلاً. إن نقص عدد النسخ المطبوعة للجرائد له دلالة كبيرة في هذا الاتجاه، حتى الصحف ذات التأثير الكبير لم تنج من هذا التدهور، فوسائل الاتصال تتطور على حساب الصحافة، فقد أصبحت صحيفة النيويورك تايمز صحيفة أقلية، لأنها تبيع مليون نسخة، ولكن أكرر أنه رغم ذلك فلن يختفي الأدب. . . يظل هناك دائماً قراء. لاأعتقد بحضارة وثقافة غير مؤسسة أو مبنية على توارث وتناقل الإرث الثقافي والتراث الثقافي فأي رجل يحكم بلداً - حتى لو كان سياسياً معاصراً من الولايات المتحدة الأمريكية - فمن المفروض أن يكون لدى هذا السياسي المعاصر بعض الأوليات الأدبية من بلده. فحضارة الصورة ستقسم المجتمع إلى مجموعات، كما كان الحال في كل الأزمان، الطبقة الحاكمة ستستمر في القراءة والاطلاع، أما الآخرون فلا، وسيكون ذلك أمراً مفجعاً ومأساوياً.

■ **حدثنا قليلاً عن المكسيك.**

● فيما يخص المكسيك فأنا متفائل، فلم يكن بلدي أبداً ديكتاتورية عسكرية على نمط ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية. لدينا حزب متجانس عباً وحكم البلد خلال خمسين عاماً. لم يكن النظام ديمقراطياً، فهذا يحتاج لكثير من المعطيات والظروف والشروط، لكنه لم يكن ديكتاتورياً. وصار يتغير منذ عشرة أعوام، وأصبح نظاماً تعددياً وديمقراطياً نوعاً ما، وشهدنا في السنوات الأخيرة عودة لاقتصاد السوق وانفتاحاً على الخارج. والمكسيك ربما هو البلد الوحيد في أمريكا اللاتينية، الذي نجح في الخروج من هذا المأزق التاريخي، وهذا الطريق المسدود الذي شل القارة الجديدة.

هناك قيد التحضير معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، ربما ستكون بداية لنوع من السوق المشتركة الأمريكية الشمالية ولاتنسى أن لدى المكسيك ٨٠ مليون نسمة، أي أكثر من سكان أوربا الوسطى.

■ **اتحاد وثيق وتكافل بين نقيضين، بين المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية؟ ألا تشعر بخطورة مثل هذه الخطوة؟**

● هذه هي المرة الأولى التي نلتقي فيها، في ظل نظام ديمقراطي، بمثل هذا التعدد العرقي تحت نفس المظلة، فوحدة الثقافات وخلق المجتمع المتعدد الثقافات، الذي كان

مطروحاً منذ ثلاثين عاماً في الولايات المتحدة ـ بات أمراً مفروغاً منه اليوم، ففي بعض المدن أصبحت ظاهرة ازدواجية اللغة تفرض نفسها تدريجياً. في (البورتو ريكو) اعترفت الحكومة بالإسبانية كلغة رسمية، وقبلت (واشنطن) بهذا الإجراء بلا أي اعتراض، وهذا اختلاف كبير عما كان يحدث قبل عشرين عاماً، وتجربتي الشخصية مثال على ذلك، فقد شارك والدي بنشاط في الحياة السياسية المضطربة في المكسيك أيام ثورة زاباتا مما قاده للمنفى.

■ **وأين كان منفاه؟**

● إلى الولايات المتحدة، حيث التحقنا به فيما بعد أنا وأمي. في اليوم الأول الذي ذهبت فيه للمدرسة لم أكن أعرف كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية. وفي فترة الغداء في المطعم الطلابي لم أستطع أن أطلب ملعقة، لأني لاأعرف كيف أطلبها، فتكلمت بالإسباني، وضحك مني الجميع، واندلع قتال ومعارك بيني وبين بعض التلاميذ، وتبادلنا الشتائم. وبعد أربع سنوات حصل لي نفس الشيء، ولكن بصورة معاكسة عندما رجعت للمكسيك، وصفني التلاميذ بالأجنبي القذر، بسبب اللكنة الواضحة في حديثي بالإسبانية.

■ **إن اهتمامك بالفن معروف، فما رأيك بالوضع الحالي للفن؟**

● آخر شيء استرعى اهتمامي، وجذبني، بل سحرني هو بروز الفن التشكيلي الأمريكي الشمالي، وبالأخص، التعبيري منه. وبالذات مع (غاسبر جونس). وفي الحقيقة إنه امتداد للفن التشكيلي الأوروبي. العنف والإبعاد هي فقط الأمريكية فيه، ونفس الشيء نجده بالطبع عند الرسامين الجداريين المكسيكيين. وكلهم مرتبطون بشكل ما بالفن التعبيري الأوروبي، أما مايحدث اليوم فيمكنني أن أقول أننا نعيش فترة خمول، وتوقف مؤقت، بعد هيمنة وشيوع الشكلية في جميع المجالات الفنية، وفي كل المستويات. وأستطيع القول أننا مصابون باختفاء الفن التشكيلي الحقيقي. فعندما نزور معرض الفنون الأمريكي نرى الأشياء أكثر من اللوحات خصوصاً في متحف ويتني. وبما أن الثورات الجمالية الكبرى في الفن باتت خلفنا، فربما حان وقت الفنانين الأفراد، فمفهوم الطليعة والثورة أصبح قديماً.

■ **هل انتهينا من المراسيم، ومن التاريخ؟.**

● كل الثقافة المعاصرة مبنية على مفهوم التاريخ والمدرسة، وتبعاً لذلك فإن مجمل رؤيتنا للفن خاطئة، لأننا لوّنا التاريخ بفكرة الزمن، وفكرة الحركة. تصور أحد معاصري (جيوتو) يرى جيوتو بصورة لازمنية. إن أحبه أو لم يحبه فلذلك دائماً علاقة بالله أو بالكنيسة أو باللون، أي بما يتعلق بقيم جمالية أو روحية، ولكن ليس من منظار الفكرة التاريخية التي تسمنا. حتى الأوائل الذي جمعتهم الصدفة بأحد أعمال بيكاسو، اكتشفوا وبلا براعة في

النظرة، القيمة الحقيقية للأثر، وصرخ بعضهم «الفن المعاصر، أخيراً، يالها من روعة» بينما احتج آخرون وصرخوا «ياللفظاعة»، والجميع حكم على هذا الأثر من منظار تأريخي، وبذلك يكون تاريخ الفن الحديث قد تم في نظر المتخصصين، في سلسلة من الانقطاعات المتعاقبة.

■ **ولكن ماذا لو انتهى التاريخ أو توقف؟.**

● التاريخ بدأ مع الإنسان ولن يتوقف إلا بانتهاء الإنسان نفسه. إن الذي انتهى هو فكرة التاريخ كرجع عالمي. سيكون هناك تتابع وتسلسل، لكنها ستكون شخصية، وليست مطلقة. لكل واحد تاريخه على الرغم من التشابه والتجانس والصلات. كل جيل، سيخلق كلاسيكييه، وكل إنسان سيختلق حاضره وماضيه..

■ **نهاية الفن تعتبر والحال هذا انقلاباً مستمراً أم دائماً؟.**

● كل فنان سيقوم بثورته وحده، وعليه أن يتحمل وحده ثقل السعادة المحزن.

الشعر الكردي
بين الحداثة والكلاسيكية

بافي حلبجه

ثمة اتجاهان رئيسان في هذا الصدد يتنازعان في السيطرة على الشعر الكردي لكي يطبعاه، كل منهما، بطابعه الخاص والمميز متناسيين ومتغافلين عن العلاقة الموضوعية التاريخية التي تربط بينهما، فالاتجاه الأول متمثل بالمدرسة الكلاسيكية التي امتدت إلى أواسط هذا القرن، والاتجاه الثاني متمثل بالمدرسة الحديثة التي تسمى خطأ بمدرسة الشعر الحر التي انتزعت القيادة التاريخية دون الفعلية من المدرسة الكلاسيكية اعتباراً من نفس التاريخ.

وإذا كانت المدرسة الكلاسيكية تمتاز بشعرها ذي القافية والوزن والجرس الخارجي المفترض والكلمات المختارة ذات النبرة المميزة على السمع من الزاوية الشكلية فقط؛ فإن المدرسة الحديثة التي أفنت نفسها بالمضمون تتفرد بالجرس الباطني النفسي والكلمات السلطوية والسيادوية والمفرطة في الشخصانية، قد تعافت من القافية والوزن، وتفادت الجرس الخارجي المفتعل وتحاشت بنفس الوقت لعبة القط والفأر بين الشاعر والكلمات، حيث تركت للوعي الفرويدي أن تستمر ساحة الشعور وتستفرغ كل مالديه من ركام ـ سواء وعى ذلك أم لم يع ـ على بساط مثلي أفلاطوني مكتسيه بمعالجة ماركوزية في قسم من مضامينها وهيدجرية في نسبة أقل، وموضوعية وضعية في القسم الأعظم.

والسؤال الجوهري المطروح للبحث والتحليل: هل ثمة تنازع فعلي وحقيقي بين المدرستين ضمن الأوجه التالية: الأول الوجه التناقضي والثاني الوجه الجمالي ـ الذوقي ـ والثالث الوجه النفسي ـ اللاشعوري والرابع الوجه اللغوي ـ الكلماتي . .

في البداية يجب رفع الغبن عن مفهوم مايسمى بالشعر الحر الذي هو مصطلح مجازف ومراهقي ومجير في زيادة الاستخفاف والاستهتار بموضوعية مايسمى بالشعر الحديث. ولسوء الحظ فقد استهلك هذا التعبير من الجانبين ـ أصحاب المدرسة الكلاسيكية وأصحاب المدرسة الحديثة ـ للإيقاع به من الجانب الأول.

والحقيقة أن التحرر من ربقة الشكل والوزن والقافية لاينم على الإطلاق عن مفهومية الشعر الحر. وبالرجوع إلى مزايا وخصائص الشعر الحديث تتضح الصورة المقيدة والثقيلة وموقع الكلمة الصعبة والمثيرة والجرس اللاوعي الواعي ـ بل الموغل في الوعي المعاشي ـ بحيث نكون أمام قيود وأغلال أكثر صعوبة وتجشماً للسبر والتقسيم، فالكلمة مثلاً تخدم المضمون الانفعالي في الشعر الحديث بينما هي تخدم الشكل المنفعل في الشعر الكلاسيكي وهي تناغي التوتر الباطني المتوعى في الشعر الحديث، بينما هي تساير، بل تجامل الانسجام الخارجي بين الشاعر والقافية في الشعر الكلاسيكي. . نرد على ذلك أن هناك قوة التدرج في المعنى للكلمة في الشعر الحديث وفقدانها في الشعر الكلاسيكي الذي يتعامل مع الكلمة ضمن معيار أحادي القياس.

وغني عن البيان أن الكلمة تكون وحدة إدارية فردية وجماعية تضمر السلب والإيجاب والمعنى المتطور في الشعر الحديث، إضافة إلى الانفصال والاتصال المتضامنين، بينما هي في الشعر الكلاسيكي تفقد فرديتها وتذوي ضمن الجماعة ليكون لها عمل وظائفي واحد كالاحتراق بالنسبة للنار.

هذا من جهة ومن جهة أخرى لايمكن إدراك الارتباط الرياضي بين المدرستين إلا إذا وعيت المسألة من الزاوية التاريخية وبالخصوص بالنسبة للوحة الخماسية (التشكيلات الاقتصادية الخمسة) أو على الأقل إعادة العلاقة بين الشعر والتاريخ إلى أنماط الإنتاج فهي إحدى المنعكسات الموضوعية لهذه العلاقة فالشعر الملحمي أو الغنائي الكلاسيكيين هما من معطيات الفترة التاريخية المسماة باختصار ماقبل الرأسمالية، في حين إن الشعر الحديث من نتاج مخاض الرأسمالية. فالتشكيلات ـ ماقبل الرأسمالية ـ الاقتصادية تركز على أنا الجماعة وعلى الأحاسيس الجياشة المشتركة وعلى انصهار الفرد ضمن التجمع الجمعي، لذا اتسم الشعر الكلاسيكي بوزن وقافية الشكل مستخدماً كلمات تعالج موضوعات متفرقة كضرب الأمثال والحكم وإبداء الشجاعة والجمال الأنثوي أو التركيز على الفضائل والرذائل أو إظهار روح القوم والطائفة والخصال المميزة لأفراده، علاوة على الافتخار بقصص الحب الملحمي والعاطفي.

كل هذا لايعيب في مركز الشعر الكلاسيكي ومكانته المرموقة في تاريخ الأمم والشعوب، إنما ينم عن رقي وحضارة تلك الأمم وكيفية فهمهم لنوعية الحياة المعاشة بما

فيها جوهر الفرد وماهية الوجود.

وهـذا ينـطبق تمـاماً على الشعر الكردي الكلاسيكي، وحتى على الفكر الكردي الكلاسيكي، الذي بحكم تواجده التاريخي الموغل في القدم ـ مثال الفيلسوف زرادشت وماني ـ كان من المفروض أن يتابع سيرته وتطوره عبر الامبراطورية الميدية، إلا أنه لأسباب أهمهـا دينية حدث انقطاع معرفي ابستمولوجي وفقدان معرفي غنوصيولوجي، ولولا ذلك لذكرنا أكثر من ـ مم وزين ـ فرهاد وشيرين ـ.

وبمجـرد ولـوج المجتمعات الكردية المرحلة الرأسمالية حتى نهشت فيها مخالب التفـرد والأثـرة الـلاكـانية، وغدا اللاوعي يخدم أنا الفرد، وشيئاً فشيئاً اختفت معالم أنا الجمـاعة، وبهذه الصورة الميكروسكوبية تغيرت كل البنية الفوقية، وأضحى لكل قديم جديد خاص به يمقت القيود الشكلية ولايجد معالمه الذاتية إلا من خلال التحرر من كل مايصفد الشعور المتعلق بعمق كينونة الحياة، وبهذه الروح الجديدة تأثر الشعر الكردي الحديث وإن كان لايملك فلسفته الخاصة به أو معالم فكر يميزه، لهذا السبب ـ وضمن أسباب أخرى مختلفة ـ فإنه مابرح فتياً وبحاجة ماسة إلى الرهافة والصقل والاختيار الموفق للكلمـات التي تتـآلف وتتناغم مع الفكر ـ النفسي ـ الباطني ـ لذا برز نوع خاص من ـ الشعر ـ الكردي الحديث لدى قسم من المهتمين باللغة الكردية ينتمي في شكليته أحياناً إلى الشعر الكردي الكلاسيكي وأحياناً إلى مبعثرات وجدانية، لكنه يعالج موضوعات تحوم حول مفهوم الشعر الحديث وكأن المعادلة ـ شيء من الإقطاعية وشيء من الرأسمالية ـ وهذه المعادلة تكاد تنطبق على كافة البنيويات الفوقية للمجتمع الكردستاني وبالأخص على الصعيد السوسيولوجي والسياسي والأخلاقي، أما بالنسبة إلى الشعر فإن ذلك بسبب جهل هؤلاء المهتمين بأصولية وتأصيلية نزوع الشعر الحديث إلى احتلال مكانه المرجو له دون تقليص دور وتواجد الشعر الكردي الكلاسيكي إن وجد؛ لأن الارتباط الحقيقي بين الشعر الكردي الحديث والشعر الكردي الكلاسيكي هو تطوري تاريخي موضوعي تصاعدي من ناحية، ومن ناحية ثانية تكـاملي تضامني إيجابي، فينتفي أي تناقض بينهما مهما كانت صوره ومايعتقده البعض من وجود تناقض بينهما فهم يتوهمون في إسقاط المعادلات بين تنـاقضـات البنية التحتية والتنـازع الـدامي والمهلك لها من جهة، وإشكاليات. الوفاق ـ التعارضي بين ماهو قديم ـ جديد من جهة أخرى، ومسألة الشعر هنا كمسألة الأخلاق تماماً حيث يكون هو الموقف التابع للمسألة الأساسية التي هي المتبوعة وتحدد طريقة تفكير المرء بصورة شاملة تامة. ولكن انتفاء التناقض لاينم على الإطلاق عن عدم وجود تعارض ونزوع إلى التناقض، فالمسألة هنا هي إيجابية التناحر السلبي في التشكيلة الاقتصادية.

ندرك من ذلك أن استخفاف الشعر الكردي الكلاسيكي بالشعر الحديث هو مزاجي

وغير موضـوعي وغير منسجم بالصيرورة التـطورية للأدب الكردي بصورة عامة، كما أن اعتبـار الشعر الكردي الكلاسيكي ـ من قبل أصحاب الشعر الكردي الحديث ـ قد بلي ورث وعفى عليه الزمن هو تعد صارخ واعتباطي وغير موزون، للعلاقة التي تربط بينهما.

وهنـا لابـد من وعي مسألة أخرى ذات أهمية استثنائية، فالتطور الشعري أحادي الجانب (استمرارية الشعر الكلاسيكي، والحضور الهزيل للشعر الحديث) دون التطور الأدبي بصورة متكاملة شاملة، أو الحضور الباهت للقصة القصيرة والرواية والنقد والصحافة ينم ـ من جملة ماينم ـ عن التفكك الفكري ـ الثقافي ـ السياسي ـ والسوسيولوجي ـ وعن فجـاجـة الأوضـاع والمـواقف المتنوعة عامودياً وأفقياً وعن شرخ انفصامي بين المستوى الحضاري التاريخي لسمة العصر وبين المستوى المنكمش وأحادي السطوح المنعكس عنها.

ضمن هذا الإطار لامناص من طرح السؤال التالي: إذا انتفى التناقض بين الشعر الكردي الكلاسيكي والشعر الكردي الحديث وأضحى هذا الأخير امتداداً موضوعياً للأول وهمد النزاع ونشأ نوع من التعايش الإيجابي بينهما. أفلا نناقض أنفسنا عندما ربطنا الشعر من حيث الكلاسيكية والحداثة بالتشكيلات الاقتصادية الأساسية (الخمسة)؟

الجـواب هو النفي بالتـأكيد، فالتناقض الحاصل في البنية التحتية لاينتقل بنفس الضراوة والانعكاس السلبي إلى البنيويات الفوقية، إنما هنالك الوعي الطبقي ـ الاجتماعي الـذي يحدد إلى درجة كبيرة مدى التنازع الإيجابي في تلك البنيويات الفوقية، ولذلك نلاقي في كافة المجتمعات النامية ـ منها الكردية ـ ظواهر غير مشبعة بالموضوعية فإلى يومنا هذا ثمة هوة كارثية بين مايدعيه الشباب المتعلمون وبين مايطبقونه في الواقع فهم لايذودون عن آرائهم النـظرية ـ التي لم تحظ ببعـدهـا المـطلوب ـ إلا ضمن تجمعـات خاصـة واستثنـائية، والمجتمـع الكـردستاني يعاني من هول هذه الفاجعة على كافة الأصعدة، والأنكى من ذلك هو ضعف تداول اللغة الكردية بين المتعلمين.

زد على ذلك أن المجتمع الكردستاني يحتوي عدة أنماط إنتاج ضمن التشكيلية الواحدة فثمة علاقات رعوية وأخرى إقطاعية بطريركية وثالثة رأسمالية مع العلم أن الفرز الموضوعي بين جيش بروليتاريا التصاعدي وبقية الشرائح الاجتماعية لم تتحدد معالمه بعد، فكل هذا يؤثر ميكروسكوبياً على تقدم الشعر الحديث ليتبوأ القمم المركزية العائدة له.

من هنا نجمل القول إن معطيات اللاشعور في الشعر الحديث بسبب القساوة في المعاناة ـ إبادة ـ تهجير ـ تنكيل ـ مجازر ـ قمع ـ إرهاب ـ انصهار ـ عدم تمايز ـ تؤلف على الطريقة الهيجلية (نفي، إثبات) إحدى أهم المداخل إلى بوابة الشعر الحديث حيث أنها

إذا تآلفت بالانسجام وتعاضدت بالتقابل مع الكلمة المعبرة بالتدرج في المعنى وبالموضوعية في المفهوم أنشأت مايمكن تسميته بالتذوق الباطني للتفاعل الفعلي بين الواقع وبين قوة التعبير عن تناقضاته ـ فالواقع في الشعر الحديث مختلف السطوح لايمكن وضعه في قوالب جامدة ولا يدرك إلا من خلال معادلات عامة ومبادىء فلسفية كلية وشاملة.

لذا من المستحيل السيطرة على جزئياته وكأنها تابعة للهندسة اللاإقليدية أو للزمكان الأينشتايني، وذلك لأن الواقع في عموميته ـ يتضمن السلب والإيجاب المتآلف ومعظم التعابير المتناقضة المتزامنة ليرسم خطوطاً بيانية تواكب بنيان الشعر المؤدلج.

علاوة على ذلك، لقد تفشي مؤخراً من قبل المهتمين باللغة الكردية مايمكن تسميته بالمبادرات الشعرية حيث نقتضب الرد إيجازاً على النحو الآتي: إن هذه المبادرات وإن كانت تعالج ـ أو هي بصدد معالجة ـ جملة إشكالات مطروحة للسبر والتنقيب، وموضوعات عامة تطغى على حياة كافة الناس، وتصطبغ بآراء فيها الكثير من التحدي العملي والأيديولوجي ـ الفلسفي ـ إلا أن فيها من السطحية مايخجل ومن الركاكة في التعبير واستخدام الكلمة مايبعث على التنافر، ثم إنها غير جديرة بتواجدها في هذه المرحلة المتقدمة من التاريخ.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ثمة ظاهرة سلبية فيها من السذاجة الكثير، ألا وهي تقريظ المهتمين بالشعر الكردي بعضهم بعضاً، وتمجيد الواحد منهم للآخر ـ ظناً منهم ـ بأنهم خلفاء ذلك الشاعر، وعلى الأغلب خليفة شاعرنا الكبير ـ جكرخوين ـ ولنا عليهم في ذلك مآخذ ثلاثة إضافة إلى السذاجة في التفكير: **الأول** مأخذ موضوعي وهو أن شاعرنا الكبير مَثَّلَ وجسَّد فترة معينة، بل خاصة واستثنائية جداً من حياة المجتمع الكردي ألا وهي نهاية الإقطاعية كمرحلة تاريخية كبرى، فمفهوم الخلافة فيه من المغالطة والمزج الموروافي مايدعو إلى الاستغراب ـ **والمأخذ الثاني** نفسي ـ اجتماعي ـ حيث هل حقيقة ارتقى هذا ـ الشاعر المفترض إلى مستوى متطور في كتابة الشعر الكردي، وبتعبير آخر هل إن ذلك ـ الشاعر ـ يمثل كظاهرة ـ مثلما جسدها شاعرنا الكبير ـ جكرخوين ـ حياة أغلبية المجتمع الكردي، أم أنه على العكس لم يصبح بعد شاعراً. **والمأخذ الثالث** وظيفي حيث كيف تسنى ـ للشاعر الأول ـ أن يقيم الشاعر المفترض وضمن أي منظور وعلى أية أسس عملية وعلمية، أم إنها مجرد استمالة ودية وتشجيع متهافت ورؤيا إقطاعيه تنتج في كثير من الأحايين جملة شروط سلبية عقيمة بجلب المضار للمجتمع الكردي.

لذا، وباختصار شديد، ندرك أن الشعر الكردي الحديث يعاني من جملة إشكالات غير ميسورة المعالجة، لأنها تمثل جزئياً، بل هي إشكالات المجتمع الكردي برمته من منظور مرئي معين.

القامشلي ١٩٩١

فرقة السليمانية للموسيقى:

نعمل من أجل
فن كردي أصيل ومعاصر

سمعتها تسبقها أينما اتجهت.. فقبل أيام من احتفال الشيوعيين بعيدهم الثامن والخمسين في (أربيل) دار الحديث عن مستواها الفني المميز.. وعند الاحتفال قدمت الفرقة، وقوامها أكثر من مئة عنصر، بين عازف وكورس ومغنٍّ فردي، وإداريين، يقود الفرقة إدارياً الأستاذ (فريدون دارتاش)، وفنياً الأستاذ الفنان (أنور قره داغي)..

مع الفرقة كان لنا لقاء وحوار مع المدير الإداري والمدير الفني، والمغنية الواعدة (بيمان)، وحضر اللقاء ممثل عن هيئة إعلام إقليم كردستان للحزب الشيوعي العراقي هو الرفيق (مهدي).

■ أستاذ فريدون، هل لكم أن تتحدثوا عن البدايات.. كيف تشكلت الفرقة؟ وماهي الظروف التي رافقت البدايات والمسيرة منذ التأسيس؟

فريدون ـ تشكلت الفرقة عن طريق الصداقة، صداقة جمعتني مع الأساتذة أنور قره داغي، خالدسه ركار، فرنسيس داود، محمد أمين حسين ثم حسين علي. كنا نعقد جلسات فنية في البيوت نتبادل الآراء والمعلومات والطموحات، فولدت الفكرة. وبدأ التنفيذ في الواقع عام ١٩٦٧، وأعلنا عام ١٩٦٩ انبثاق فرقة السليمانية للتمثيل والموسيقى. وبعد مدة، وبهدف تعزيز التخصص وتطوير العمل انفصلت فرقة الموسيقى طوعاً عن فرقة التمثيل. وسُجلت الفرقة رسمياً باسم (فرقة السليمانية للموسيقى) عام ١٩٧٣، والأعضاء المؤسسون أنور قره داغي، فريدون، محمد أمين حسين، وليم يوحنا،

فريد عيسى. وقدمت الكثير من النتاجات الموسيقية والغنائية، واشتركت في العديد من المناسبات، داخل السليمانية، وخارجها. وقد لعبت دوراً في ترشيد الحركة الفنية الكردية الأصيلة.

■ **من المؤكد إن الفرقة واجهت العديد من المصاعب.. أقصد المصاعب الاجتماعية والسياسية..**

فريدون ـ دعني أوضح هذا الجانب، بعد عام ١٩٧٤ بدأت السلطة تضغط على الفرقة لتسخيرها في خدمة أهدافها ونواياها، وتصاعد هذا الضغط في فترة القادسية وكان يراد للفرقة أن تكون بوقاً للنظام ولصدام. رفضت الفرقة كل الضغوطات وأستطيع القول بأنها الفرقة الوحيدة التي فعلت هذا وتحدت السلطة.

أنور قره داغي ـ لقد كان الشيوعيون يدعمون مواقفنا معنوياً ويحثوننا على دخول هذا الامتحان.. كانت أجهزة السلطة القمعية تهددنا دائماً، وحصل لمرات أن استدعوا البعض منا للترهيب، مما اضطر الفرقة لتجميد نشاطها لمرات.. وأحب أن أشير إلى مسألة هامة قد تفسر سر هذا التحدي... فالكثير من أعضاء الفرقة تركوها بسبب مطاردة السلطة لهم لأنهم رفضوا المشاركة في «قادسيتها» والتحقوا بقوى المعارضة الكردستانية والوطنية..

مهدي ـ لقد كنت أعرف بأن الفرقة مدرسة لتربية النشء على عدم الرضوخ، إضافة للتربية الفنية.من خلال مشاهدتنا للفرقة، تلمسنا مقدار الجهد المبذول من قبل مسؤوليها وأعضائها، وحجم المشروع نرجو من الأستاذ أنور أن يحدثنا، باعتباره مسؤولاً فنياً للفرقة، عن واقعها الفني وآفاق ومستلزمات تطورها؟

أنور ـ كانت هنالك فرق أخرى، ولكنها لم تكن بنفس مستوى التفكير الفني والموسيقي على وجه التحديد. طموحنا كفنانين أكراد، هو إحياء التراث القومي الكردي. لهذا كنا نفكر دائماً بمتطلبات وسمات الفنان الذي يمكن له أن يخدم هذا الهدف ويسهم بتطوير الحركة الفنية والموسيقية.. وسياستنا في الفرقة عدم الفصل بين الجانب الفني والجوانب الاجتماعية والسلوكية.. أقصد ـ وهذا جانب هام في عمل الفرقة ـ إن شرط القبول للعضو ليس الإمكانية الفنية وحدها، وإنما السمات الأخلاقية.أيضاً قدمنا مذكرات عديدة سابقاً إلى السلطة للمطالبة بتوفير بعض الإمكانات الفنية في المدينة كفتح ستوديو للعمل، وكانت السلطة تستغل ذلك لزيادة الضغط ترهيباً وترغيباً.

وبصدد الواقع الفني للفرقة، فإن مارأيته هو جزء بسيط مما لدينا، فهنالك إمكانيات أخرى لم نستطع تقديمها لحد الآن. الفرقة شاملة، ويمكن تشكيل فرقة شعبية، وأخرى كورال، وفرقة عالمية منها. الكثير من العازفين هم من خريجي كليات ومعاهد فنية ويمتلكون مهارات جيدة. لدينا جميع أنواع الآلات الموسيقية.. سمعتك تتحدث عن

طموح لأن تكون الفرقة نواة لفرقة سيمفونية لكردستان العراق، أقول، المهم الآن هو الاهتمام بما تطرحه الفرقة للجمهور الكردي، ولمستوى حاجاته ومزاجه.. نريد الآن إبراز التراث، من خلال البحث في واقع المجتمع. أسلوبنا معاصر، يسهم في تطوير الواقع الفني، ونفكر مستقبلاً بأساليب جديدة في أعمالنا الموسيقية والغنائية.

فريدون ـ يتميز أعضاء الفرقة بالروح الجماعية، فلقد تعلم العشرات من أبناء السليمانية فنون الموسيقى على أيديهم مجاناً، فتحوا دورات فنية لهذا الغرض.. وأستطيع القول أن السليمانية صارت منبعاً ومدرسة للموسيقى.. وشعارنا الدائم هو «من أجل فن كردي أصيل ومعاصر»..

■ **تريد أن نعرف رأي الأستاذ أنور عن واقع الأغنية الكردية الراهن.. هل تتعاملون مع الأغاني المبتذلة؟**

أنور ـ الفن الكردي مظلوم، يوجد أناس يجهلون العمل الفني في الوسط الفني، ولكنهم قليلون.. مانقدمه ليس بمستوى الطموح ولو توفرت لدينا المستلزمات والدعم لصار مستوى فرقتنا بمستوى الفرق العالمية.. إننا نفتقر للعديد من مستلزمات العمل الفني الناجح، كالأجهزة المتطورة والاستديوهات الحديثة، والقاعات ذات السمات ا لفنية.. إلخ.. كما أن الفن الكردي بشكل عام يُواجّه بالتعتيم الأعلامي في الخارج، وهذا سبب آخر لعدم شهرة الفرقة في الخارج... وآمل أن تستطيع، بدعم الحريصين، الخروج إلى العالم للتعريف بالفن الكردي، مما يساعد أيضاً على تطويرها..

مهدي ـ أذكر معلومة قد تكون غير معروفة. فالأستاذ أنور بذل جهوداً كبيرة في توثيق الفلكلور الكردي وتجميعه وهو يمتلك مكتبة ضخمة للفن الكردي.

أنور ـ أعيش مع التراث بكل كياني وخاصة التراث الكردي فما أجمعه من الصور والمقطوعات التراثية والفولكلورية أوظفه في مقطوعات أو كورالات.

منذ عام ١٩٧٠ جمعنا حوالي (٢٨٠٠) أغنية كردية. أذكر أننا قدمنا عام ١٩٧٧ مذكرة إلى الجامعة، وكنت مسؤولاً لقسم الموسيقى في جامعة السليمانية، طلبنا فيها تشكيل لجنة لمسح المأثورات الفنية الكردية. وافق حينها مجلس الجامعة، ولكن أجهزة الأمن رفضت الفكرة، ومنطلق الرفض شوفيني، وهو منع إحياء وتطوير التراث الكردي.

■ **السيدة بيمان باعتبارك مغنية الفرقة كيف تفهمين العلاقة بين دورك كمغنية، والجهد الجماعي في العمل الفني للفرقة؟**

بيمان ـ فهمي للعلاقة بالعمل الفني يتأصل بواقع العلاقة الحميمة التي تجمع أعضاء الفرقة. فنحن نعيش خارج المسرح كعائلة واحدة.. بدأت العمل مع الفرقة منذ طفولتي، ومن هنا لاأستطيع أن أتصور غنائي مفصولاً عن إمكانيات الفرقة بأكملها..

وهكذا أستطيع تكوين شخصيتي الفنية ومواهبي . .

أنور - بيمان تعيش معنا كتلميذة دائماً . . والفرقة تكنّ لها الاحترام، وبيمان قاومت وتحدت الضغوط التي مورست ضدها من قبل اتحادات السلطة ومنظماتها، منذ وقت طويل . . إنجاز أي عمل فني يتم بالتفاعل الجماعي وبروح التلمذة في الفرقة.

■ ماذا الآن، والظروف قد تغيرت منذ انتفاضة آذار المجيدة؟ مذا تريدون أن تقولوا أيضاً . .؟

فريدون - أريد أن أستغل هذه الفرصة لأدعو الجميع إلى دعم الفرقة وتقديم يد المساعدة لها مادياً ومعنوياً . . إن ماتطمح إليه الفرقة يخص الجميع فعمل الفرقة يمس جانباً هاماً من قضايا شعبنا الكردي القومية فهل يمكن تصور أن فرقة بهذا المستوى لاتمتلك حتى الكرسي، فما بالك بالأجهزة الصوتية؟ وهل تصدق إننا ندفع إيجار القاعات من جيوبنا . . . إنها دعوة للجبهة الكردستانية، تحديداً، كي تلتفت لأدباء وفناني الشعب الكردي في كردستان العراق . .

أجرى اللقاء

ع . السعدي



على طريق المؤتمر العام

تبـذل جهود حثيثة هنا أو هناك من أجل عقد مؤتمر عام للمعارضة العراقية، وهو المؤتمـر الذي بذل من اجل عقده والتحضير له الكثير من جهد المعارضة ووقتها، ومع ادراكنا ان المؤتمر أو عقده ليس غاية بحد ذاتها يجب تحقيقها بأي حال، وإنما هو على طريق العمل العراقي المعارض، خطوة لتقريب المسار وترشيد السير وجمع الجهد. ومن أجل ان يكون هذا المؤتمر خطوة في الاتجاه الصحيح لتحقيق الاهداف المرجوة منه، وان لا يكون مجرد اضافة اعلامية الى جهود المعارضة العراقية، نود التأكيد على أمرين هامين في مساعي التحضير لهذا المؤتمر وهما:

أولاً: ان يمثل المؤتمر الارادة العراقية المستقلة، وان يعيش مصلحة العراق حاضراً ومستقبـلاً، هذه المصلحـة التي لا تتقـدم عليها أية مصلحة اخرى، آخذاً بنظر اعتباره مصالح الاشقاء والاصدقاء التي لا تكون على حساب ارادة العراق ومصلحته المشروعة.

ثانياً: إن المؤتمر يجب ان يمثل الساحة تمثيلاً حقيقياً، فليس الغاية ان يجتمع مثنا عراقي من مختلف الاتجاهات الفكرية والقومية العراقية لكي يكون المؤتمر ناجحاً، وإنما نجـاحـه يتـوقف اولاً على حضـور أصحاب الساحة الحقيقيين، والقادرين على الفعل الميداني في ارض العـراق، والذين يمكنهم وضع ما يتمخض عنه المؤتمر من قرارات موضع التنفيذ والتطبيق.

وقد يستطيع المؤتمرون ان يعقدوا مؤتمرهم المنشود دون قوى الفعل الاساسي في المعـارضـة العراقية، ولكنهم لا يستطيعون ان يكتبوا له الحياة سوى لايام قلائل وعلى صفحات بعض الصحف فقط.

هذا ما نرى ضرورة الالتفات اليه في معرض التحضير لهذا المؤتمر حتى يكون خطوة جادة على طريق انقـاذ الشعب العراقي، وعند انعقاد هذا المؤتمر سيكون لنا حوله وفيه احاديث اخرى.

افتتاحية «الموقف» ١٦ تموز
تعبر عادة عن رأي حزب الدعوة

اعترافات خطيرة لكن متأخرة. . .*

الدكتور همام الشماع يتوصل، اليوم فقط،إلى الوضع الاقتصادي الخطير الذي أوصلت الدكتاتورية البلاد إليه نتيجة سياستها المرتجلة غير العلمية، وذلك في مساهمة هامة له في جريدة (القادسية) ليوم ١٤ تموز الحالي. لكننا نأخذ عليه، وهو الاقتصادي المتخصص، تجاهله الحقائق، بل البديهيات، التي نبّهنا إليها على مدى العقود الثلاثة الماضية وقلنا ان العراق بفضل سياسة النظام، قطر تابع للنظام الرأسمالي العالمي، وغير مستقل وإنه معرض للانهيار بسبب اعتماده على اقتصاد وحيد الجانب غير متنوع، على الصناعة النفطية الاستخراجية وعوائدها.

الآن يقول الدكتور الشماع مايلي: «لو تأملنا الاقتصاد العراقي . . . بالرغم من بنائه التحتوي الكبير، منذ ١٧ - ٣٠ تموز ١٩٦٨ لوجدنا أنه كان يعيش حالة من الاعتماد الكبير على العالم الخارجي، وبشكل خاص البلدان الرأسمالية المتقدمة وإن هذا الاعتماد. . كان مستتراً خلف ماتوفره موارد النفط من إمكانات تغطي مختلف جوانب النقص في مستلزمات الاقتصاد الزراعي أو الصناعي وفي قطاع البناء والتشييد. . والقطاع المصرفي والمالي».

ويواصل الكاتب: «ففي الزراعة كان العراق يستورد معظم حاجاته الغذائية الأساسية من الخارج خلال حقبة السبعينات والثمانينات وخصوصاً من الحبوب واللحوم والمنتجات الحيوانية، أما الصناعة. . فقد شهدت في عقد السبعينات بشكل خاص تنمية سميت في حينها انفجارية، دون أن تستند إلى مفهوم واضح لنقل التكنولوجيا من حيث تسلسل حلقاته، ودون أن تلتفت إلى ضرورات التكامل القطاعي، ومابين القطاعي، ودون أن تراعي اعتبارات الطاقة الاستيعابية. فخلقت بذلك قطاعاً صناعياً يعيش بصورة شبه طفيلية على موارد النفط والعملة الصعبة. . . وأصبح القطاع الصناعي يشكل واحدة من الآلات التي تعمل على نقل الموارد النفطية إلى البلدان الرأسمالية المتقدمة. . » و «استسهل قطاع البناء والتشييد في حقبة مايسمى بالتنمية الانفجارية ليس فقط استيراد مستلزمات إنتاج هذا القطاع، ولكن أيضاً استسهل استيراد الخبرات والملاكات وحتى العمالة. . . » وإلخ.

إن هذا ليس اكتشافاً جديداً، على العكس من ذلك إن كان حديث العديدين.ولربما نذكر أحد المسؤولين الكبار الحاليين حين رأى آنذاك وبصواب أن الخطة الانفجارية ستفجر العراق والشعب لما ستولده من مضاعفات.

لانريد في هذه العجالة أن نلقي الضوء على تشخيصات الكاتب المتأخرة في جميع جوانبها، ولكن نودُ أن نؤكد جزمه أن القوانين الضريبية في العراق مطبقة بصورة غير جيدة، منذ فترة طويلة. . ويقول: ««إن الضريبة في العراق تُجبى حصيلتها الآن والتي لاتتجاوز نسبة ٦٪ في أحسن الأحوال من مجموع الموازنة العامة للدولة من الشرائح الأقل غنى وتهملُ الشرائح الثرية.

يسعدنا أن يتوصل الدكتور همام الشماع بعد هذه السنين إلى هذ الحقائق.ولكنه تجنب الحديث عن الكارثة والخراب والدمار للبنية الاقتصادية التحتية والهياكل الارتكازية والصناعة النفطية والتبعات المالية الهائلة المطلوب تسديدها للدول المتضررة من غزو الكويت ومطالب إيران وتشبثها بما لديها من طائرات مدنية وعسكرية لجأت إليها أثناء حرب غزو الكويت.

كيف سينهض العراق من هذا كله؟ الدكتور الشماع يرى ذلك في صدام حسين وكلمات «حفظه الله» التي يرددها حوالي عشر مرات في مقاله الاقتصادي القيم.

ونحن نقول إن الشرط المسبق للنهوض هو إزاحة الدكتاتور ونظامه، المسؤولين عن الانهيار. .

---

* اذيعت الكلمة من "صوت الشعب العراقي،صوت الديمقراطية والتقدم" اذاعة الحزب الشيوعي العراقي،وهي تبث برامجها على الموجة ٧٥ مترا بذبذبة حول ٣٩٩٠ كيلوهرتسز، البرنامج الكردي: الساعه ٨-٩ مساء ويعاد الساعه ٧-٨ صباحا ، البرنامج العربي: الساعه ٩-١٠ مساء ويعاد الساعه ٨-٩ صباحا وذلك حسب التوقيت الصيفي لمدينة بغداد .

الاشتراك السنوي

٣٦ دولاراً أو ما يعادلها

يدفع مقدماً بشيك أو حوالة مصرفية الى رقم الحساب

466184/12

Banque Libano - Francaise

Bar Elias - Lebanon

المراسلات :

الثقافة الجديدة

سوريا - دمشق

ص. ب ٧١٢٢

تلفون: ٤٤٩٧٢٤

فاكس: ٧٧٣٩٩٢


فكر علمي
ثقافة تقدمية